رواية

إنك في أرض الشياطين

(لا تجزع إنهم هنا في كل مكان)

الكاتبة: منى شكري العبود ــ سوريا

المقدمـــــة

وحده الحب قادر على هدم جدار الخوف في أرواحنا المنهارة، وقلوبنا التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ليبعث بها الروح النديّة المليئة بالشذى والعطر، ليلقي تعويذته، و ينتشلنا من ظلمة اللعنة الملطخة بالدم والموت، ويحلق بنا إلى عالم الهدوء والسلام والألفة والحب.

إن لم يكن قلبك يحتفظ بالكم الهائل من الجرأة تكفي العمر كله، لا تجرب المحاولة، لأنك ستغرق في الأحداث، وتسترسل في قطار الرعب والجنون والصراع النفسي رغماً عنك، ولن تجد تلك المحطة الضائعة للفرار.

إن كنت مصراً، فأهلاً بك، لكن أحذرك من أمران

لا علاقة لي أن استيقظت من نومك فجأة، ووجدت أحدهم يقف عند رأسك، يحدق بك بشكله المرعب

ولا علاقة لي أن أصابتك لعنة هذه الرواية وتلبستك شياطين الأحداث، إياك أن تشتمني أو تشتم روايتي بغضب، فهذا ليس ذنبي إنما فضولك الذي أودى بك إلى الهلاك

سأخبرك بشيء مهم آخر قبل أن تبدأ بقراءة روايتي، أِفهم ما أقوله جيداً، وإياك محاولة استعراض شجاعتك

من الطبيعي أن تجلس ليلاً على سريرك، وبجانبك مصباح باهت، في حجرة مغلقة لتستمتع بقراءة رواية مليئة بالرعب والإثارة، كل شيء طبيعي حتى الآن

لكن من واجبي أن أحذرك، بصفتي كاتبت هذه الرواية سأخبرك بشيء خطير، عندما تقرر قراءة روايتي هذه

إياك أن تخفت ضوء المصباح، أو أن تغلق باب حجرتك، وإياك أن تعمّ اجوائك بالفوضى

إنهم يأتون ليلاً ينبثقون من وسط الظلمة، تجدهم في الحجرة المغلقة، بين الكم الهائل من الفوضى، هذا عالمهم

لا أبرئ نفسي من ذنب الهلع الذي سينتابك وسط روايتي. فأسمائهم التي كتبت بين سطور الرواية كفيلة بحضورهم فوراً.

لازلت مصراً على البدء، و ينتابك الفضول لمعرفة ما تخفيه السطور أليس كذلك؟! إذاً لا يسعني القول سوى أن (**لا تجزع** عند رؤيتهم!) هيا لنبدأ....

البداية

أعتزل العالم، أذهب إلى هناك، حيث الظلمة.. الوحدة.. النجمة.. المكان الخالي من جميع الكائنات، لأهرب منها، فأراها معي، تجلس بجانبي، ثم تقف على أطراف أصابعها تتراقص حولي، ثم تغني.. تضحك.. تبكي، فاتركها هناك، واهرول هارباً لأعُد لوحدتي، أدخل منزلي، فأجدها مستلقيةً على الكنبة، ثم تتمختر وتتمايل بدلال لتتوقف عند الطاولة تسند كفيها على طرفها تنظر إلي نظرة ملؤها الحب، أهرول هارباً إلى ظلمة حجرتي فأجدها هناك، تجلس على طرف سريري تحيطها هالة نور، تبتسم كعادتها لي، تتوجه نحوي، تمد كلتا يديها تود معانقتي، لأصرخ قائلاً:

_رجوتكِ بالله تهاوني معي، رجوتكِ بالله ارحمي شوقي

أهرب منها ومن البرد الذي لسعَ مساماتي، وجمد تأوهاتي في صدري إلى سريري، أتلحفُ بغطائي، أخفي تحت الكم الهائل من الوسائد وجهي، فأراها معي تستلقي بجانبي، ثم تقترب وتضع رأسها على وسادتي، أغمض عيناي فأراها في ستارة أجفاني، في عيوني، أهرب منها وأغفو، فأجدها احتلت أيضاً أحلامي، استيقظ من جديد على نحيب قلبي الصاخب، ونزف مشاعري المهترئة من شدة البكاء، ارتدي بدلتي السوداء وأذهب إليها، أجلس بين القبور عند قبرها، أبكي كثيراً، أرجوها أن ترحل عني كما رحلت عن الدنيا، أو أن تعد إلي وتبقى بجانبي كما كانت دوماً، أعترف لها للمرة التي لا تعد لم أدرك أنني أحبها بجنون إلا بعد أن افتقدتها، لطالما أحبتني بجنون، ولطالما بات يضايقني حبها لي في الآونة الأخيرة، بل يخنقني حب التملك، وكأنني لا أملك شيء في جسدي أو عالمي، كل ما أملك لها، الشيء الذي لطالما كان يضايقني بها، الآن أذوب احتراقاً لافتقاده، أعترف لها أنني أفتقد غيرتها وجنونها، حبها وعشقها، كل ما كان يضايقني بها افتقده وبت أعشقه...

فجأة.....

من بين الظلمة الحالكة يظهر شبح، طويل القامة، عريض المنكبين، يرتدي سترة سوداء طويلة، لم اتبين ملامحه، أنسٌ أم جان، يقترب مني كثيراً، ينظر إلي بأسى، يجلس القرفصاء بجانبي، يمسك رأسي، يضمه إلى صدره، وهو يردد:

_يكفي، أهدأ قليلاً.

_لا طاقة لي للمضي قدماً، أتمنى الموت يا صاح، الحياة قد أضحت عاتية، لم تنجب لي سوى آلاف الخيبات، ليتها كانت عقيمة.

_دانيال أهدأ، هي في أفضل مكان، هناك في السماء حيث الراحة الأبدية.

_هي معي في كل مكان، تحتلني. يعذبني الشوقُ إليها، دلني كيف أمضي إليها، أو أرشدني كيف أتحرر منها، ليتني أتسلق الغيوم، وأهرب فوق السحاب، ليتها ترحمني من ألم الغياب، ليتني أصبح عندها هناك، حيث لا يسترها عني حجاب، حيث لاتكن بأركاني وهماً أو سراب، قل لي كيف أتخلص من تلك الأوهام، وعيناي تغفو براحة وتنام، قل لي يا جورج، ألست طبيب الأمراض النفسية، خلصني من مرضي المستعصي.

_دانيال، أهدأ، هيا بنا إلى المنزل.

ها قد مضى على رحيل ماريتا تسع سنوات، مروا عليّ كالسنين العجاف، لم يمضي على غيابها عن قلبي حتى لحظات، لازالت ترافقني وتشاركني جميع المناسبات، أقنعني صديقي جورج بعد علاج طويل الأمد بدون فائدة بالزواج بأخرى لعلها تغير حياتي للأفضل، وها أنا أهيئ نفسي للزواج للمرة الرابعة بإنجي بعد بضعة أيام، جمعتني بها الصدفة، لكن كسابقاتها لم يجمعني الحب بها إلى الآن، إنما الميل للاستقرار ومحاولة النسيان، لكن ما قلب الموازين كالعادة، رنين الهاتف....

_دانيال، أرجوك أسرع، أرجوك تود قتلي، تود التخلص مني

_من؟! اهدئي إنجي ماذا حصل؟

_إنها هي، هي ذاتها، هي تود قتلي، لا أعلم لماذا تريد التخلص مني؟ أرجوك ساعدني، أرجوك دانيال أسرع، أرجوك لا تتخلى عني.

.....قطع الاتصال

إنجي تبكي بذعر، تدعي منذ معرفتي بها، بأن هناك عجوز تظهر لها كالشبح، تود قتلها، تخنقها أحياناً، وأحياناً أخرى تحاول قتلها بأداةً حادة، وأحياناً أخرى تحاول إفقادها عقلها، والذي ينقذها معجزة ما، حالها كحال الأخريات.

سابقاً حاولت إقناعها بالذهاب للطبيب النفسي، لكنها أبت، وانزعجت مني كثيراً، ووبختني، وأعتلَ قسمات وجهها الغضب، وهي تصرخ بحنقٍ شديد، وتردد:

_أنا لست مجنونة، لست مجنونة، صدقني أنا أراها، تتبعني تراقبني، هي معي في كل مكان، تحاول قتلي. صحيح هي تحاول كي افقد عقلي، لكنني لم أجن بعد، هناك أشياء غريبة تحدث يا دانيال، أرجوك صدقني.

عرضت حالتها على جورج، فطلب مني أن أجمعه بها، دون علمها من يكون وما اختصاصه، سوى إنه صديقي، والتقينا به صدفة ليدعوّنا على كوب قهوة، واتفقنا على ذلك، وفعلاً تم الأمر كما خططنا له، حاولت استدراجها لذات الموضوع، فاستجابت بسرعة، وروت تفاصيل الشبح التي تطاردها وتحاول قتلها، وتلك الأحداث الغريبة التي تحصل معها، مما جعلها تتوتر وترتجف قائلة:

_بعد معرفتي بدانيال بعدة أيام، جلست ليلاً على سريري لأحادثه، بينما كانت عيناي تتصفح الهاتف بحثاً عن رقمه، سمعت صوت صراخ يستنجد ويخترق قاع جمجمتي، رميت الهاتف على السرير، وهرولت إلى النافذة، ظننت أن أحدهم في الشارع يصرخ، لكنني لم أجد أحد! أقنعت نفسي أنه مجرد توهم وضغوطات نفسية لا أكثر، ألتفت لأعد إلى سريري، وإذا بي أرى ما جعلني أفرّ من المنزل هلعاً، أهرول إلى الشارع دون وجهة أقصدها!

قاطعها جورج مستفسراً بهدوء:

_ما الذي رأيته؟

تحول لون وجهها وقد أصبح شاحباً، تعانقت أهداب عيناها وغاصت في بحر من الدموع، كانت تنقر على المنضدة دون ملل، بينما جسدها يرتعش بحدة، أردفت بتأتأة:

_لقد كنت أنا على السرير غارقة بدمائي، جحظت عيّني جثتي باتجاهي، تحدثت بثخانة: قبضات الموت تقترب، بضع أميال ستهرولينها فوق زجاج اللعنة المهشم، وبضع قطرات من الحقيقة الدامية، وستنتهي المعاناة.(صمتت وقد زادت حدة نقر أصابعها على المنضدة)

_فلتهدأِ (قلت لها بينما يدي تربت على يدها لتهدأ)

أجهشت بالبكاء، توكّأ رأسها على طرف المنضدة، تقسم عشرات المرات على صدق أقوالها، تلقفتنا جميع العيون حولنا، تهمس الثغور في أذان بعضهم البعض، على حين غرة احتضنتني، قبلت رأسها، ناشدتها بالرب أن تهدأ، استطردت بحنق شديد:

_لما لا تصدقني، أقسم على وجود أشياء خفية يا دانيال، أقسم على وجود عالم الماورائيات (نظرت إلى جورج ثم أضافت بنبرة صوت مخفضة:) تلك كانت المرة الأولى فقط، هناك المزيد من الأحداث الأخرى!.

حثها جورج أن تفصح أكثر، وأن تنفض عن عاتقها ثقل ما تخشاه، فاضافت:

_في تلك الليلة ركضت كثيراً، أهرول دون وجهة أقصدها بأنفاس تلهث بحدة، لا أعلم إلى أين؟!، كل ما أعلمه أنني أهرب مني، أسعفني عقلي بفكرة الذهاب إلى صديقتي أبيجل، وصلت إلى منزلها منهارة، تسلل الخوف من صوتي إلى قلبها فظهر على ملامحها، صرخت ترجوني أن أخبرها بما حصل لي ،بعد

عراك نفسي كان يهز جوفي دام لساعات طويلة، بدأ الليل ينقشع، ليرتدي الكون حلته المشرقة، لازالت أبيجل بجانبي، تحتضنني بين الحين والآخر لأهدئ، عاودت سؤالها عما حصل، رويت لها التفاصيل، لم تصدقني البتة بالتأكيد، رغم أنها كانت تومئ لي طوال حديثي تدعيّ تصديقي، لكن ملامحها قد وشت لي بذلك، لا ألومها كما أنني لا ألوم دانيال، فما حصل معي عصيّ عن التصديق، لكنها حصلت أقسم أنني رأيت نفسي وحادثتها، أقسم أنني لم أكن أحلم.

ربت على يديها أومئ مؤكداً تصديقها لتهدأ، أردفت وقد أزداد حدة ارتعاشها:

_غزى النعاس أبيجل عند الحادية عشر صباحاً فأرداها طريحة الفراش، لم استطع النوم، ولم انتظر أبيجل إلى أن تستيقظ، عدت إلى منزلي راغبةً بوحدة أجمع بها شتاتي، لم أجرء على الصعود إلى حجرتي في الطابق العلوي، جلست لساعات طويلة أفكر، أحاول استيعاب ما حدث معي، أبحث عن تفسير منطقي لما حصل؟ لكن بدون جدوى، ما أن أشعر بتسلل الخوف إلي، ألهي نفسي سريعاً بمتابعة التلفاز وأما بقراءة كتاب، رغم أن عقلي غير قادر عن طرد ليلة الأمس، يتعثر بها تفكيري كيفما سار، لا أعلم كم مضى من الوقت؟، لكن الليل أسدل ستائره، ليقبل القمر ثغر الظلمة، شعرت بجوع يجتاح بطني الخاوي منذ الأمس، ذهبت إلى المطبخ، لأحضر طبقاً من الأرز مع الخضار المسلوقة، خلف زجاج نافذة المطبخ ظلمة ليلٍ عاتٍ، كنت أتحاشى النظر إليه خشية الظلمة الحالكة، فجأة! عانقت عيناي ما خلف الزجاج، صعقت لما رأيت!، وجه امرأة أجهلها، تحدق بي بتمعن، صرخت بصوتٍ هز الأرجاء، وإذا بجرس الباب يقرع!، التفت بشكلٍ لا إرادي، ثم عادت عيناي لتعانق زجاج النافذة فلم أجد أحدا!، جرس الباب يقرع بقوة، رعشة دبت في جسدي فلم تعد تقوى قدمي على الوقوف، أنوار المنزل غاصت في عملية دوران الليل والنهار، تطفئ ثم تضاء من جديد، زدت من حدة صراخي، جرس الباب يقرع بشدة أكبر، ولا أعلم ما حصل بعد ذلك؟!، سوى أنني وجدت نفسي مستلقية على الكنبة، وفوق رأسي تجلس صديقتي أبيجل!، وتسألني: ما الذي حدث؟!

_لا أعلم، (هرول عقلي سريعاً يعرض آخر ما حدث وكأنني أتابع فيلم سينمائي مرعب لا يصدق، نفضت رأسي سريعاً لأوقف بث المشاهد ولعلي أعطل عقلي عن التفكير، انتشلني سؤال أبيجل من دوامة أفكاري، نظرت نحوها، فكرت في بث ما حدث على مسمعها، لكنني سرعان ما تراجعت خشية لقب الجنون)

_لا شيء، مجرد ضغوطات نفسية، وإرهاق، لم أذق طعم النوم منذ الأمس(سألتها مشدوهة)ما الذي أتى بكِ؟ وكيف دخلتي إلى منزلي؟

_أتشربين النبيذ يا فتاة؟، أم أنكِ تسخرين مني؟!، أنسيتي أنكِ أعطيتني مفتاح منزلك سابقاً!.

صدمت لهول ما سمعت، فأنا تلك الفتاة التي لا تمنح أحد في الكون ثقتها، كيف سأعطي صديقة لي مهما بلغت علاقتي بها مفتاح منزلي. هززت رأسي نفياً، ثم أجبتها بحدة:

_لم أفعل ذلك أبداً، مستحيل!.

_كفاكِ سخفاً إنجي، لقد طرقت الباب عليكِ كثيراً منذ قليل، لكنكِ لم تجيبي، إلى أن تذكرت المفتاح الذي أعطيتني إياه ليلة الأمس.

أجبتها وأنا ارشقها بنظرات تملئها الريبة:

_ليلة الأمس!، لكنني لم أحمل مفتاح منزلي ليلة الأمس البتة، إنما تركت باب منزلي مفتوحاً وهرولت كالمجانين دون أن أغلقه، وعندما عدت صباح اليوم وجدت باب منزلي مغلقاً، وقفت أمام الباب طويلاً أفكر بعجز كيف سأدخل، ثم تذكرت المفتاح الاحتياطي الذي أخفيه في حديقة المنزل.

_يكفي إنجي أتظنين أنني أكذب؟!، أشعر بالجوع، (نظرت حولها وكأنها تفكر بشيء ما، ثم استطردت قائلة:)عندما دخلت وجدتكِ مرمية في أرضية المطبخ، بينما الطعام يصفر بخاره معلناً الاستواء، هيا لتناول الطعام

تناولت بصحبتي طبق الأرز بصمت بينما عيناها ترمقني بنظرات مبهمة أبادلها بمثلها، ثم فجأة أصرت بسخرية أن نصعد لحجرتي كي ترى جثتي الغارقة بالدماء، صعدت بصحبتها لأجد حجرتي كما تركتها، الظلمة تحتلها، والصقيع يغزو جنباتها، سريري مرتب كما غادرته، عندما تركت عقلي راقداً عليه مهرولتاً نحو الجنون، والأثاث كل شيء في مكانه، ضحكت صديقتي أبيجل بقهقهة أحدثت طنيناً في رأسي، طلبت منها أن تكف عن الضحك عدة مرات، لكنها زادت من حدة ضحكها إلى أن جعلتني أرتجف من شكلها الذي بدأ بالتغير، أغلقت بكفيّ أذني أصمهم عن التقاط صوت ضحكها المزعج، وأنا أصرخ بها لتصمت، أعطتني ظهرها وهي غارقة في نوبة ضحك مريبة، فجأة ارتجاج بسيط في جيب الجاكيت الذي أرتديه، أنه هاتفي يرن، اسعفتني ذاكرتي بآخر مشهد للهاتف، أذكر أنني رميته على سريري ليلة الأمس، ولا أذكر البتة أنني حملته، أو أنني وضعته في جيب الجاكيت الذي أرتديه!، أخرجته لأجد المتصل صديقتي أبيجل التي لازالت تضحك أمامي بشكل مرعب، تلقيت الاتصال لأسمع صوت صديقتي تقول لي: متى غادرتِ منزلي؟، لماذا لم تنتظريني إلى أن استيقظ؟!. تجمد كل شيء حولي لبرهة، أعدت النظر للكيان الذي يقف أمامي ويعطيني ظهره فأجده عجوز شمطاء تحمل بيدها خنجر وتود قتلي به!، صرخت من أعماق قلبي الذي ينتفض ذعراً، حتى كاد أن يتوقف، هرولت العجوز نحوي وفي يدها المرتفعة لازال الخنجر، أحكمت قبضتي حول معصمها أحاول أبعادها عني، لكنها ضربتني في الخنجر بيدي(رفعت كم الجاكيت عن رسغها لنرى دليلها، ثم لاذت بفقاعة صمت)

كانت قد قصت عليّ مسبقاً ما تسرده الآن، لذلك لم أدهش، أنما عيناي كانت تعانق وجه جورج وملامحه وثغره حركاته وسكناته هدوءه وانفعاله أنتظر النتيجة بشغف، أرجو في أعماقي أن يجد طريق السلام ليعود السكون إلى قلبها. قاطعها جورج:

_وماذا بعد ذلك؟!

_قد صارعت ظلمات الموت، بعد أن عقدت مع الحياة اتفاقيات عدة، آخر ما حصل كان يعبث بذاكرتي بصلابة إلى أن يحفرها بعمق في قاعها، فلا تبرح المشاهد المرعبة مكانها إلى أن أموت، (السّيروماتِ) تجري في شراييني، تغزو سائر جسدي، فتحت ستارة أجفاني لتتلقف عيناي وجه دانيال بعناق حار مبللاً بالدموع، احتضن رأسي بدفء، ثم قبل جبيني يرجوني أن أهدأ، ألتهم عقلي المشهد بنهم لأستعيد توازني، سمعت صوتاً على يساري جعل قلبي يهتز: كيف حالكِ؟، كانت أبيجل، كنت أخشى النظر إليها، عادت المشاهد تتناثر في عقلي بفظاظة، رويت لهم في ذلك اليوم ما حصل وأنا غارقة في نوبة صراخ كادت تقتلع حنجرتي من مكانها، أقسمت أبيجل عدة مرات على أنها لم تأتي إلى منزلي إلا بعد أن هاتفتني وسمعت صوت صراخي، غرقت في نوبة ذعر، وعلى وجه السرعة وخز أبره جعلتني أسقط في غياهب الظلمات لمدة لا أعلمها، حتى تلك اللحظة كنت أقنع نفسي بعدم وجود شيء خارج عن الطبيعة، أقنع عقلي بما قاله الطبيب(ضغوطات نفسية وإرهاق)

غرقت بصمتها من جديد، أومئ جورج مؤكداً، ثم باغتها:

_هذا كل شيء؟؟

_لا. هناك العديد والعديد من الأحداث الغريبة التي جعلتني أؤمن لاحقاً بحقيقة الجن والشياطين.

قاطعها جورج بحدة:

_أنتِ متعلمة، ذو ثقافة واسعة، كيف تؤمنين بما لم يؤمن به العلم يوماً؟!.

_تباً للعلم، أقسم على وجود أشياء غريبة، وأن كنت لا تصدقني فهذه الحقيقة، (استطردت قائلة بحدة:) لست مجنونة، أعذراني عليّ الرحيل.

باغتها جورج برزانة:

_أنا أصدقكِ، فلتهدأِ قليلاً, أرجوكِ أجلسي، (ثم أردف يحثها على تتمة حديثها:) العلم لا يؤمن بعالم الماورائيات لعدم إثبات شيء ملموس حتى الآن، لكن هناك العديد من العلماء يحاولون اكتشاف حقيقة الماورائيات، كما أن هناك العديد من أمثالك يؤمنون بوجودهم...

قاطعته إنجي بحدة:

_وأنت هل تؤمن؟؟

_لا. لكنني أحب أن أعلم المزيد ممن عاشوا التجربة، يجذبني عالم الماورائيات رغم يقيني بعدم وجوده، لذا لا تبخلي علي بالمزيد، ما الذي حدث بعد ذلك؟.

نظرت إليه إنجي بحدة، تحدق بجورج بصمت وكأنها تفكر بخيارين(ترحل أم تجلس وتكمل نفض خوفها عن عاتقها) بعد تفكير دام دقيقتين جلست لتكمل قائلة:

_بعد العديد من الأحداث المتتالية التي كانت تصب بها العجوز الهلع والفزع في قلبي، خرجت من تلك التجارب مثقلة باليقين، هنالك لغز يجب فك شيفرته ليّحل، أوصدت أبواب التفكير العقلاني، وترهات العلم المتشعبة، لن أكذب عيناي، وأصدق ما يقوله العقل، لذا قررت أن أنقب في صلب عالم الماورائيات

_وإلى أين وصلتي؟؟ (سألها جورج بعد أن التصق بالمنضدة ليقترب من وجه إنجي متحدياً)

أجابته بسخرية:

_إلى مكان لا أعلم كنهه؟!.

أجابها جورج بهدوء:

_أنتِ في قطار اللاوعي، تقودين نفسك نحو محطة الجنون، أن وصلتي إلى هناك لا عودة لكِ.

_رأيت كل ما ذكرته وما لم أذكره لكَ بأم عيني، لن أكذبهما، سأنقب في خروم الأرض لأجد الحقيقة، ولو كان مقابل ذلك حياتي

أجابها جورج بتؤدة:

_فلتكوني على يقيني لن تلقي آخر دربكِ هذا سوى الموت شارعاً ذراعيه لاستقبالكِ، أنصتي لي جيداً، يجب أن تتعالجي، أنا أعلم ما بكِ، هناك العديد من الحالات المرضية المشابهة لكِ.

صرخت بحنق جعل الجميع يقف هلعاً ينظر إلينا:

_لست مجنونة، أتفهم ذلك؟، (نظرت للجميع تقول لهم) هل يبدو علي الجنون؟، أقسم لكم أنني لست مجنونة.

ورحلت. بعد رحيلها أكد لي جورج بأن إنجي مصابة باضطرابات نفسية تعرف باسم (الشيزوفرينيا) هو حالة مرضية تسبب مجموعة من الأعراض النفسية المختلفة بما في ذلك الهلوسة ،وهي سماع أو رؤية أشياء لا وجود لها، تشمل أوهام وأفكار مشوشة وتغييرات في السلوك، وغالباً ما يكون الشخص المريض غير قادر على التمييز بين أفكاره وأفكاره عن الواقع، كالذي يحصل مع إنجي تماماً، ويأمل بأن لا تكون قد تفاقمت حالتها، خوفاً من إيذاء نفسها، لهذا نصحني بإقناعِها بالذهاب إلى عيادته لتشخيص حالتها جيداً، وإعطائها العلاج المناسب لها، مختتماً حديثه بسخرية:

_كحالتك يا صاح.

غضبت حيّنها، وصرخت متجاهلاً جملته الأخيرة:

_لكن هذه الثالثة يا جورج، وماذا بشأن الأخريات؟

أجابني باستهزاء:

_قدرك بعد ماريتا المريضين نفسياً فقط (وأكمل بسخرية أشد مع قهقهة مجلجلة:) وكأن ماريتا قد فرضت تعويذاتها على كل من تقترب منك يا عزيزي.

فأجبته مستهزئاً بالعلم:

_أتصدق بأنني أفكر في هذا أيضاً، في عالم الماورائيات، في عالم لا يؤمن به العلم، بت مثقلاً بيقين حقيقته، بيقين وجودهم يا صاح.

_كفاك سخفاً يا رجل، يبدو أن حديث إنجي قد فعل فعلته بك، إياكَ التفوه بمثل هذا الكلام بعد الآن (وأكمل ضاحكاً:) وإلا ستصبح سخرية أكثر مما أصبحت، (وأكمل بحزمٍ شديد) عليك احضارها بأسرع وقت إلى عيادتي يجب علاجها يا دانيال وإلا سيكون مصيرها كالأخريات، وستكون المذنب حينها.

مما أثار الآلام القاتلة في صدري، واليأس الذي حاولت الهروب منه ها هو قد كساني من جديد، و غلفني برداءٍ مزركش بمختلف ألوان الكآبة والحداد والموت، قد بت على يقين بأن حالة إنجي ليست مرضية، فحالها كحال السابقات (سارة و...وكريستين) أيضاً

تظهر ماريتا بابتسامتها الساحرة، تقترب مني وتعانقني كعادتها تظهر في أفضل الأوقات وأسوأها، تبتعد عني وقد أحكمت عيناها اللامعة في عيناي، ينزف قلبي بخيبة جديدة، يناجي عقلي الثبات، لكن لا مجيب!، أضحك بشكلٍ هستيري، هلعت أهدابي فراحت تتعانق، تساقطت الدموع من محجري بغزارة، من حدّة الألم الذي أحاول إخفاءه خلف الضحكة الواهية. ينظر جورج إلي بتعجب، وكزني في كتفي لأعد للواقع، أنظر حولي فأجد الجميع يتربصني بدهشة، أنظر إليه، فيقول بقليلٍ من السخرية:

_يبدو أنك وعروسك تحتاجون لمستشفى الأمراض العقلية بأسرها، ليس لعيادتي وعلاجي فقط يا صاح.

أغضب لتعليقه اللاذع، والخادش لتلك الحقيقة التي أحاول ردمها في جوف ذاكرتي.

أوصدت ترهات الذكريات في عقلي، نفضت الأفكار عن رأسي، بدلت ملابسي، ونزلت مسرعاً، أخطو الأدراج ثلاث وأربع سوياً، وأنا عازم في نفسي على إرغامها للذهاب إلى عيادة جورج الآن، وتلقي العلاج المناسب لها، أركض مسرعاً، أتوجه نحو الكراج، أركب سيارتي، أحاول تشغيلها لكن لا فائدة، وبعد المزيد من المحاولات العقيمة أيأس، أترجل منها، أركُلها بقدمي، وأصرخ بغضب لنفث الهواء المختنق في رئتي، أهرول وأنا أحاول مهاتفتها من جديد لكن لا مجيب، أزيد من حدّة سرعتي لأصل للطريق العام، الجو ماطر، حجبت سحبه المكفهرة المتلبدة في كبد السماء ضوء الشمس، وكست السماء والأرض حلة رمادية اللون، تبهت ألوان الوجود، مع المزيد من الأمطار و ومضات البرق الغاضبة.

وصلت للطريق العام، وقد ابتلت ثيابي بكاملها، أحاول إيقاف سيارة أجرة، لكن الجميع مسرع، فالأحْوال الجوية للأسوأ، أكمل طريقي إلى منزلها مسرعاً، متمنياً أن أغمض جفني وأفتحه لأجد نفسي بجانبها، أو أن تظهر طائرة أو صاروخ يحملني ويرميني عندها بأقصى سرعته، وصلت بعد بذل جهد كاد أن يطيح بأنفاسي، مما زاد من حدّة شهيقي وزفيري.

طرقت الجرس كثيراً لا مجيب، طرقت الباب وركلته بعنف لا مجيب أيضاً، تجمع حولي الناس الذين أقلقهم صوتي، تعرفوا عليّ بسرعة، فالجميع يعلم علاقتي بإنجي، ويعلمون موعد زفافنا القريب جداً، تملكني القلق، وأنا أصرخ وأنادي باسمها ليملئ الأرجاء لكن لا مجيب، توقفت، أول فكرة راودتني (لست حمل فراقٍ آخر) جثيت على ركبتي، فأقدامي لم تعد تقوى على صلبي، أحاول التقاط أنفاسي وتنظيم نبضي، يقترح أحد الجموع أن أهاتفها، تناولت هاتفي المحمول، أحاول وأعيد وأكرر للمرة التي لاتعد، لا مجيب ولا حركة ولا نفس، ولا أيَّ شيء، سوى صوت رنين هاتفها الذي يتسلل إلينا ويدعوها للإجابة، لكن لا فائدة، يقترح أحد الجموع خلع الباب، وفعلاً تم خلعه من قبل بعض الشبان

لأهرول مسرعاً إلى الداخل وأولهم، فأجد إنجي مرمية أرضاً، وعيناها تحملق في سقف المنزل، وجهها أزرق اللون، فاغرتاً فاهها، اقترب منها وأنا أرتجف لجس نبض الحياة فيها، لا حياة ولا روح تبقى لديها، بجانب جثتها قلم وورقة كتب عليها (إلى دانيال)

سأبدأ رسالتي على غير المعتاد بوداع مؤلم وبعد، بعد تحية الوداع لا لقاء..

دانيال الرائع، سأستطرد حديثي بعد الاعتراف بحبي الكبير لك للمرة الأخيرة((أحبك))

في البداية عليك أن تعلم أنني لست بارعة بانتقاء حروفي، لم تكن الحروف لعبتي يوماً، ولم تكن رصانة الكلمات مهنتي، ولم يكن الكذب وسيلتي، ولم أكن مضطربة نفسياً، ولم ينهش الجنون خلايا عقلي يوماً، دعني أشكرك لأنك كنت أول وآخر من صدقني، رغم مسحة الريبة التي كانت تحتل تقاسيم وجهك عندما تنصت لصوت خوفي، ثم دعني أخبرك لقد اجتث الخوف ربيع قلبي، فغدت فصولي صريعة الخريف، انتشل القلق بهجتي، ذبلت ملامح السعادة، وطارت بسمتي بهبوب رياح أولئك الآخرون(سكان عالم الماورائيات) انتهت حياتي عندما سجل اسمي في صحائف العلم مريضة نفسية، وحان وقت المغيب حين امتلأت مسامات جلدي بوخز الإبر المهدئة، تمردت على العلم والطب لجهله بمرضي، غدوت بين جهتين متنازعتين، أحداهما الحياة تشدني بسواعد هشة، والأخرى سواعد الموت بقبضته الصلبة، ليأتي طرف آخر يعبث بحلبة الصراع، ينتشلني من بين أيديهم، يعبث بي كدمية ماريونيت، يشبك خيوط حياتي بيديه، تتكاتف الأيادي وتتكاثر، حتى غدو يعبثون بي كيفما شاءوا، أتخذوا من عيوني منزلاً لهم، ،عبثوا بخلايا عقلي إلى أن غدت مهترئة، وقد أقسموا أنهم لم يبرحوا مكانهم إلى أن أموت، غدوت أؤمن أن العلم سادي متوحش، وأولئك العلماء جلّاد على مصقلة الموت، يستمتعون بخوفنا، بتقوس أجفاننا، بتلك الدوائر العاتية التي رسمها ظلمة الليل وعقاراتهم التي لا تمل التكاثر حول أعيننا. أقسم أنني لم أكن أهلوس بما رأيت، الأشباح وضعتني عمداً في حلقوم الموت، بعد أن حولتني لزومبي (ميت حي)، غص الموت بي، لكنه يعمل على ابتلاعي، بعد أن يلوكني

مراراً، لقد جعلته الأشباح يلفظني عدة مرات، ليلتهمني مرة أخرى أضعف من ذي قبل، لا أعلم عندما تقرأ رسالتي هذه أين أكون؟، لكن فلتعلم أنني حسمت أمري ولم أعد أقوى على المقاومة!، سأدعهم يحققون ما يسعون إليه، وفي الختام (لا تجزع إنهم هنا في كل مكان).

تغيبت عن الواقع لمدة لا أعلمها، ازدحم المنزل أكثر، بوليس ..إسعاف، قنطاراً من الأسئلة التي لا تنتهي والتحقيقات بسبب الوفاة الغامضة، أسئلة لا تنتهي كما انتهت إنجي بهذه السرعة وهذا الغموض

أرمي جسدي الذي أشعر بأن وزنه زاد آلاف الأطنان على الكنبة المجاورة لجثتها، أضع كفي حول رأسي، وأسند مرفقي على ركبتي، أنا الآن متيقن تماماً أن في الأمر خطب ما، فهذه الفتاة الرابعة التي أفقدها بطريقة غامضة قبل زواجي بها بأيام، أبكي كثيراً، لكن لا أعلم لماذا أبكي بالتحديد، ولما يتملكني الندم، ولما الذنب يتآكلني من الداخل، ولما شعورٌ ما يقول بأنني السبب بقتلهم جميعاً، ربما ليحكم علي في قفص الحزن اليعقوبي، خلف قضبان الفقدان والشوق والانتظار للمجهول، أو ربما لأنني لم أصدق إنجي التي كانت تستنجد بي طوال الوقت، أو ربما لأنني لم أعالجها وأرغمها على الذهاب لعيادة جورج لتتلقى العلاج بسرعة، أو ربما.....

أرفع رأسي، وأنا أمسح بطرف منديلي دموعي، لأعاود النظر إلى جثة إنجي...

فجأة تظهر ماريتا!، من بين الجموع المحتشدة، تتجه نحوي، تقترب مني بملامحها العابسة والغاضبة، تقف على مقربة مني، ترفع حاجب وترمي الآخر فوق جفنها وتدفنه فوق عينيها التي ينسكب منها نار الغضب، تنظر لجثة إنجي ثم ترفع رأسها قليلاً، ترخي ملامحها المشدودة، وتنظر إلي من جديد، تبتسم من طرف شفتيها، ابتسامة واهية: تلك الابتسامة التي كانت تحتل تقاسيم وجهها بعد كل تحدٍ كانت تتحداني به، وأعود إليها بعده خاسراً، أحاول الثبات وعدم طلب الغفران، أحاول عدم الانهيار أمام فوزها، لتبادلني ذات النظرة وذات الابتسامة الشامِتة بي، تلك الابتسامة التي كانت ترغمني على الاستسلام لها، والخضوع

والاعتراف بالخسارة أمامها، لتبتسم ملامحها، تعانقني، وتهمس لي أحبك يا خاسر.

أنظر إليها وابادلها ذات النظرة اتحداها، لتبادلني بنظرة الغيرة التي كنت أراها تنسكب من عينيها عندما تجدني برفقة إحداهن ولأي سببٍ كان، لأضحك بشكلٍ هستيري، يقترب مني أحد رجال الشرطة، يحكم حول قبضتي أساور الاعتقال الحديدية، وليته يحكمها حول قلبي الذي ينزف بشدة، يأخذوني معهم، لا أعلم لماذا؟ ربما ظنوني متهم! أو ربما ظنوني قد جننت! أطلب محادثة صديقي جورج ليأتي على وجه السرعة، يشرح لهم حالتي الطبية كعادته، ويقدم لهم المزيد من التقارير والإثباتات يشرح لهم بها سبب ضحكِ المفاجئ أمام جثتها، ويشرح لهم حالتها الطبية، ويدلي برسالتها الأخيرة لي كإثبات على كلامه، برفقتها تقارير طبية قد جلبها من المستشفى التي كنت أسعف إنجي إليها بعد كل نوبة اضطرابات نفسية تؤدي بها إلى الإغماء، ويُبادلونه بأسباب موتها الغامض الذي أعجزهم كيف ولماذا؟ وما آثار شكوكهم حولي عندما أخبرتهم بأن هذه الفتاة الثالثة التي تربطني بها علاقة وتموت بشكل غامض، والرابعة إحداهن بدون ترتيب قد جنت بشكل مفاجئ!

لكن كالعادة لم يجدوا أيَّ أثار أو مجرد دليل يرشدهم لملابسات القضية، ليغلق ملفها بعد محاولة تحقيق طويلة، بضد مجهول كالأخريات، وأخرج من السجن بتهمة بريء، محاولاً إقناعهم بعدم براءتي الكاملة من موتها

رافقتني ماريتا كالعادة أيام سجني في المنفردة لمدة طويلة تحت التحقيق، ولازالت مصرة على نظرتها الشامتة بي، أظنها مسرورة لموت إنجي، التي كانت ستحتل مكانها في المنزل، لكنها لم تعلم بأن لم ولن تحتل مكانها في قلبي أنثى سواها

عُدْتُ إلى المنزل بصحبة جورج، وضعت المفتاح بقفل الباب وأدرت لأفتح الباب والتقي بوجه ماريتا المزين بألوان الجمال، وعيناها الخضراوان يبرقان و يشعان حباً وشوقاً، تسدل شعرها الأشقر على كتفيها إلى أسفل ظهرها، ترتدي حلتها

البيضاء تلك الحُلة التي كنت أحب أن ترتديها لي دوماً، فأشعر وكأنها ملاكٌ هرب من السماء، ابتسم لها اقترب منها لألمِسها، لكن تختفي فجأة، لأجد وجه جورج ينظر إلي يبتسم من طرف شفتيه، يهز رأسه يميناً وشمالاً بأسى لحالتي بالتأكيد، أرمي جسدي كهرم عاجز، فأنني أشعر وكأن قدماي عيدانٌ هشة، بل بالأصح كومة قش بالية، لم تعد تقوى على حملي، أشعر أنني غدوت كـ إنجي كعروس(ماريونيت) أترك أموري طوعاً لمن يمسك خيوط حياتي، أسند مرفقي على ركبتي، أخفي وجهي خلف كفيّ وأبدأ بوصلة النحيب المهترئة والبالية، بصوتٍ خافت سوى من بعض الزفير وشَهيق النفس الذي يحاول الفرار مني ومن ماريتا ومن دائرة حزني، يباغتني جورج قائلاً بحدة:

_كفاك سخفاً يا رجل! ما بك؟! أين دانيال صاحب الروح المشعة بالفرح؟ أين دانيال صاحب طاقة الكون الإيجابية أجمع؟ قل لي فقط أين دانيال صديقي الذي حببني بالدنيا وأخرجي من قاع أحزاني؟ وجعلني أعشق دراستي للطب النفسي بعد صراع طويل معه، أين دانيال ذاك الفتى الهزيل الضاحك دوماً؛ الذي يشع سعادة؟

اسأله باستجداء:

_كيف لي أن أستعيده دلني؟!

يجيبني بصرامة:

_عليك العزم على النسيان أولاً

أردف بصوت واهن:

_لكنني أحاول، لا جدوى كما ترى؟

تظهر ماريتا فجأة، بوجهها العابس تقترب مني وتجلس خلف ظهري تلفني بكلتا يديها، يا إلهي إنني أشعر بحرارة قربها، ألف وجهي ناحيتها، ابتسم، أنسى وجود جورج، يخاطبها قلبي الذي ذاب شوقاً لها:

_اشتقتُ إليكِ كثيراً

فجأة يصرخ جورج بحنق شديد:

_كفاك سخفاً يا رجل! أعجزتني، دواء العالم أجمع لن يجدي معك نفعاً

تبتسم ماريتا، التفت إليه، وقد أغضبتني كلماته، وبدلت ملامحي الدافئة لملامح مشتعلة فغدوت كشخصٍ مرعب:

_فلتعترف بأنك طبيب فاشل، وعاجز عن علاجي ها هي أمامي، فلتَخفيها عني الآن، فلتُرغمها على الرحيل أيها الفاشل، ماذا يعلم شخص مثلك بلا إحساس عن الحب ليعلم عن ألم الفراق؟

تضحك ماريتا، تهب واقفةً تتراقص حولنا، يصرخ جورج بغضب:

_فلتذهب للجحيم أنتَ وماريتا والحب.

يخطو خطواته نحو الرحيل، رغبت ببقائه ورحيله في آنٍ واحد، لم أنبس ببنت شفة، أجر جسدي إلى الحمام وأترك ماريتا تتراقص خلفي.

.....<<>>.....

أعجزني دانيال، بل أعجز الطب النفسي بأسره، عرضت حالتْه على كبار الأطباء في أوروبا وأدليّت لهم بأسماء الأدوية التي وصفتها له، وطرق العلاج التي اتبعتها معه، واشرافي الكامل على أسلوب حياته في الفترة الأخيرة، لدرجة أنني أُلازمه ليل نهار، وما يغضبني أكثر أنهم أثنوا على خبرتي رغم صغر سني وعدم تجربتي، وقدروها على حالتي الأولى بالممتاز جداً، ليتهم لم يفعلوا، فَإقرار

دانيال بفشلي هذا اليوم أحزنني كثيراً، بل أشعلني وحولني لكتلة جحيمٍ غاضبة، ولا أعلم ماذا أستطيع أن أفعل لأعيده لحالته الطبيعية؟ فوضعه بات يدعو للسخرية، وهذا ما أقره زملائه في الزنزانة، والمحقق، والضابط، وكل من يلتقي به، لدرجة أنه أصبح وحيداً منعزل عن الجميع إلاي.

.....<<>>.....

ها قد أكملت عامي السادس والثلاثون ولازلت انتظر فارس أحلامي الغير موجود بمواصفاته القياسية كما يستهزئ بي اصدقائي ويرددون عندما أُعدد لهم الصفات التي توجب بنصفي الآخر.

_ماري لقد أنهيت عملي لهذا اليوم، وأظن بأنكِ انتهيتِ أيضاً، ما رأيكِ في دعوة على العشاء؟!

_لا لا أستطيع، فلتذهب أنت لدي بعض العمل عليّ أن أنهيه.

_سأنتظركِ (أحملق به بجفاء، ليضيف قائلاً:)إن شئتِ ذلك طبعاً.

_لدي المزيد من العمل، يبدو بأنني سأتأخر كثيراً، فلتذهب أنت.

ليرد وصوته يحدثني عن مدى خيبة أمله:

_وداعاً إذاً.

أنظر إليه بلامبالاة وأكمل عملي من جديد، إنه بيتر، ذاك الفتى الساذج، يدعي حبي دائماً، رغم جهله الفظ بقواعد الحب، أَحب جميع الفتيات اللواتي يعملن معنا، وقادر أن يحب فتيات العالم أجمع، علها تحبه أقبحهم سيقبل ويحلق بها إلى عنان السماء، أنه مثيرٌ للشفقة، ها قد غادر، سأذهب فأمي بالتأكيد تنتظرني، ألملم أغراضي المبعثرة بفوضوية، يباغتني إدوارد صاحب الكافيه قائلاً:

_ماري قبل رحيلك هناك زبون على الطاولة رقم أربعة، فلترين ماذا يريد، ويستحسن أن تصرفيه، أخبريه إنه حان وقت إغلاق الكافيه.

_حسناً.

اقترب منه ببطء شديد، أجر جسدي المتهالك من فرط الإرهاق وشدة التعب، أزرع البسمة على شفاهي عنوةً، لفت انتباهي طريقة جلوسه، وكيف يرمي جسده على الكرسي بفوضوية، بعيداً عن الطاولة، قرب الواجهة الزجاجية، يسند رأسه عليها، وعيناه مُصوبتان تجاه صحيفة مهترئة يحملها بين يديه، شكله غريب بعض الشيء، شاب يتسلق جدار الثلاثين وربما وصل لقمته على ما أظن، هزيل الجسد، جاف الملامح، في عيناه الزرقاوان نظرة حزن تسكنهما وكأنهما بحرٌ هائج تحتضنه سماءٌ رمادية اللون تنذر بحلول أمطارٍ غزيرة، و فيضان هائل، تحيط بهما هالة سوداء من الكآبة، تزيد من حدة جوهِما العاصف، مبعثر الشعر والذقن، لبساه غير مرتب البتة، يرتدي معطف مخملي أسود باهت اللون منتصف طوله على ما أظن، أحتل كتفيه كتلة غبار تنم عن رجل فوضوي وغير مبالي، تيشرت أسود باهت اللون أيضاً يبدو بأنه قديم جداً، وبنطالاً أسود غير مكوي عليه بعض البقع البيضاء المتناثرة أجهل سببها، لكنها بالتأكيد تنم عن رجل غير أنيق أو نظيف البتة، رغم وسامته التي تفرض سيطرتها عنوةً، يبدو أنه يرتدي زيّ الكآبة بلونها المعتاد، ليوحي للناظر إليه مدى حالته النفسية، ودائرة الحزن التي تحيطه وتكبله بسلاسل نيران الألم، وتحكم عليه بالمؤبد خلف قضبان الحزن.

اسأله بصوتٍ خفيض، ينطوي على بعض الحدة، لكنه ناعم ومهدئ قدر المستطاع:

_بماذا أستطيع خدمتك سيدي؟

يرد دون مبالاة بوجودي، ودون أن يحرك عيناه عن الصحيفة المهترئة التي في يده، بصوته البليد الذي يشبه صوت رجلاً في التسعين من عمره للتو قد تخلص من نوبة سعال كادت تقضي عليه:

_أريد كوب قهوة سوداء سادة بدون سكر رجاءً.

أغضب لتجاهله الفَظ لوجودي، استرق النظر للصحيفة التي في يده لأجدها بتاريخ يسبق وقتنا هذا بتسع سنوات، يتملكني الفضول أكثر، اقترب أكثر لأرى ما الخبر الذي يشغله بصحيفة مهترئة قد عصف بها غبار الزمن كما عصف بحاملها، فأجد عيناه مُصوبتان على حادثة غامضة أودت بحياة فتاة في عامها السابع والعشرون فقضت عليها، أذكر هذه الحادثة جيداً فقد ضجت بها المدينة بأسرها، يبدو بأنها تقرب له، أجيبه برجاء وصوت ينطوي على بعض الشفقة التي احتلتني لِحاله التي يرثى لها:

_نعتذر منك سيدي، الوقت تأخر ويجب علينا إغلاق الكافيه.

وأخيراً تكرم بالنظر إلي فاغراً فاهه أظنه يريد سؤالي عن إجابتي، لكنه لم يتكلم، أطبق شفتيه من جديد، رمى الصحيفة المهترئة على الطاولة، حملقت عيناه الزرقاوان في وجهي، فجأة برقت وعصفت باللآلئ المائية وبدأت الهطول بغزارة مع بسمة أعتلت شفتيه، نكس رأسه للأسفل قليلاً، ثم رمقني بنظرة مبهمة أخرى لم أتبين مغزاها، إلى أن تفوه قائلاً:

_كفاكِ سخرية ماريتا، أرجوكِ فلترحلي عني، ها قد هجرت منزلي وتركته بأسره لكِ، جعلتني سخرية للعالم أجمع يكفي

_عفواً

أكمل وهو يضحك بشكلٍ هستيري:

_وهذه المرة تتكلمين، يا للسخرية (غرق بنوبة ضحك ،ثم أردف بأسى:) أتدرين كم اشتقت لكِ، وكم أرغب بعناقكِ

_يبدو انك مجنون يا هذا، فلترحل الآن!

هب واقفاً اقترب مني وقام بعناقي، وقد أحكم قبضتيه خلف ظهري، وهو يردد بصوتٍ تغلفه السعادة، وكأنه ألتقى للتو بضالته:

_أنا أشعر بوجودكِ، أشعر بوجودكِ ماريتا أنتِ حقاً موجودة

أبعدته عني، وأنا أصرخ بغضب وأشتمه، أشعر أن وجهي مشدوداً من شدة التوتر، جاء إدوارد على وجه السرعة يسأل:

_ماذا هناك؟ ما الذي يحصل؟ ما الذي دهاك يا رجل؟!

_هذا الرجل مجنون بحق، يتفوه بكلام غريب، وقام بعناقي منذ قليل

يرد بصوتٍ تغلفه الدهشة:

_ماريتا لماذا تَصفيني بالمجنون؟

_كفاكَ سخفاً اسمي ماري وليس ماريتا

حملق في وجهي بغباء، ثم وجه كلامه لإدوارد بحنقٍ شديد:

_هل تراها كما أراها أجبني! هل تسمعها كما أسمعها؟

_يبدو انك مجنون حقاً يا هذا! هذه ماري تعمل عندي في هذا الكافيه منذ سنين مضت، وليست ماريتا كما تدعي!.

أكمل بحنقٍ شديد، وقد كساه رداء التوتر:

_ماذا ماري، كيف هذا؟ إنها ماريتا، الملامح ذاتها.. بشعرها الأشقر، وطولها، وتناسق جسدها الممشوق، وعيناها الخضراوان ذاتهما ببريقها الذي يشع بضياء الحب والشوق كعادتها، إنها ماريتا بطريقة كلامها وصوتها ورائحتها، هذه ماريتا وليست ماري، أتستهزئان بي!؟.

أردف إدوارد بحدة:

_سيدي عليك الرحيل من هنا قبل أن تضطرني لاستدعاء الشرطة، الوقت قد تأخر ويجب علينا إغلاق المكان، (هم بالرحيل وهو يردد:) لم يكن ينقصنا ألا المجانين

أضاف الغريب وهو يرتجف من حدة توتره:

_أنتَ لا تصدقني، وأنتِ أيضاً أليس كذلك، أنظرا (تناول من جيب معطفه صورة لفتاة تشبهني تماماً، وكأنني أنا التي في الصورة، ألا إنني لا أذكر أنني التقطت صورة لي مشابهة لها، قربها على وجهي، ثم على وجه إدوارد وهو يردد:) أنا لست مجنوناً، هذه ماريتا وليست ماري كما تدعي (غمغم بهدوء شديد يكلم نفسه، ثم أردف بحدة:)لكنني دفنتها بيدي هاتين (أمسكني من كتفي، وأحكم قبضتيه جيداً، وبدأ يهزني بعنف، وهو يردد والدموع تنهمر من عينيه:) كيف عدتِ للحياة؟ أرجوكِ أخبريني كيف؟!.

جثى على ركبتيه، وأخفى وجهه المحتقن بالدماء خلف كفيه، وغرق بنوبة بكاء طويلة، وأنا أحملق في الصورة التي رماها أرضاً، والصدمة والدهشة قد غلفت ملامح وجهي، كما غلفت وجه إدوارد! وشرذمة الأسئلة تبحث عن إجابات لها في جوفي

من هذه الفتاة يا ترى؟ ولماذا تشبهني لهذا الحد؟ وما علاقة هذا الرجل بها؟

غادرت المكان بسرعة، وصورة ذاك الغريب والموقف الذي حصل لا يفارقان مخيلتي، ارتجف وأبكي رغماً عني، أهرول في الطرقات كالتائه، تكاثفت السحب الرمادية من جديد، وعاد البرق يشقها متلألئاً، وهطلت الأمطار بغزارة، ابتلت ثيابي، وغسلت الأمطار الخد المضمخ بالدمْع، تزيل خضابه الباكي، زَفرت أنفاسي وشهقتها عدة مرات، صدري يعلو وينخفض، أصبت بضيق تنفس ودوار بسيط، حاولت البحث عن سيارة أجرة، لا يوجد! وجدت نفسي في مكان شبه مهجور، تتجول في طرقاته الكلاب الضالة، نظرت حولي لأتبين أين أنا؟ لكن

سرعان ما احتلتني الخيبة، شكل الكلاب الضالة مفزع، بأسنانها الحادة التي يسيل منها اللعاب المقزز، هرولت من جديد عليّ أجد آدمي آخر، أو أن أصل إلى الطريق العام من جديد، انطفأت الأنوار فجأة، وقدمي قد داست على جسم مخلوقٍ ما! سمعت صرير أنفاسه وسرعان ما زمجر بحدة ثم بدأ بالنباح، هذا ما كنت أخشاه، نظر إلي بعينيه المضيئة، زاد من حدة نباحه وتبعني، هرولت مسرعة هرباً منه، كادت أن تنقطع أنفاسي، فجأة شعرت بفكه يحكم أنيابه حول قدمي اليمنى، فصرخت بأعلى صوت وسقطت أرضاً مغشياً عليّ

بعد برهة زمنية أشعر بيد أحدهم توكز كتفي، أفتح ستارة أجفاني ببطئ فأجد امرأة غاية في الجمال تقف عند رأسي، تباغتني قائلة:

_هيا ماري. جميعاً ننتظركِ، هيا اتبعيني لا تتأخري، إياكِ أن تعودي إلى النوم

نظرت إليها أتابعها وهي تخطو نحو باب الحجرة، أجلس من جديد أنظر حولي أين أنا؟!

حجرة كبيرة، جدرانها مطلية باللون الأبيض الناصع، إلا جدار واحد، هو الذي خلف السريران قد وضع عليه ورق جدران منقوشٌ عليه زهورٌ وردية اللون، السرير الذي أرقد عليه ملاءته وردية أيضاً، ثم قاعدة أباجور النور، سرير آخر عليه ملاءة وردية تشبه التي تغطيني، والمزيد من الدمى الجميلة، نافذة زجاجية وضع عليها ستائر من الدانتيل الوردي، دولاب ملابس وردي اللون هو الآخر، كومودينو يعلوه مرآة كبيرة الحجم وردي اللون كذلك وضع عليه المزيد من علب البارفان الأنثوي والمزيد من أدوات التجميل وحامل اكسسوارات عصرية، مكتبان لونهما وردي يحتويان أقلام وألوان وكراسات رسم وأوراق، أين أنا؟! وما الذي أتى بي إلى هنا؟! صوت أنثوي رقيق ينادي باسمي:

_هيا ماري، قد أصابنا الملل، لا نستطيع الانتظار أكثر من ذلك

أين أنا؟! أقف أخطو نحو باب الحجرة، أمر بجانب المرآة فأجد نفسي أرتدي ثوباً أبيض اللون مطرزاً بزهور وردية يعلو صدره قطعة دانتيل، شعري منسدل،

أبدو بملامح طفولية، يعاود الصوت تكرار ندائي، أخطو بخطوات أسرع نحو باب الحجرة، أنظر أنه مكان مقسم للحجرات، أخرج منه اتبع الضوء الساطع، منزل عصريّ بأثاثه الراقي، أصل إلى الصالة، يعاود الصوت تكرار النداء، أتبع مصدره، أصل إلى حجرة الطعام المطلة على المطبخ، أجد عائلة تجلس حول مائدة تحتوي ألذ أصناف الطعام يتوسطها قالب من الكيك الوردي الذي تحيطه عدة أطباق مغلقة بغطاء معدني لامع، أنظر إليهم أتصفح وجوههم، أخمن من هم وما صلة القرابة التي تجمعهم، أب وأم وطفل وسيم وشابة ترتدي ثوباً كثوبي وشعرها منسدل كَشعري ذات اللون والطول تعطيني ظهرها ما أن استدرت فأجدها تشبهني كثيراً، وكأنها نسخة أخرى عني! نظرت إلي ضاحكة وأضافت بسخرية:

_كالعادة الأميرة النائمة ماري تتأخر في جميع المناسبات، في المرة الثانية لن انتظركِ.

أتنفس الصعداء، يحتقن وجهي بالدماء، أغضّن حاجبي، انظر إليهم من جديد والتوتر قد تملكني، أسأل بحدة:

_من أنتم؟

يجبني الأب بعد أن غضّن حاجبيه:

_كالعادة تستيقظين مفصولةً عن الواقع تماماً، نحن عائلتكِ يا عزيزتي.

أعيد السؤال بفظاظة مستفزة:

_أين أنا؟.

يجيبني بنبرة لؤم:

_في منزلكِ يا ماري.

أتأمل ملامحه الغليظة، أعد سؤاله:

_ منزلي! من أنت؟.

_أنا والدكِ يا ماري! كفاكِ سخفاً، هيا لنشعل الشموع ونبدأ

تقترب مني الأم الحسناء، تربت على كتفي برقة وهي تقول بصوتها الدافئ:

_هيا يا ابنتي فْلتجلسي، (انظر إليها بارتياب، تضيف قائلة:) ما بكِ ماري؟ هل هناكَ خطبٌ ما؟

_من أنتِ أيضاً؟

تضحك ثم تجيب برقة وهي تجلسني بجانب شبيهتي:

_أنا والدتكِ يا عزيزتي.

تضحك شبيهتي ثم تضيف:

_وأنا توأمكِ يا عزيزتي، أيّ أنني أختكِ، وهذا أخانا، هل من أسئلة أخرى أيتها البلهاء، يجب أن نطفئ الشموع وألا ستفسد الكيك.

تضحك العائلة بمرح، وقد شرعوا بالغناء لي بمناسبة عيد مولدي السادس والثلاثون كما كتب على قالب الكيك، شهقت أنفاساً متلاحقة متوترة، انظر حولي باستنكار، أتأمل شبيهتي التي أدعت أنها أختي تشبهني لحدٍ يدعو للريبة، ذات العينين.. الأنف.. الفم.. اليدين.. تناسق الجسد.. الشعر بطوله ولونه، وترتدي ذات الفستان، أسأل نفسي أسئلة شتى من ضمنها (أين أنا؟ ماذا يحصل؟ من هؤلاء؟ ما هذا المكان؟ لا يوجد جواب!) لذا أسأل بصوت مسموع:

_أين أنا؟

يجبني بغلظة الذي يدعي أنه أبي:

_كفاكِ سخفاً ماري، ما هذه الأسئلة؟ نحن في المنزل.

تتقاذف دموعي من مقلتي، تقترب مني التي تدعي أنها أمي تضمني وهي تربت على كتفي قائلة بحنان:

_ما بكِ يا ابنتي! ما دهاكِ؟ هل هناك خطبٌ ما (زدت من حدة نحيبي، فأضافت:) اهدئي قليلاً يا عزيزتي، ستغدو الأمور على ما يرام، فلتصبري قليلاً.

أنظر حولي بتيه، تجتاحني الدهشة، أزفر أنفاسي براحة، أسأل نفسي من جديد، هل يعقل أن كل ما حدث سابقاً مجرد حلم؟ وهمّ؟ وهذه الحقيقة؟ الواقع؟ لكن كيف؟ أسأل بصوتٍ مسموع وبحنقٍ شديد:

_أنا لا أتذكر سوى أنني ترعرعت في منزل آخر، متهالك الجدران، رثّ الأساس، مع أمي العجوز المريضة.

_توقفي عن الدلال ماري، كفاكِ سخفاً (يقول الذي يدعي أنه أبي بصوته الذي تضفي عليه بحة الغلظة رهبة جعلت القشعريرة تجري في أنحاء جسدي)

_كفاكم أنتم سخفاً! من أنتم؟.

تقول التي تدعي أنها أختي:

_هل أصابكِ الجنون يا فتاة، كفاكِ سخفاً ماري، نريد الانتهاء من سخف هذه الأمسية في عيد مولدنا، (أضافت بمرح مصطنع)هيا أين هديتي؟ وأياكِ التفوه بأنكِ لم تحضري لي شيئاً، (ثم أضافت بحزمٍ زلزل جسدي وأفزعني)لقد حاولتِ للتو سلبي أثمن ما كنت أملك.

أجيبها بارتباك:

_لاااااااااااا

_فلتُطفئا الشمع. (تقول المرأة التي تدعي أنها أمي بلطف، وهي ترفع الغطاء عن الأطباق)

غنوا بمرح مصطنع زادني رعباً، بينما عيونهم ترمقني بنظرات مرعبة، ثم أطفئوا الشمع بنفسٍ واحد.

_أنا من سأطعم فَتاتي المدللة! (يقول الذي يدعي أنه أبي بلطفٍ مصطنع)

تعاود المرأة الحسناء التي تدعي أنها أمي الجلوس في مكانها، بينما يتقدم الذي يدعيّ أنه أبي ليسكب لي في طبقي، يرفع غطاء الطبق الكبير وهو يقول بنبرة صوتٍ مرعبة:

_لقد أعددت اللحم المقدد، ولكِ طبقاً تحبينه!.

رفع غطاء الطبق، كدت أن أسقط مغشياً علي، فما كان بالطبق سوى رأس شبيهتي يتدلى شعرها الجميل على الطبق وقد لف حول رأسها المقطوع، فجأة تحرك فم الرأس:

_أهـ ر بـ ي

لم تكمل كلمتها حتى غرس الرجل الذي يدعي أنه أبي السكين في فم الرأس ليصمت، ناظراً إلي بعينين انزوى فيهما الحقد والغل، قائلاً بنبرة توعد:

_يبدو أنني لم أقطعه جيداً.

نظرت إلى موضع جلوس شبيهتي لأجد جسد بدون رأس، دماء تفجرت من الأرض لتغرق المكان، بينما هم يضحكون بشكلٍ مثير للموت رعباً، وقفت بعيداً عنهم أصرخ:

_كنت أعلم أنكم وهم! أو ربما مجرد حلم، ضرباً من الخيال، من أنتم؟ أين أنا؟!

فجأة خفتت الأضواء كثيراً، يصيبني الذعر، يصدر صوت قهقهة مرعب يهز الأرجاء، يصحبه صوت غليان قدرٍ من المياه، وصوت رياحٍ هوجاء تعصف في المكان، غدت النوافذ مشرعة والستائر تتطاير، الأبواب تتعارك، الأضواء في حالة اهتياج، سرعان ما اختفى المنزل العصري، و استبدل بمنزلٍ مهجور، أصوات شتى تعلو في المكان بكاء.. صراخ.. ضحك.. أصوات تعلو بلغة غير مفهومة، لازلت أصرخ، فجأة كلاب مسعورة تشكل حَولي حلقة مفتوحة تعمل على إغلاقها، وكأنها نبعت من الأرض، وقبل أن يغلقوا الحلقة هرعت مسرعة أركض دون وجهة، شيء ما كاد أن يصطدم بي، أو اصطدم به، بشكل لا إرادي أغمضت عيناي، عمّ الهدوء فجأة أفتح عيناي فأجد نفسي في ذات المكان المهجور، مرمية أرضاً، أهرول بسرعة فأجد الطريق العام، أتنفس الصعداء، صدري يعلو وينخفض، أشهق أنفاساً متلاحقة متوترة، استقل سيارة أجرة، وأخيراً أجلس وأتنفس بارتياح، يثرثر سائق التكسي المسن كثيراً لكنني لا أذكر من كلامه شيئاً، ما كان مني سوى الإيماء له برأسي بينما جسدي يرتجف.

عُدْتُ إلى المنزل، فتحت الباب وأغلقته خلفي، أجلس أرضاً لوقتٍ طويل أعاود تنظيم نبضي، ثم أنتبه لا يوجد رائحة لطهو طعام أمي اللذيذ كالعادة! أقلق....

أبحث عن أمي في أرجاء المنزل، وأنا أناديها، فأجدها في غرفتها، متمددة على فراشها، أتأمل وجهها الملائكي النائم ببراءة، كيف بعثرت تلك السنين الفائتة ملامحها وعبثت بجمالها، فتركت خطوطاً مبعثرة بفوضوية، لتكن شاهدةً على عصفها و مدها وجزرها. وكيف تحول جسدها الممشوق، لجسدٍ هزيل هرم منكمش على بعضه البعض، أقارن بينها حالياً وبين صورة لها قد وضعتها بجانب سريرها وهي أبنة الرابع والثلاثون من عمرها، قد تغيرت كلياً، لكنني أعشقها كيفما تكون

أناديها بهدوء، والبسمة على شفتي، لكن لا مجيب، غلفني القلق وعصف بأركاني، أكرر المحاولة بنبرة صوت أقوى بقليل، ثم أقوى بكثير، لكن لا فائدة!

اقترب منها أتحسس نبضها، وأنا أناديها بصوتي الذي خنقته بحة الدموع والقلق، ويداي ترتعشان فأجد وجهها بارد جداً وجسدها أيضاً، وقد اختطف لون الحياة منها، وتحولت أمي وبسمة أمي لمجرد جثة هامدة ..رمادية.. بَالية.. خالية من نبض الحياة وإشراقها

وحيدةً أعتكف في المنزل لمدة طويلة، أمارس طقوس الحزن المرير على فراق والدتي داخل جدرانٍ صلبة تضيق عليّ كل يوم أكثر فأكثر حتى تكاد أن تطحن عظامي و تسحقني سحقاً، أأبى استقبال أحد، حتى ذاك الغريب طرق باب منزلي كثيراً وبشكلٍ يومي، لكنني لن ولم أفتح له بابي يوما

.....<<>>.....

ربما لا يحق لي التذمر من جورج فهو لا يعلم عن الحب شيئاً كيف له أن يعلم عن الفراق، لم يسمح لإحداهن بالاقتراب من قلبه، أوصده بسلاسل يصعب تحطيمها، فغدى مثلها، لا يضايقه هذا الأمر، ولا يرغب بخوض التجربة أبداً، هو يؤكد على الدوام أنه لن ولم يسمح لإحداهن بالتحكم بمصير قلبه، ولن ولم يسمح لقلبه أن يخضع لإحداهن فيغدو كخادم لإرضائها، المدهش أنه سعيد بقراراته، ويطبقها حرفياً بلا ريب!.

بعد رحيله أخذت دشاً سريعاً أنظف به رائحة جسدي الذي تعفن في تلك الزنزانة القذرة، خرجت لأبدل ملابسي، لا يوجد شيء نظيف، جميع ملابسي تحتاج للتنظيف، مرت فترة طويلة على عدم غسل ملابسي...لابأس سأرتدي أيَّ شيء، وأغط في نوم عميق، أشعر بتعب شديد، وكأنني كنت بحربٍ استهلكت بها كل قوتي، أسمع صوت رقيق خافت يناديني: "النجدة" أنظر حولي لا يوجد أحد، أتجاهله، أذهب إلى حجرتي أجد ماريتا تنتظرني على فراشي وسط الكم الهائل من الفوضى التي تعثو في المكان، تبتسم كعادتها لي، أتمالك أعصابي وأتنفس بعمق، لا طاقة لدي...أصرخ بحنق شديد:

_يا إلهي أكاد أجن، من فرط التصاق طيفكِ بي، بت مجنوناً منبوذاً، يكفي ماريتا لم يتبقى لدي طاقة للتحمل أكثر من ذلك.

ارتدي ملابسي المتسخة والمبعثرة أرضاً على وجه السرعة بينما لازالت أثرثر بغضب جامح، ثم خرجت أهرول هارباً من المنزل، تاركاً طيف ماريتا يتراقص خلفي، بعد مدة من الركض المتواصل أقف أسترق بعض الأوكسجين أجدد به الهواء المخنوق في صدري، أدخل يدي في جيب معطفي أتفقد أن كان لدي بعض النقود لأدخل إلى الكافيه الذي ساقتني قدماي إليه، ولازال مفتوحاً لهذه الساعة المتأخرة من الليل، لأجد تلك الصحيفة المهترئة التي دونت بين ثنايا سطورها وفاة ماريتا بحادثة غامضة ومرعبة، أثارت ضجة كبيرة آنذاك في أنحاء المدينة، لازالت في جيب معطفي، ترافقها صورة ماريتا التي ترمقني بخبث، أشعر أنها تتنفس، وتحدثني قائلة:

_إلى أين ستهرب مني؟ أنا بسمة السعادة المفقودة، وذاكرة ألم الفراق، ولعنة النسيان المتمردة، أنا الماضي المحلى بسكاكر الطفولة، و الحاضر الممزوج بنكهة الجنون، أنا أنت يا دانيال.

تلفظ عيني دمعة حارة، أتعمد تجاهلها، أدخل يدي في جيبي الأخرى لأجد مبلغ من النقود يكفيني، أدخل وأنا أجر جسدي كمن يجر جثة هامدة لأصل إلى المقدمة، بجانب الواجهة الزجاجية التي امتلأت بقطرات المطر التي بدأت بالهطول للتو بعد توقف العاصفة الثلجية، أسحب الكرسي بعيداً عن الطاولة، وأرمي ثقل جسدي عليه، وأسند رأسي على الواجهة الزجاجية أراقب سيلان حبات المطر، وكيف تراكم الثلج وغطى الطريق بأسره، ثم أرفع الصحيفة وأتأمل ذاك الحدث الذي قلب حياتي رأساً على عقب للمرة التي لاتعد، في تلك الصحيفة التي صبغها الزمن باللون الأصفر الباهت، ومزقها عرق يديّ ودموع عيني كل السنين الفائتة، يعاود ذاك الصوت المجهول الرقيق طلب "النجدة" أنظر حولي لا يوجد أحد سوى المزيد من الطاولات الفارغة، إلا واحدة يجلس عليها كهل يقرأ في صحيفة ما، وفي المدى البعيد ألمح العاملين في المكان، أشير لأحدهم بيدي، وأعاود تأمل الصحيفة التي في يدي.

تأتي النادلة إليّ، تسأل بلباقة مصطنعة ماذا أريد؟ بعد جدال قصير ومختصر انظر اليها لأسألها عن سبب عدم تلبية طلبي، وإغلاق المكان الآن، لكنني عندما

أراها أطبق شفتي من جديد، أتنفس بعمق لأهدأ، أرمي الصحيفة المهترئة من يدي، تحملق عيناي في وجهها بدهشة، أضحك ثم أبكي فجأة لا أعلم لماذا؟ جل ما أعلمه أنني في حاجة للبكاء فحسب، مع بسمة احتلت ثغري، أنكس رأسي للأسفل قليلاً، أتنفس بعمق من جديد لأهدأ، يا للسخرية أنها ماريتا أنظر إليها، أحملق في عينيها، تأملت عينيها ربما آلاف المرات ولم أستطع تحديد لونهما، في الشمس تلمعان بلون أقرب إلى اللون الذهبي، وفي نصف الظل تبدوان وكأن لونهما فيروزي، وفي الليل يصبح لونهما أخضر غامق، تجري عيني للأعلى قليلاً ثم للأسفل ببطئ شديد تتأمل زيها الجديد، قد عقصت شعرها إلى الخلف، أحمر شفاه لامع وكأن الشهد ينسكب من شفتيها، قميص أبيض مكوي بشكلٍ جيد، يعلو أزراره ربطة عنق مخملية حمراء اللون، وسترة من اللون الأسود بدون أكمام، تنورة قصيرة لونها أسود أيضاً، تظهر رشاقة أقدامها البيضاء، حذاء بكعبٍ عالي بعض الشيء يظهر أنوثتها، قطعت كل هذه المسافة مهرولاً وسط عاصفة ثلجية كادت أن توقف نبضي، متحدياً كل شيء هرباً من طيفها لأجده هنا بزي نادلة، أطلقت ضحكة مقهقهَ بل مجلجلة خرجت من وسط ركام وأعماق الذكريات المؤلمة، أشعر أن بين جوانحي رغبة هوجاء تعصف بي و تزلزلني لعناقها فأفعل...

وبعد وقت تبين لي من عناقي لها أنها بشرية بحق وليست مجرد طيف!، أكاد أجن دفنت ماريتا بيدي هاتين كيف لها أن تعود للحياة من جديد، أطلقت صوتاً أيقظني من دهشتي، وسكبت في مسمعي كماً هائلاً من الشتائم كانت كفيلة بإعادتي للواقع لأستوعب بأنها فتاة موجودة حقاً تدعى ماري وليست طيف ماريتا، لازال رداء الدهشة يغلفني فوجه الشبه بينهما يقدر بنسبة مئة بالمئة، يأتي مدير الكافيه على وجه السرعة، حاولت أن أظهر لهم براءتي من الجنون، وأخرجت لهم من جيب معطفي صورة ماريتا التي ترافقني دائماً، لأخلع عني رداء الدهشة وألبسهم إياه، بعد أن استبدله برداء التوتر خشية أن أبقى عارياً من المشاعر فأجن بحق، مما جعلني أجثو على ركبتي وأغرق بنوبة بكاء طويلة يرافقها نحيب عالٍ جداً، لأستعيد رباطة جأشي بعدها ولا أجدها فأدرك بأنها غير موجودة وأغرق في نوبة ضحك متواصلة لمدة لا أحصيها، يمسك بي صاحب

الكافيه يحاول تهدئتي، لأصرخ والتوتر يدب الارتجاف بأوصالي بنبرة رجاء أن يجيبني قبل أن أجن:

_هل هي هنا! أم أنني جننت حقاً؟ هل ما حدث من محض مخيلتي، أم أنه حدث فعلاً؟ هل تكلمت أنا وأنتَ وماريتا بل تلك التي تدعى ماري منذ قليل أم أنني أتوهم؟!.

_بلى حدث هذا، أهدأ قليلاً فحسب، الرب يحميك أهدأ.

أجلسني على الكرسي، وأحضر لي كوباً من الأعشاب الدافئة؛ علها تساعدني على الاسترخاء، ألمح ذاك الرجل الذي يجلس على الطاولة المقابلة لي يحملق بي بشدة، أتجاهله...

اخرج من الكافيه متخبطاً بأفكاري، محدقاً في البعيد، السماء تبعث قطراتها الندية بنعومة، لتبعث الأرض رائحة رطوبة تجعل الجو لطيفاً، أشعر بأن أحدهم يتبعني، أتطلع من ورائي، حيث يوجد على بعد ياردات مني كهلاً في العقد السادس من عمره على ما يبدو، مهندم، تبدو على وجهه علامات الوقار، اقترب مني متعجلاً بخطواته، باغتني قائلاً:

_أدعى السيد ابانوب، وأنت؟.

أجيبه بدهشة:

_أدعى دانيال

_أرجوا أن تقبلني صديقاً، (نظرت له مشدوهاً، أطلق ضحكة قصيرة ثم أكمل:) ربما تراني كهلاً لا يفي بالغرض، لكن أؤكد لك مع الوقت ستجدني أباً روحياً تستقر نفسك بين جنباته.

أومئ مع ابتسامة لطيفة. باغتني بلطف زائد:

_هل لي أن أعلم ما بك؟، وما هي قصتك؟

لا أعلم لما أومئ كثيراً، ربما لأنني بحاجة ماسَّة لشخص أحادثه في الوقت الراهن، ولن أجد أفضل من شخصٍ عرض عليّ الاستماع لي بكل جوارحه، قطع سلسلة أفكاري قائلاً:

_أعذرني. لقد استمعت للحديث الذي دار في الكافيه رغماً عني.

أومئ رأسي بأسى، دعاني للجلوس في حديقة قريبة من المكان، رغم البرد القارص ألا أنني وافقت بكل سرور، جلسنا على مقعد خشبي تحت عامود الإنارة، سألني عن مكنون قلبي فأفصحت له عما يعتلي صدري، ويعكر صفو حياتي، ويسلب النوم والراحة من عيناي، كان ينصت لي بكل جوارحه، حتى تفاصيل وجهه كانت تتفاعل مع كل حدث جديد أسرد له تَفاصيله، حدثته كيف التقيت بماريتا قائلاً:

_احببت ماريتا منذ نعومة أظافري، كان عمري حينها ست سنوات، دخلت الفصل ذلك اليوم وهي غارقة بنوبة بكاء، حاولت المربية تهدئتها، وحاول جميع الأطفال ملاطفتها بعد أن تجمعوا حولها، وأدلوا لها بالمزيد من السكاكر الملونة ألا إنها زادت من حدة نحيبها، بذل جميع الأطفال المزيد من المحاولات بعد تشجيع المربية لهم ووعودها التي لا تنتهي بمكافأة لمن يستطيع تهدئتها، إلا أنا لم تغريني وعودها ولم أتحرك من مكاني، فصوت بكاءها كان يضايقني كثيراً، حاولت إغلاق أذناي لكفهما عن التقاط نوتات صوتها المؤذية للسمع، لكن عبث، دخلت وسط الحلقة الدائرية التي شكلها الأطفال وصرخت في وجهها بغضب:يكفي

أتدري ماذا فعلت، ضحكت كثيراً ورمت نفسها في حجري وهي تعانقني وتلف كلتا يديها الصغيرتان حول ظهري، مما جعلني أضحك كثيراً لضحكها وضحك جميع الأصدقاء والمربية أيضاً، اختارت لها المربية مقعداً بجانب الفتيات، لكنها أبت وعاودت وصلة النحيب من جديد وهي تكرر طلبها بالجلوس بجانبي، فوافقت المربية للتخلص من صوت بكائه المزعج، ومنذ ذلك الحين وماريتا

ترافقني دائماً، تشاركني كل شيء في الميتم الذي تربينا به سوياً، ماعدا سريري وحجرة نومي، فقد كانت مجبرة على المكوث في حجرة الفتيات، رغم إنها حاولت وأطلقت وصلة نحيب مزعجة وإصرار مستفز لكنه باء بالفشل، لو كان الأمر بيدها ما تركتني يوماً، أتدري بأنني عشقتها منذ ذلك اليوم، فلم يعد صباحي مشرقاً دون وجودها، ولم يعد ليلي مؤنساً دون ذكراها، ولم يعد حلمي مزهراً إذ ما كانت هي بطلته، فمن دون وجودها كشخصٍ أساسي فيه يتحول لمجرد كابوسٍ مزعج مهما بلغ جماله.

باغتني السيد ابانوب قائلاً بمرح مصطنع:

_كفاكَ سخفاً يا رجل! في ذلك الحين كنت مجرد طفل لا أكثر، والأطفال لا يدركون معنى الحب الجوهري، سوى حب طفولي قد يغيب أثره مع مرور الزمن.

_صدقني يا سيد ابانوب منذ ذلك اليوم وأنا أعشقها بكل ماتعني الكلمة من معنى، أذكر أنني عندما كنت أراها كنت ابتسم من جوف قلبي، كنت أشعر بأنني خفيف الوزن كخف ريشة عصفور قادرة على التحليق بمجرد هبوب نسمة رقيقة، فكيف حالي عندما تعصف رياح حبها فتحلق بي إلى عنان السماء

في عيد ميلادها السابع جاء رجل إلى الميتم قدم الهدايا لجميع الأطفال، ثم قدم لها هديتها، حملها بين يديه، ظننته يود أخذها معه، هرولت إليه أصرخ في وجهه أن يتركها، همس في أذنها ثم أنزلها أرضاً وقد غرقت في نوبة بكاء، ثم نظر لي ضاحكاً وقال لي:

_يبدو بأنني لم أعطك هدية

هززت رأسي نفياً، ضحك كثيراً ثم أردف يهمس في أذني:

_لأن ماريتا هديتك! أعتنِ بها.

ورحل (امتعضت ملامح السيد ابانوب! لكنني لم ألقي لها بالاً، أكملت سرد قصتي على مسمعه، وعيناي قد سرحت في الظلمة الباهتة حولنا، الخالية من الضوء، سوى ضوء بسيط يبعثه عامود الإنارة الذي ليس بمقدوره سوى أن يحيط نفسه به) أكملنا سنواتنا الدراسية سوياً، ونحن نقيم تحت سقف الميتم، بعدها خرجنا منه بعد أن أتممنا سن الرشد، ما حل مشكلتي المالية وفاة امرأة مسنة تدعى السيدة جاكلين، جاءت للميتم وأنا في سن التاسعة من عمري، تعلق قلبها بي بشدة، وأجرت معاملة التبني الخاصة بي، أخذتني إلى منزلها الرائع، أغدقت علي من خيراتها، أطعمتني ألذ أصناف الطعام، واشترت لي أثمن الألعاب، لكن هذا كله لم يكن كفيلاً بإزالة قناع الحزن الذي ألتصق في وجهي، ومسح سيل دموعي، ونفض الفزع الذي انتابني خوفاً على ماريتا، مع مرور الأيام ساءت حالتي كثيراً، وجلس الموت عند ناصيتي يتحين الفرصة المناسبة ليلتهمني، فأشفقت العجوز على حالي، و أعادتني إلى الميتم لألوذ بعناق حبيبة الفؤاد، وفيما بعد كانت تزورني كثيراً، وتغدقني بخيراتها، وتوصي بحسن معاملتي، إلى أن رحلت فورثت عنها مبلغ مالي هائل، جعلني من أثرياء البلدة، باغتني السيد ابانوب مشدوهاً:

_أنت من أثرياء البلدة !!!!.

ثم أطلق ضحكة بادلته إياها وأنا أهز رأسي إيجاباً، أردفت مكملاً:

_ما تراه الآن سوى هندام الكآبة (ثم أضفت بصوت واهن:) أكملنا دراستنا سوياً إلى أن تخرجنا حاملين شهادات دكتوراه بامتياز، وقد صممنا ديكور عيادتنا سوياً، لأبقى تحت نظرها دائماً ولتبقى، لكننا لم ولن نعمل بها يوماً، فالموت سبقنا واختطفها بغتةً! وتلاشت جميع أحلامنا سوياً، وأكوام الغبار قد غطت العيادة بأسرها، كانت تحلم بيوم زفافٍ مميز.

صمتُ قليلاً. ثم أكملت سرد بعض التفاصيل المتناثرة من بقايا الذكريات الجميلة التي جمعتنا، إلى أن وصلت إلى يوم موتها المشؤوم، صمتُ قليلاً من جديد.

غرقت رغماً عني في نوبة بكاء كادت أن تقطع أنفاسي، مما أرغم رئتي على أن تجاهد لسحب الهواء مجدداً، لتكملا عملهما بنشاط

نظر لي السيد ابانوب برقة وهو يربت على كتفي، شجعني تفاعله معي على سرد باقي ألمي ولملمت تفاصيله المبعثرة من جيوب القدر الذي بدل حالي من شابٍ وسيم مفعم بالحياة والطاقة الإيجابية تكفي الكون أجمع، لشاب يدعوه الجميع بالمجنون والمريض النفسي، حتى وصلت مرة أخرى إلى نهاية ماريتا بالموت معللاً ربما منتحرة، وربما قد قتلت، جفل عندما سمع تلك النهاية المشؤمة، سألني بدهشة عن السبب، مما جعلني أغرق بنوبة بكاء لوقتٍ لم أحصيه من جديد، وأنا أهز رأسي باستنكار وأردد:

_ليتني أعلم. ليتني أعلم! (صمتُ لوقتٍ كان كافياً لتَنظيم نبضي المتقطع، ثم أكملت بأسى:) جلّ ما أعلمه أنني ذهبت إلى الفندق الذي كانت تمكث به ماريتا قبل حفل زفافنا بأيام عدة، بطلب سريع من المسؤول عن الفندق، فأجدها مقطعة أوتار يدها، وغارقة ببركة دمائها، لون شعرها الأشقر تحول لشعرٍ أبيض! كشعر عجوزٍ عصف بها الزمن، جلدها منكمش على بعضه البعض أزرق اللون، عيناها تنزف دماً، شكلها كان مفزعاً للغاية، لم أصدق في البداية أنها ماريتا، إلى أن تم تشريح الجثة، وأثبت أنها ماريتا! لم يعلم أحدهم سبب تحول ماريتا الحسناء لعجوزٍ شمطاء في ظرف ساعتان من تركي لها، الشيء الوحيد الذي برئني أن ماريتا شوهدت بكاميرات المراقبة في كافيه الفندق بعد رحيلي تجلس وحيدة وتحتسي كوباً من الشاي الأخضر، ثم عادت إلى حجرتها المخصصة، ولم تخرج منها بعد ذلك، دوّن خبر وفاتها في الصحف اليومية، لتضج بها المدينة بأسرها تحت عنوان (وفاة عروس بطريقة شيطانية غامضة) غرقت بنوبة بكاء وكأن الحادثة قد حدثت للتو

وبعد أن استعدت رباطة جأشي ذكرت موت سارة وكريستين وإنجي، ليضحك السيد ابانوب بشكلٍ هستيري. فأضحك لضحكه، يباغتني قائلاً بهسيس أفزعني:

_يبدو أنك أصبت بلعنة هادم الملذات، وقابض الأرواح، لعنة تقبض روح من تفكر بالاقتراب منك.

نظر لي طويلاً نظرة لم أتبين لها معنى، هززت رأسي, وأنا أجيبه بتأكيد على ما أدلى به للتو:

_أتصدق وأنا أيضاً أفكر في ذلك منذ أول فتاة فكرت بالارتباط بها بعد ماريتا، و هي سارة تلك الفتاة التي عشقتني بجنون، وفعلاً قد جنت، وأدخلتها عائلتها إلى مصح الأمراض العقلية، ولازالت إلى الآن به، وأنا متيقن تماماً بأنها كانت فتاة عاقلة جداً، وما يؤكد ذلك دراستها لدكتوراه أمراض الأطفال، لكن منذ فترة معرفتي بها وقد تبدل حالها، هي بطبعها كتومة ولا تحب الثرثرة أبداً، حاولت كثيراً مساعدتها للبوح ما بداخلها لكنها أبت، كنت أراقبها وهي تذبل يوماً بعد يوم...

ألقى سؤاله بطريقة جعلتني أدقق في تقاسيم وجهه أكثر:

_و ماذا بالنسبة لكريستين؟

أجبته، وقد أحكمت عينيّ في عينيه، أبحث عن ما أثار الريبة في نفسي تجاهه:

_كريستين فتاة رائعة الجمال، كانت تعمل عارضة أزياء، جمعتني بها صدفة، فوقعت في حبي، وبدأت تلاحقني، فكنت أجدها أمامي في كل مكان، أقنعني صديقي جورج الذي يعمل طبيب نفسي بطلبها للزواج، علها تبدل حالي للأفضل، وتم الأمر. وجدت فيما بعد حالها قد تغير، طلبت مني اصطحابها لعيادة جورج للعلاج، فما يحدث معها يقلقها جداً، حتى أصابتني لعنة القلق الدائم من الفقدان، حالها تدهور كثيراً، شككت بنجاح جورج بعلاجها، لهذا فكرت في عرضها على طبيب آخر وثلاثة وأربعة، وحالتها تزداد سوءاً حاولت الانتحار كثيراً، لكنني كنت وأختها جيسيكا بصحبتها دائماً. لا نفارقها أبداً، إلى أن اضطررت للتغيب في ذلك اليوم عنها، وغفلت عنها جيسيكا أيضاً ففعلتْها! ورمت نفسها من نافذة

منزلها، الذي في الطابق الحادي عشر، لتصل إلى الأرض وكل ضلعٍ من أضلاعها قد تكسر، وقد غرقت في بركة دمائها.

أمسك السيد ابانوب رأسه وهو يردد:

_تباً، ما هذا؟ اقشعر شعر جسدي يا رجل.

حدثت نفسي: أظن أن هذا الرجل يمثل دور الصديق ببلاهة، أو لربما كان أبلهاً بحق، لكن لا يبدو على هيئته ذلك! صمت لبرهة ثم عاد يسأل:

_وماذا بالنسبة لإنجي المسكينة؟

تنهدت بأسى، فما أرويه ليس مجرد حكاية، بل هو ذكريات قضمت آلامها من روحي واشراقها ما تيسر لِردمها في جوف قلبي الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة، أكملت قائلاً والحزن يغلف نبرة صوتي:

_أما بالنسبة لإنجي، فهي فتاة ليست رائعة الجمال، تستطيع تقدير جمالها بالمتوسط، لكنها رائعة الجمال بروحها العفوية وقلبها الطيب جداً، فتاة دافئة ومحبوبة بطباعها المرحة، تسكن ضحكتها جوف القلب رغماً عنك، رغم هذا لا أخفيك لم أستطع محبتها بل ما ربطني بها الميل للاستقرار والخروج من الحالة التي تعقدت، وبقي بينها وبين الجنون قدر شعرة وأقل من ذلك.

عاد يسأل بنبرة غريبة أرهبتني:

_كيف اجتمعت بها؟.

شردت أفكر هذا الشخص بات يرعبني ويريحني في ذات الوقت، لا أعلم بما أشعر! وكزني في كتفي يعيد سؤاله، فأجبته بنبرة توتر:

_جمعني بها صديقي آدم، كانت إحدى صديقاته في أيام الدراسة المتوسطة، التقى بها محض الصدفة في أحد الأسواق، وجمعني بها.

أضاف السيد ابانوب بسخرية معتمدة وهو يضحك:

_بل قدرها المحتوم بقربك يا عزيزي.

أغضبني تعليقه الذي ليس في مكانه، وطريقة سخريته التي ليست بالوقت المناسب، فصمتت، وقد تبدلت ملامحي، تنبه لسوء فعلته فبادر بالاعتذار وكرره كثيراً وهو يرجوني أن أكمل سرد ما تبقى، فأكملت باختصار شديد:

_وأيضاً إنجي تبدل حالها بعد إعلان موعد زفافنا المفاجئ، فبدأت تبهت يوماً بعد يوم، مما جعلني أفكر بتحدي القدر لإنقاذها، لكن قربي منها زاد وضعها سوءاً، وهي تكابر وتحاول إخفاء تدهور صحتها النفسية والجسدية أمامي إلى أبعد مدى، إلى أن ضعفت وأقرت عما يقلقها، ويسلب النوم من عيناها، حتى غلف جفنيها هالة سوداء، تعلن غياب النوم عنهما لفترة طويلة، وقد ذبلت ملامحها، وهزل جسدها الذي كان مفعماً بالصحة والإشراق، كل ما أخبرتني به لا يوصف إلا بالجنون، تدعي بأن هناك عجوز على هيئة شبح تطاردها ليلاً ونهاراً تحاول قتلها بأداة حادة، وأحياناً أخرى تحاول خنقها وسلب روحها، وأحياناً أخرى تحاول أخافتها لتفقدها عقلها وتصيبها بالجنون، لم أصدقها أبداً، وأقنعني جورج بأنها مريضة نفسياً ويجب علاجها فوراً، لكنها أبت وغضبت كثيراً لعرضي عليها العلاج، وهي تصرخ قائلةً (أنا لست مجنونة! هي موجودة حقاً، صدقني دانيال هي موجودة فعلاً) لكنني لم أصدقها أبداً، إلى أن جاء صباح ذلك اليوم المشؤوم الذي بدأ برنين الهاتف وصوت صراخها وهي تستنجد بي، لأصل إليها بعد جهدٍ ليس بقليل فأجدها قد توفيت بطريقة غامضة! لم يستطع أحد معرفة سببها.

باغتني السيد ابانوب بقول الحقيقة التي غفلت عنها منذ بداية علاقتي بإنجي، الحقيقة التي تؤكد علاقتي بموت إنجي وعدم براءتي من إزهاق روحها البريئة

_كما لم يصدقك أحد، كما وصفك الجميع بالمجنون لرؤيتك طيف ماريتا يلازمك بحضورهم وغيابهم، ألم تلحظ بأن عدوى المجتمع واتهاماته لكَ قد أصابتك

بالعدوى، فغدوت مثله بدون شعور بآلام الأخرين، أنت تشعر بأنك سبب بموت إنجي أليس كذلك؟

أومئ برأسي إيجاباً، وأكمل بأسى:

_أتدري منذ رحيل إنجي وأنا أشعر بأنني السبب في موتها، لكنني كنت أجهل السبب، إلى أن نطقته شفتيك الآن، أتدري أشعر براحة عجيبة تسري في جوفي الآن يصحبها توتر أجهل سببه، هذه المرة الأولى التي يستمع فيها لي أحد منذ وفاة ماريتا وينصت لي بكامل جوارحه دون أن يوبخني، أو يصف ما أحدثه عنه بالجنون والخرافات، وبدون أن يعطيني درساً عن الطاقة الإيجابية، وكيف لي أن أعود إنسان طبيعي ومتوازن، ودون أن يصف لي المزيد من المهدئات والعديد من الجلسات لأستعيد توازني

_أتدري لماذا؟

_أرجوك أخبرني لماذا؟

_لأن قصتي تشبه قصتك كثيراً، وألمي تؤام آلمك الضائع

دهشت لما سمعت، وانتابني الفضول لمعرفة مغزى كلامه، فأكمل قائلاً بألم:

_حصل لي كل ما حدث لك، ومثلكَ لم يصدقني أحدهم، ولا زلت إلى الآن أحيا وطيفها في كل مكان، لم أفكر في الزواج بأنثى سواها، ولم أستلطف أنثى غيرها، ولم يدق قلبي لإحداهن أبداً، اكتفيت بطيفها خير حبيب وخير جليس وخير رفيق، تصالح مع نفسك أولاً يا دانيال، ثم مع طيفها أعشقه كما كنت تعشقها، دع سرك في قلبك وإياك البوح به لأحد، وإلا سيلازمك لقب المجنون إلى أن تموت

_لكن كيف!؟ لقد جعلني طيفها سخرية للعالم أجمع، لا أتمالك نفسي عندما أراها، تأتيني في أفضل الأوقات وأسوئها، ترافقني معظم أوقاتي، وتحرجني في أغلبها،

فأنسى نفسي وأرتمي في أسرها مبتهجاً، وأمام عينيها الضاحكة باسماً، لأعُد للواقع بعدها فأجد نفسي إما قد أصبحت سخرية، أو غدوت في ورطة

_فلتعزم على ذلك في نفسك أولاً، و ستتغلب على مشاعرك الجياشة تجاه فقدانها، و ستتعامل مع طيفها حينها بشفافية خاصة بك.

صمت برهة وأنا أفكر في كلام السيد ابانوب، باغتني قائلاً:

_بالمناسبة تلك النادلة التي تدعى ماري صديقة سابقة لي.

باغته قائلاً بدهشة:

_من هي ماري؟

_فتاة مسكينة، الفقر دمر جميع أحلامها، تقطن مع امرأة مسنة مريضة في الطرف الآخر من هذه البلدة، تعمل في هذا الكافيه منذ سنين مضت

_أهي مرتبطة؟

فأجابني ضاحكاً، وبالتأكيد أعلم سبب ضحكه:

_لا، أرجوك أبتعد عنها، فتاة كالزهرة، يكفيها ما ذبل من أحلامها.

أغضب قليلاً لتعليقه، فيعتذر بسرعة، وأبتسم رغماً عني لطريقة اعتذاره، فيكمل قائلاً:

_إياك ومحاولة دمج طيف ماريتا مع جسد ماري، إياك والتفكير بالأمر، وإلا ستصاب بالجنون حقاً، لكلٍ منهما شخصيتها الاستثنائية، إياك والمحاولة، ماري فتاة حساسة وعاطفية جداً رفقاً بمشاعرها يا دانيال

_أو تظن بأنني سأوذيها يوماً، أدهشني الشبه بينهما فقط، لا شيء سوى ذلك.

يومئ برأسه، نشأت بيني وبين السيد ابانوب علاقة صداقة، ما جعلها وطيدة لهذا الحد سر أطيافنا، لذا لازمته رغم غرابته، وبدأ يسعدني الوقت مع شخصيته الاستثنائية

ذهبت لإدوارد في مساء اليوم التالي بعد تفكير طويل، طلبت منه أن يسمح لي بالعمل لديه في الكافيه خاصته، مانع في البداية، بعد أن أفصحت له عن شهادة تخرجي معللاً بأنني طبيب جراح ويجب علي العمل بمهنتي، لكنه مع إصراري وافق، وفي اليوم التالي ذهبت لعملي الجديد وأنا بكامل همتي ونشاطي وفي أوج سعادتي، شعور منذ وفاة ماريتا قد فارقني تماماً، لكن ما غير مزاجي غياب ماري في ذلك اليوم دون مبرر، حاول إدوارد مهاتفتها كثيراً لكن لا مجيب، مما أقلقني وأعجز عقلي عن التفكير إلا بسبب غيابها المفاجئ خشية أن أكون السبب في ذلك، مر يومان علي ببطء شديد وأنا في الصباح والمساء انتظر خبر عنها من إدوارد، أشعر بعجز في عقلي عن التفكير بأي شيء سواها، حتى أنني لم أنتبه لغياب طيف ماريتا عني

أرسل إدوارد إحدى صديقاتها للاطمئنان عليها، لتعود حاملة إلينا خبر وفاة والدة ماري، وانعزالها عن الجميع داخل قوقعة الفقدان الأليم بين جدران منزلها الصماء، تأبى استقبال أحد، طلبت عنوانها من إدوارد لكنه رفض معللاً بأن هذه الأمور خصوصيات لا يسمح لي بالتدخل بها

أكملت عملي في ذلك الصباح وأنا في شرود تام، وإذا بي أرى السيد ابانوب يلوح لي بيده ويقف عند باب الكافيه، اقتربت منه مهرولاً، مع ضحكة اعتلت شفتي وكأنني وجدت ضالتي، سألته عن مدى علاقته بماري وهل يعلم مكان سكنها؟، فأجابني بما كنت أرجوه، ووجدت ضالتي لديه

عرض عليّ الذهاب إليها سوياً، استأذنت إدوارد دون الإفصاح عن سبب استئذاني، وفعلاً ذهبنا وبعد انقضاء مسافة الساعة والنصف في سيارتي وصلنا إلى حيٍّ قذر(هذا بعد التحسين) أطنان من الأتربة تكسو أرضه، وعلى جنباته انتشرت أكوام المخلفات، خرير ماء يجري في الأرض تبين لي فيما بعد بأنها

مياه الصرف الصحي، جدران منازله مبقعة على امتدادها بآثار سوداء، تحتلها شروخٌ كبيرة واسعة تهدد بالسقوط، في أي لحظة قد يباد هذا الحي عن أخره، هواء فاسد يهب مع الرياح حاملاً بجعبته رائحة مقززة، أصابني سعال شديد وحالة اختناق كادت أن تقضي عليّ، استعدت رباطة جأشي، ترجلت من السيارة منتظراً نزول السيد ابانوب لكنه تأخر، أحنيت ظهري انظر إليه، وقبل أن ألقي سؤالي باغتني قائلاً:

_فلتذهب إليها وحدك، فأنا على خلاف معها، لا تخبرها عني أبداً.

هززت رأسي أدلي له باسْتجابتي لطلبه، متناسياً سؤاله عن أمر خلافهما المفاجئ، أشار لي على منزلها البعيد عنا بضع أمتار، وبعد دقائق معدودة وصلت أمام منزلها الذي يقطن في إحدى جوانب الحي، بجدرانه المتهالكة وكأن عاصفة هوجاء عبثت بمعالمه فحولته لكتلة قذارة، شكله المقزز يجرح العيون، ويقبض القلب من الوهلة الأولى، ابتسامات غريبة كانت تشيعني من الأهالي منهم المبهور ومنهم المصدوم لمجيء طبقة مثلنا لهذه المنطقة الدونية، رغم أنني في أسوء حالاتي ألا أنني وجدت نفسي لازلت أحسب فرداً من البشر، أطفال صغار يملأون الطرقات بثيابهم المتسخة، ووجوههم التي غابت ملامحها من طبقات الأوساخ المتراكمة، رغم ذلك لازالت ضحكاتهم تضج في الحي متحدية كل الصعاب، سؤال قد راودني أن كان الفقر قدر، فما شأن الافتقار للنظافة من المسؤول؟ كيف لهؤلاء البشر أن يتعايشون في هذا المستنقع! وكيف أطفالهم يتنفسون هذا الهواء الفاسد؟ وما حال صحتهم؟ غلفني الأسى لحالهم

طرقت الباب كثيراً معللاً من أنا، وما مدى قلقي عليها لكنها لم تجب! مما أثار قلقي عليها أكثر، و غلفني برداءٍ رمادي حاملاً بين ثناياه خيوط خيبةٍ جديدة

أعدتُ المحاولة كثيراً لأيام عديدة، أسمع وقع خطواتها خلف الباب، ألمح ظل قدميها عند عتبة الباب، لكنها لم تجب، ولم تفتح بابها لي أبداً، غرقت بنوبة قلق غير اعتيادية، وأصبحت حالتي أسوء من ذي قبل

هاتفها إدوارد كثيراً وأخيراً استجابت، شرحت له من بين زحمة دموعها و شهيقها وزفيرها مدى سوء حالتها النفسية، وأنها لا ترغب برؤية أحد، أصر إدوارد عليها أن تعود إلى العمل منذ الغد كيّ تستطيع تجاوز أزمتها النفسية بأقل خسائر على المستوى الصحي والنفسي، لكنها لم تجب، ألح إدوارد عليها، فأجابت بكلمة مختصرة هي أقرب للرفض(حسناً) تبين لي فيما بعد من حديثه معها بأنه الآخر قد زارها كثيراً لكنها لم تفتح له بابها أيضاً، أغلق هاتفه المحمول نظر إلي، هو يعلم بأنني متلهف لسماع أخبارها، أومئ برأسه إيجاباً، ثم هزه يميناً ويساراً وهو يرفع كلتا يديه ثم يُرخيهما، نظرت إليه والتساؤل كاد أن ينسكب من عيني، لم أعد أقوى على المكابرة والانتظار، فسألته متلهفاً لسماع الإجابة:

_كيف حالها؟؟؟

_يرثى لها، فقدان الأم هو أكثر شيء في هذا العالم قادر على إطفاء روحك بشكلٍ نهائي (أومئ برأسي، يكمل قائلاً:)

_أنا قلق عليها كثيراً، ولا أعلم كيف أستطيع مساعدتها؟

أومئ برأسي مجدداً، فهذا شعوري أيضاً، شعور يسمى العجز، قد ذقت طعمه مسبقاً، هو ليس غريباً بالنسبة لي، أو طعمه غير مستساغ لَدي، لكنه صعب التقبل ويصيبني بعسر هضم حاد، فطعمه مقزز يشعرني بأنني نكرة لا فائدة لي

_قد ذهبت إلى منزلها أيضاً عدة مرات، وطرقت بابها كثيراً لكنها لم تجبني أبداً

_ماذا؟ (يسأل والدهشة غيرت شكل ملامحه)

يقطع حديثنا رنين الهاتف إنه جورج، يهاتفني بعد انقطاع دام لمدة أسبوع، ولأول مرة يتغيب عن حياتي جورج هذه المدة الطويلة جداً بالنسبة لي، استأذنته بالرد وخَطوت لأبتعد عنه وهو لازاَل يحدق بي ويرمقني بنظرات شتى، باغتني جورج قائلاً:

_اشتقت لكَ كثيراً

_وأنا أيضاً، أرغب برؤيتك؟

يباغتني قائلاً بسخرية:

_وأنا أيضاً، لكن بالتأكيد ليس في منزلك، لا مزاج لدي لتحمل الكم الهائل من الفوضى والعبثية التي تقطن في وسطها

أضحك بصوتٍ عالٍ، وأضيف قائلاً:

_حسناً بإمكانك القدوم لمكان عملي الجديد

يسألني بصوتٍ قد غلفت نبرته الدهشة:

_أي عمل هذا؟ هل افتتحت عيادتك أخيراً؟

أجيبه بتذمر بعد أطلاق صوت زفيرٍ عالٍ:

_بالطبع لا

_إذاً ماذا! ما قصة عملك الجديد؟

_عندما أراك سأخبرك؟

_اليوم لا أستطيع، لدي عمل كثير عليّ تأديته، ربما غداً

_لكن غداً هو يوم عطلة

_قدري أن أتحمل قذارة منزلك (وأطلق ضحكته المعهودة المليئة بالسخرية)

_حسناً إذاً التقيك غداً

مر اليوم ببطء شديد، عيناي قد عانقت مكان إدوارد وكانتا تُلازمانه طوال اليوم علهما يجدا بِحوزته ما يُساعدهما على النوم هذه الليلة، لم أعد أجرء على سؤاله عنها بعد نظرته الأخيرة لي، ونبرته التي غلفت بغيظٍ مكتوم لا أعلم سببه، انتهى اليوم وحل المساء بِظلمته الحالكة حاملاً بجيوب معطفه خيبة الانتظار، تراقصَ الأمل على أرضٍ ثلجية خلف نافذتي الزجاجية مردداً (تفاءل عل الصباح يكن خيراً)

اجلس بجانب مدفأتي الملتهبة، أراقب كيف النار تلتهم الكم الهائل من الأخشاب متناسيتاً فضلها فلولا وجودها ما كانت هي، كيف يبدأ صوتها بالحسيس، أزيد كمية الخشب ،فَتزيد سطوتها ويرتفع صوتها باللظى، أعطيها أكثر فَتزيد من حدة جبروتها بصدور صوت تّغيظها، وأنا مدرك تماماً بأنني إن زدتها أيضاً لن تكتفي، بوسعها التهامي أيضاً متناسيتاً بأنني أول من أشعلها، نعم أشغل تفكيري بأي شيء مهما كان سخيفاً، أحاول تمضية الوقت بالتفكير التافه ليمر سريعاً، فأجده يزداد بطئً

انظر حولي لا شيء سوى المزيد من الفوضى التي تغرق المنزل، يداهم تفكيري صورٌ عديدة لشخصيات التهمها الموت من حياتي بغتةً (ماريتا.. سارة.. كريستين.. إنجي..) أزفر بضيق فهذا آخر شيء أود التفكير به

أخطو هارباً من عقلي وزحمة أفكاري قبل أن تسيطر عليّ، نحو مكتب بني اللون اختارته ماريتا ووضعته في زاوية مناسبة له، يحتوي على أوراق مبعثرة، وكتب متناثرة بفوضوية، وأقلام نصفها عليه والنصف الآخر مرمي أرضاً

باقة ورود حمراء صغيرة تحملها فتاة ترتدي حلة بيضاء وتضع على رأسها إكليلاً من الورود تعانق حبيبها الذي يرتدي قميصاً أبيض وربطة عنق حمراء وبذله سوداء، تعانقه كل ثانية شوقاً له على أرضٍ خضراء تناثر ورد الحب بين ثناياها ليكن غرساً ينمو ويكبر كل عام لا يذبل أبداً طالما هناك من يرويه دائماً، هكذا وصفته ماريتا عندما أهدتني هذا المجسم الصغير في ذكرى بداية حبنا التي كانت تحتفل فيها كل عام، ووضعته هنا بيديها فكما قالت هذا أكثر مكان أمضي

وقتي به إما في الدراسة أو القراءة ويجب أن تكون دائما بجانبي، عانقتني حينها وهي تردد (أنت لي وحدي)

مصباح عاجي اللون، وبجانبه رفوف متناثرة على الجدار مطلية باللون البني وعلى إطارها زخرفات مطلية باللون الذهبي قد اختارتها ماريتا أيضاً، لنضع كتبنا المفضلة عليها، واختارت مكاناً مناسباً لها بجانب طاولة المكتب، أريكة جلدية جانبية مخصصة للقراءة، فأنا وماريتا من عشاق القراءة، لا أعلم من منا قد حبب الآخر بهذه الهواية، وربما كلانا خلق كذلك

أجدها غارقةً بأكوام الغبار، والفوضى قلبتها رأساً على عقب، الفوضى تزيد حدة توتري، أمسك كتاباً أجلس خلف مكتبي، أرمي جميع الأوراق المبعثرة والكتب من على سطح المنضدة، وأزيح بطرف كمي طبقة الغبار العالق عليها لعلّي أحظى بقليلٍ من الاسترخاء، أحدد مسافة نظري على حدود هذه المنضدة الخالية من كل شيء سوى هدية ماريتا والمصباح العاجي والكتاب الذي احتضنته أناملي تعانقه شوقاً بعد طول غياب

أقرأ.. وأقرأ لكنني لا أستوعب شيئاً، أعيد الكتاب مكانه على الرف بين الكم الهائل من الغبار، أحمل الآخر أنفض عنه الغبار بزفير أنفاسي، أقلب صفحاته على عجل، لا شيء يثير فضولي بين أسطره، أغلقه وأعيده مكانه، ثم أتناول الآخر و..... لا يجذبني أياً منهم رغم أنهم كتبي المفضلة، أحدث جلبة غبار تتراقص حولي فتسبب لي سعال شديد

أذهب إلى سريري أطفئ جميع الأنوار، أحاول النوم وسط الظلمة الحالكة، أغلق ستارة أجفاني، أتقلب في فراشي، أخفي وجهي تحت الكم الهائل من الوسائد، وبعد وقت طويل من المحاولة أيأس، و أستسلم للفشل

أخطو في المنزل متخبطاً، أحرث جميع أركانه ذهاباً وإياباً، في صالة الجلوس أكبس زر تشغيل التلفاز، أقلب في القنوات، لا شيء، يتملكني الغضب، أزفر أنفاسي بضيق، أشعر برغبة جانحة بالبكاء أحاول لكن أفشل، حتى هذا الشعور لم يعد تحت أمرتي

أعد كوباً من القهوة، للحقيقة هذا الكوب العاشر، ليتني أملك رقم هاتفها المحمول كيف تَغيبت هذه الفكرة عن بالي، أتناول هاتفي أبحث عن أسم إدوارد بين الكم الهائل من الأسماء، أجده، أتصل، يرن.. يرن.. يرن.. لا مجيب، أدرك بعد أغلاق الخط بأن الساعة قد أصبحت الخامسة فجراً وإدوارد من الأشخاص الذين يحافظون على صحة أجسادهم لهذا فهو ينام باكراً

أفكر لو استجاب إدوارد وأدلى لي برقم هاتف ماري ما موقفي منها في هذا الوقت المتأخر، وكيف سَأبرر اتصالي في هذه الساعة، بالتأكيد كنت سأوقع نفسي في ورطة، وأزيد من حدة الأمر، رغم شكي بل يقيني بعدم استجابت إدوارد لطلبي، ذاك الصوت الرقيق يباغتني من جديد(النجدة) أفزع، أنظر حولي أحاول تحديد اتجاه الصوت، لكن لا فائدة، أتكور على كنبة القراءة، أتلفت حولي بفزع، وبعد وقت طويل لا أدري كيف غرقت بنومٍ عميق

باب منزلي يطرق بعنف، أفتح ستارة أجفاني شيئاً فشيء، أضع كفيّ بسرعة على عيناي أتدارك وهج الصباح الذي ضَايقهما، أستوعب الأمر ببطء، أين أنا؟ يُركل باب منزلي بعنف مع المزيد من الطرقات التي كادت أن تقتلعه من مكانه، أصرخ بحنق شديد:

_من الطارق؟

أترنح إلى أن أصل إليه، أفتحه وأنا مغلق نصف عيناي، يباغتني جورج قائلاً:

_ويحك يا رجل أقلقتني عليك، منذ نصف ساعة أطرق باب منزلك

ابتسم بخبث، أشير له ليدخل، اسبقه وألملم الملابس المتناثرة في صالة الجلوس، وأضعها فوق المكتب، ثم أكواب القهوة التي في كل مكان و أنقلها إلى المطبخ، يصفر جورج الهواء من بين أسنانه ثم يضيف بسخرية:

_أين الفوضى العارمة؟ ما هذا الترتيب المؤذي بالصحة النفسية والجسدية، والذي يقتل قزحية العين من روعته

أضحك وأنا أجيبه بمثل سخريته:

_لقد رتبته بالأمس لواجب حضورك، أرجوا أن يكون قد نال إعجابك!؟

يضحك جورج، ويضيف قائلاً:

_لا أعلم كيف تستطيع النوم والاستيقاظ وسط حاوية القمامة هذه (ثم يضيف بأسى:) دانيال أنت الآن أصبحت تنتمي لحياة لا تشبهك، السيء في الأمر أنك غدوت تستسيغ الألم، وتتلذذ بالظلمة، وتتعايش مع رغبات الكآبة عبثاً دون أدنى تفكير في ما ستؤول إليه حالك

أقاطعه بحدة:

_لا مزاج لدي لخوض نقاش حاد معك

_أراهنك أن نظرت في المرآة فستجهل نفسك، يبدو أنك أضعت ذاتك وخسرتها يا دانيال

أجيبه بحدة:

_أرجوك يكفي، كفاك لوماً.

أردف بطريقة مستفزة:

_ يجب أن تعمل على تنظيف المكان الذي تمكث به على الأقل، لن يفيد علاجي ما دمت وسط هذا الكم الهائل من الفوضى، فما حولك وحده كفيل في إصابتك بالجنون

أجبته بحنق شديد:

_جورج أرجوك، لا مزاج لدي للنقاش

زفر الهواء القابع في رئتيه بحدة، أرخى ملامحه المشدودة، ثم أضاف بلهجة حانية:

_لقد أحضرت لك وجبة إفطار، أين تود تناولها؟

أخذت الوجبة من يده وجلست، وبدأت بتناولها، ينظر إليّ وهو يضحك، لا ألقي له بالاً، حدثته عن لقائي الأول بتلك النادلة التي تدعى ماري، غرق بنوبة ضحك هستيرية بين تفاصيل حديثي عنها وكيف انتهى لقائي بها، دهشت ملامحه عندما أكدت له وجه الشبه بينهما بنسبة مئة بالمئة، لكنني متأكد بأنه لا يصدقني، ويظن بأنني أتوهم، وما أثبت لي ذلك أسئلته الكثيرة واستفساراته عن شكلها وتأكيده بوجود شخص آخر قد رآها غيري، تفاجئ بعملي الجديد، غضب في البداية مبرراً غضبه:

_كيف لدكتور جراح أن يعمل مجرد نادل في كافيه بسيطة

لكن عندما أكدت له سعادتي في هذا العمل صمت وهو يرمقني بنظرات ليس لها غير معنى واحد (أنني أريد البقاء بجانب شبيهة ماريتا) ولا أعلم ربما هذه الحقيقة... ربما

سألني بسخرية:

_كيف حال طيف ماريتا مع شبيهتها؟

أعتلَ قسمات وجهي الدهشة، وجحظت عيناي تدور في أرجاء المكان، للتو أدركت غياب طيف ماريتا الذي أجهل سببه، أجبته:

_أو تصدق بأنني لم أنتبه لغياب طيفها؟

أطلق ضحكة مقهقهَ وأضاف قائلاً:

_لهذه الدرجة تشغل تفكيرك شبيهة ماريتا

أصمت، لم أعلق، ربما لا يوجد ما أبوح به بعد، ينطق قلبي مدافعاً عن نفسه ويؤكد عدم علاقته بالموضوع:

_بالتأكيد لا يوجد أثر لما تفكر به

يكمل قائلاً:

_أنني أمزح بالتأكيد، يسعدني تغير مزاجك، يبدو بأن عقلكَ أستجاب للعلاج أخيراً

أجيبه بتذمر شديد:

_يبدو بأنك واثق من نفسك هذه المرة (أكمل بسخرية مستفزة:) سأبوح لكَ بسر صغير ووحيد أخفيته عنك، أنا لم أتناول أيَّ من دوائك أبداً، بل كنت أرميه في سلة المهملات التي ضاقت ذرعاً من كمية دوائك الهائلة، وعندما تكن بجانبي وتناولني قرص الدواء بيدك كنت أتحايل عليك لأستطيع إخفائه في جيب معطفي دون أن تنتبه

دهش، بل أشتعل غضباً، صرخ بحنقٍ شديد:

_ويحك يا دانيال أتسخر مني كل هذا الوقت، تستهزئ بي و بخوفي عليك، تستهزئ بعلاقتي بك وقلقي عليك كل هذه الأعوام، ويحك يا دانيال

أجبته بحنق شديد:

_حاولت إقناعك بأنني لست مريض نفسي لكنك أبيت الفهم، حولتني لمجرد فأر تجارب لديك، بدأت محاولاتك الأولى كطبيب نفسي بقضيتي المأساوية، حولتني لمجرد مجنون، وأردت إثبات جدارتك بأي ثمن كان، متناسياً أنني في البداية إنسان، وبعدها صديقك (زدت من حدة صوتي) أنا لست مجنوناً، لست مجنوناً يا جورج

_ويحك، كسيتني رداء اليأس، جعلتني أشك بقدراتي كطبيب، بل كبشري أيضاً، حولتني لمجرد فاشل لا فائدة منه، ويحك يا دانيال لن أسامحك أبداً

غادر جورج منزلي وقد تحول لكتلة غضب مشتعلة لو فكرت بإطفائها ستحرقني عن أخري، شئت أن يبقى ويهدأ، شئت أن أطلب منه ذلك، شئت أن أعتذر له، فالشعور بالذنب يأكلني، لكنني لم أجرء أن أنبس بكلمة، ليس بجعبتي ثمة ما يكفي من الطاقة لتبرير موقفي

تناولت المزيد من الحبوب المنومة، دخلت إلى حجرة نومي، أغلقت الستائر، تمددت على سريري، رفعت الكم الهائل من الأغطية وتلحفت بها، وبعد مدة قصيرة غرقت في نومٍ عميق، لم أصحو منه إلى أن أسدل الليل ستائره المظلمة، فغرق منزلي وسط دوامة الظلمة الحالكة، نهضت من سريري وأنا أتخبط وأتعثر بالأشياء المبعثرة أرضاً، أضأت الأنوار وأعددت كوباً من القهوة يساعدني على التركيز، رميت المزيد من الحطب في مدفأتي وعملت على تشغيلها، أطفأت الأنوار من جديد، وجلست قرب نار المدفأة، ثمة ما أحتاج إليه الآن مكان دافئ أستطيع أن ألوذ به وحيداً لفترة كافية أستجمع بها شتات روحي المبعثرة

أمضي الليل وأنا أفكر، كيف أُخرج نفسي من دائرة الإحباط هذه، التي استقريت بداخلها أدور تسع سنوات، كما يدور الهواء دون جديد، يجب أن أفعل شيئاً، فصنبور العمر ينهمر بغزارة عليّ إصلاحه، وإلا سيفرغ بسرعة، وعندها لن أستطيع إعادة شيء قد انسكب وتلاشى إلى أن اختفى دون أثر

ها قد بزغ الفجر بإشراق شمسه الدافئة، تناولت هاتفي المحمول ولا أعلم لماذا غادرت المنزل بحثاً عن السيد ابانوب، و للدهشة قد وجدته على الفور، حدثته عن ضيق صدري، وعن الفوضى التي تتعبني، مدني بطاقة عجيبة جعلتني مفعماً بالنشاط، سألته:

_هل لي برقم هاتفك؟

_لا يوجد لدي هاتف، (أكمل بحزم:) لا أحب التكنولوجيا ولا تستهويني

أساله والدهشة قد غلفت ملامحي:

_كيف يمكنني العثور عليك إذن؟؟

أجابني بتؤدة:

_خاطبني بروحك ستجدني، لدي قوة عجيبة بالاتصال الروحي، ستكتشفه بنفسك

أجبته مؤكداً:

_قد أدركته للتو، إذن هل يمكنني معرفة مكان منزلك على الأقل؟

صمت كثيراً، أعدت سؤالي، نظر إلى وجهي طويلاً حدق بعيني مما جعل التوتر الذي غزا أطرافي يزحف إلى رأسي، ثم أجاب بنبرة الفحيح المعتادة:

_ بالطبع

أدلى لي بعنوان منزله، عدت إلى المنزل وهممت بترتيبه، فتحت جميع النوافذ، تسللت أشعة الشمس وبسطت أشرعتها الدافئة بحرية، لملمت الأشياء المبعثرة، نفضت الغبار العالق على الأثاث، أزلت جميع شباك العنكبوت التي تناثرت في زوايا المنزل، أكوام هائلة من القمامة لملمتها ووضعتها في أكياس، لملمت ثيابي المتناثرة في كل مكان، وعملت على تنظيم دورات غسلها، يبدو بأنه يجب علي إعادة طلاء جدران المنزل المتهالكة، وعلي أيضاً تبديل بعض قطع الأثاث المهترئة، نعم يجب عليّ تجديد روح النشاط في حياتي، وتباً لجورج وعلاجه وللجنون أيضاً، سأريه كيف أنني إنسان يحمل في جوف رأسه عقلاً يزن الكرة الأرضية بأسرها، وكيف أنني أحمل في روحي النشيطة كماً هائلاً من الطاقة الإيجابية تكفي الكون أجمع

أحضرت عمالاً وأخرجت البعض من أثاث منزلي مودعاً إياه، وذكرياته التي التهمته وجعلته باهتاً مهترئاً، غيرت ألوان المنزل مودعاً تلك الذكرى التي

باغتتني فدفعتني للبكاء، عندما اختارت ماريتا ألوان المنزل بنفسها وهي تعانقني مرحةً تردد:(سأختار ألوان قفصنا الذهبي بنفسي)

أحضرت بعض قطع الأثاث التي تشع بألوان الفرح، وعملت على تنسيق الأثاث القديم الذي أبيت خروجه لشدة تعلقي به في مكان بعد إجراء المزيد من التصليحات ليبدو في حال جيدة، والأثاث الجديد في مكان آخر بمساعدة خبير في تنسيق الأثاث المنزلي، قبل وبعد هذا ما كنت أردده ضاحكاً

أقمت في الفندق المجاور لمنزلي لمدة يومان، وتغيبت عن عملي الجديد بأذن، إلى أن انتهيت من ترتيب المنزل بكامله، بدأت الحياة تتراقص في جوانبه، والأضواء الملونة جميعها تضج بالحياة

آن أوان الثياب، عليّ اقتناء ثياب جديدة، ذهبت للتسوق، وبعد وقتٍ لم أحصيه انتهيت، ها أنا الآن شخصاً جديد بروحٍ مشعة، ثياب جديدة من أفخم الماركات العالمية، عطور متنوعة رائحتها قمة في الروعة، رتبت شعري وذقني حسب آخر صيحات الموضة، عندما نظرت في المرآة لم أتعرف على نفسي، إلا بعد أن دققت بملامحي الباهتة، وبشرة وجهي المتشققة هذه أيضاً تحتاج للعناية، وعلي البدء بالتمارين الرياضية فجسدي قد حولته سنين الحزن لجسد هزيل بعد أن كان مفعماً بالصحة والحيوية والنشاط

وها أنا الآن في طريقي إلى منزل جورج، لا بل سأذهب لصاحب الفضل أولاً...

السيد ابانوب صديقي الجديد هو من نصحني بذلك، نصحني كصديق وليس كطبيب نفسي يريد أن يثبت جدارته مع مريضه الأول الذي كان صديق عمره، وناصحه، وطاقته الإيجابية أجمع، وصاحب تلك اليد الممتدة لعونه دائماً، فحوله القدر لإنسان محبط، ليلعب صديقه لعبته مع القدر ويحوله لمجرد فأر تجارب لديه.

ها قد وصلت إلى منزل السيد ابانوب، ربما ليس منزل هو أقرب للقصر، أصابته الدهشة بتغيير شكلي المفاجئ، وأثنى على جديدي بسرور، مما جعلني أشعر

بطعم سعادة فريد لم اعهدها قبل الآن، منزل السيد ابانوب قمة في الروعة التي تجمع بين الماضي العريق والحداثة، بأناقة أثاثه المميزة، وألوانه الممزوجة بألوان الفرح، توحي لك بالسعادة التي تنبع من طريقة دمج الألوان وطريقة ترتيبها، جلست على كنبة قرمزية قد أثار لونها إعجابي، والبسمة طبعت على ثغري عنوةً، التفت يميناً ويساراً أدقق في التفاصيل الجميلة، باغت بسمة السيد ابانوب بسؤالي:

_من الذي اختار لك اثاث المنزل؟

أجابني بنبرة أسى وحزن:

_زوجتي هيلين، كانت تشع فرحاً وسعادة، وكنت أناديها بفراشتي الملونة، لهذا قررت أن يكون أثاث منزلنا ملوناً بألوان البهجة ليشرق الحب في جنباته دوماً، هذا ما كانت تردده دائماً.

_كالمعتاد لكل منا أساسيات يتعلق بها، وتصبح مع الأيام مجرد ذكريات تبقى عالقة في أعمق مكان في الذاكرة، فلا تكاد تغادر عقل الإنسان ما عاش وعمَّر، والمنزل وحده هو أكثر من يملك كماً هائلاً من الذكريات الحزينة والسعيدة التي تترسخ في فؤاد الإنسان وذاكرته...

أثرت فوضى عارمة في ركام ذكرياته حينما باغته بسؤالي الآتي، وما أثبت ذلك ملامح وجهه التي تبدلت، وعينيه اللتين غمرتا ببحر ألمٍ قد فاض رغماً عنه:

_ كيف ماتت هيلين؟؟؟

صمت برهة شاردة وقد غرق تماماً بين ركام ذكرياته وطاف ببحر دموعه، تملكني الندم لسؤالي، حاولت تدارك الموضوع، فأسكتني قائلاً (هس) مشيراً بسبابته إلى فمه، ثم أشار إلي بيده لأتبعه، صعدنا للطابق العلوي المقسم لردهات تحتوي كل ردهة على حجرات عدة، دخلنا في ردهة مقسمة لثلاث حجرات يفصل بينهما جدار بجانب بعضها البعض يشير لكل حجرة على حدى معلاً هذه

حجرة نومي، ثم مر أمام الحجرة التالية التي كانت مغلقة سريعاً دون أن يتفوه بكلمة، ثم توقف برهة أمام الحجرة الثالثة بابُها أزرق اللون كتب عليه (جو) بالخط العريض، فتح باب الحجرة دهشت لما رأيته جدرانها مطلية باللون الأزرق والأبيض نثر عليها أسم جو أيضاً داخل أيقونات صغيرة، سرير مخصص لحديثي الولادة أزرق اللون، بجانبه دولاب ملابس ذات اللون، والكثير من الألعاب وزعت بشكل مرتب على رفوف بيضاء وزرقاء مثبتة بالجدار، باغته قائلاً:

_أكان لديك طفل؟!

غرق السيد ابانوب بنوبة بكاء تحولت لنحيب ينبع من الأعماق، مما دفعني لأشارك بها رغماً عني، كاد أن يقع مغشياً عليه، أجلسته على كنبة مخملية باللون الأزرق وضعت بجانب السرير، وأنا أحاول تهدئته، بعد أن استعاد رباطة جأشه، مسح وجهه بمنديله المطرز، لوح المنديل بيده وضحك بسخرية وهو يقول:

_أترى هذا المنديل المطرز، هدية من هيلين، طرزته بيدها، وأهدتني إياه وهي تقول هذا المنديل لتمسح به تلك الدموع التي تحاول إيذاء وجنتيك الحمراء بملوحتها، قل لهم هيلين لن تسمح لكم بإزعاجي، وها هي الدموع أذت وجنتاي برحيل هيلين وحولتهم لأرضٍ جرداء رغم سقايتها المستمرة، وحولت قلبي لمجرد جثة شهيدٍ على ضفاف دموعي المحترقة، مات عطشانٍ وقد جفت حنجرته من كثرة ندائه لمحبوبته وطول انتظاره لها ...

تنهد بأسى ثم أضاف قائلاً:

_ كنا ننتظر بفارغ الصبر ولادة طفلنا جو، بعد حملٍ متعب أستمر لمدة ثمانية شهور وعشرة أيام كادت أن تقضي على هيلين منذ بدايتها، كنت أشعر بجهادها وكنت أستمع لحسيس ألمها الذي تحاول إخفاءه عن مسمعي، وكنت أعلم بمدى ألمها، لكن الشيء الوحيد الذي لم أكن أعلمه بأن هيلين مصابة في أحشائها بمرضٍ خبيث...

غرق بنوبة نحيب استمرت لدقائق، بعد أن هدأ أكمل قائلاً:

_ سيقضي عليها بمجرد وضعها لجنينها، أخفت ذلك عني طوال مدة حملها كنت السبب في ذلك لكن رغم هذا لا يحق لها الذي فعلته...

تعجبت لطريقة وصفه لمرضها سألته والفضول تملكني:

_ وما ذنبها في ذلك؟؟!!

أخذ يغمغم بصوت بالكاد أسمعه بكلمات غير مفهومة ثم أكمل غير ملقى بالاً لسؤالي:

_ وزفت إلي سرها في ساعات مخاضها الأخيرة وهي تودعني قائلةً: أنتبه له كأنني أنا. لكنني لم أصدقها حسبتها تريد الانتقام مني ليس إلا...

سألته والفضول قد تحول لحالة ذهول تملؤها الريبة:

_ تنتقم منك لماذا؟! طالما أحبتك وأحببتها!!

تجاهل سؤالي مرة أخرى، زاد من حدة نحيبه و شهيقه وزفيره، ومنديله قد غرق تماماً ببحر دموعه الحارة، أكمل بصوتٍ مخنوق:

_ لم تعلم بأنه سيبقى معها ويتركوني وحيداً أقاسي مرارة فراقهم. ثم أكمل بلهجة حادة بصوتٍ يشبه فحيح الثعبان: هي من شاءت لهما هذا المصير هي من شاءت...

مما جعلني أفزع منه، أكمل وصلة نحيبه بأسى، مما جعلني أتعاطف معه من جديد، عملت جاهداً على تهدئته، بعد وقتٍ لم أحصيه تركني جالساً وحدي في حجرة جو مستأذناً لإعداد كوبين من الشاي الأخضر، جلست على ذات الكنبة الزرقاء المخملية، أفكر وأنا غارقاً بنوبة ألمه رغم المزيد من الأسئلة المبهمة التي تدور في جوفي تجاه غريب الأطوار هذا، أقارن بيني وبينه، أيهما أقسى

فقدان شخص عزيز أم شخصين؟ هل كلاهما صعب؟ أو ربما كلٌ منا يظن بأن ألمه أقسى، أحاول أن أزنهما بمكيال قلبي، فأجد بأن كفتا الميزان على فرد استواء، ربما قلبي قد غش بالمكيال، هكذا يبرر عقلي الذي لم يقتنع بالنتيجة...

فجأة سمعت صوت بكاء طفل صغير، تطلعت إلى السرير وإذا بي أرى طفلاً حديث الولادة يبكي بداخله، ذهلت مما رأيت، اقتربت منه ببطء شديد، وإذا به يحدق بي ملياً، فركت عينيّ بكفيّ علني أعد للواقع، من هذا الطفل؟ وما الذي أتى به إلى هنا؟ أنا متأكد بأنه لم يكن موجوداً منذ قليل، أحسست بحركة عند عتبة باب الغرفة وإذا بي ألمح طفلة صغيرة أظن أنها في الثالثة من عمرها تسترق النظر، أجفل، ما الذي يحدث من هؤلاء؟ أعاد الطفل وصلة البكاء بصوتٍ أعلى ليعيد تركيزي إليه، حدقت بوجهه من جديد، فإذا به يبتسم لي، بادلته بابتسامة من طرف شفتي، وإذا به يضحك بصمت، مدّ لي كلتا يديه وهو يرفرف بهما كجناحي عصفور توه يحاول الطيران، اقتربت منه لأُمسك به...

فجأة...

وإذا بضباب عارم ودخان ينفث من كل جوانب الحجرة، يحجب عني الرؤية، يخنق الهواء ويعدم الأوكسجين في جو الحجرة، تجمدت لبرهة من الوقت مذهولاً مما يحدث، مددت يدي داخل السرير من جديد أبحث عن الطفل لألوذ معه بالفرار، لكنني لم أفلح بإيجاده كما أن صوته اختفى تماماً، فكرت بالصراخ لأنادي للسيد ابانوب، وإذا بي أسمع صوت باب الحجرة يغلق ويحكم أقفاله مرتين، هرولت مسرعاً نحوه، حاولت الصراخ لكن صوتي يأبى الخروج وكأنه خطف مني، بدأ الدخان يتلاشى شيئاً فشيئا، لكن النور أصبح باهت جداً، جلست أرضاً واضعاً جبهتي على الباب محدقاً به أحاول أن أستوعب ما يحصل، سمعت حركة خلفي، تطلعت من ورائي حيث يوجد على بعد ياردات شبحاً أسود يحيطه أشباح يرتدون حلة سوداء تخفي ملامحهم، دققت النظر للشبح الذي توسطهم لم اتبين ملامحه، يحمل بيده خنجراً تناول الطفل الرضيع من سريره، وضع الخنجر على عنق الطفل، حاولت الحراك لإنقاذه لكنني لم أفلح بالحركة وكأنني مقيد بل مشلول تماماً عن الكلام والحركة، حدق الطفل بي ببراءته يبتسم لي، ثم عاود

النظر للشبح الذي يحمله وبدأ بالضحك له بوجهه الملائكي، لكنه لم يأبه لبراءته، شحذ الخنجر على عنق الطفل ذهاباً وإياباً حتى فصل رأسه عن جسده، وتناثرت دمائه وغطت الجدار، وذاك السرير الأزرق، وتناثرت على الأرضية، حاولت الصراخ والحركة من جديد لكن عبث، أشعر بجسدي عاجز عن فعل أي شيء سوى الارتجاف والعوم في مشاعر الخوف، بل الغرق به، رمى الطفل من يده أرضاً ،أدار وجهه المخيف ناحيتي، وإذا بي أرى وجهاً مخيف للغاية لا أنساه ما حييت، ذات البشرة كالحة السواد، عينان بارزتان بلونهما الغريب ناصع البياض، فم متسع للغاية به أنياب بارزة تشبه أنياب الحيوانات المفترسة، وجه مليء بالدماء (أقول في نفسي: يا للهول يستحيل أن يكون هذا الكائن من جنس البشر)

يتجه نحوي بخطوات متعثرة يترنح، لازال الخنجر في يده يقطر دماً، أحاول الصراخ بجهدٍ بالغ، كادت تتوقف نبضات قلبي من شدة فزعي وهلعي، وإذا بنور الحُجرة البسيط ينطفئ، أحاول الحراك من جديد، أستطيع الحركة، أمسك مقبض الباب وأحاول فتحه بعنف، وإذا بي أشعر بأنه أمسك بي من الخلف وأطبق يديه على رقبتي، صعب عليّ التنفس، وبدأت أشعر بتباطؤ نبضي حاولت الهروب منه والصراخ لم أستطع، بدأت أشعر بالاختناق، صرخت صرخة قد هزت أرجاء المنزل، وأخيراً استطعت الصراخ والتنفس من جديد...

فجأة يعود النور، أتفاجئ بأن الغرفة نظيفة ومرتبة كما كانت، لا يوجد بها أحد سواي، وباب الغرفة لازال مفتوحاً، يهرول السيد ابانوب إلي، جسدي بكامله يرتعش، حملق بي مشدوهاً يسأل:

_ما الذي دهاك يا رجل؟! أفزعتني، مجرد عطل بسيط بالكهرباء كان عليّ إصلاحه.

قلبي يرتج فزعاً مما رأيته، الموقف شل تفكيري كما شل حركتي تماماً، ولم تعد تقوى قدمي على حملي، ضممتهما إلى صدري بين ذراعيّ، جحظت عيناي تهرول في أرجاء الحُجرة، السيد ابانوب يكرر سؤاله:

_ما الذي حصل يا دانيال أخبرني؟ ما بك؟ لماذا ترتجف بهذا الشكل الهستيري؟ هل لديك فوبيا من الظلمة؟!.

أهز رأسي يميناً ويساراً باستنكار، ثم أومئ مجدداً:

_ نعم لدي فوبيا شديدة من الظلمة.

نعم أكذب، لا أشعر بالراحة عندما أكذب، بل يعتلي صدري جثمان الصدق ويكاد بثقله أن يوقف هرولة نبضي، لكن ما باليد حيلة، عليّ أن أنحي بعض القواعد الأساسية جانباً، لكيّ لا أخسر هذا الكرت الرابح أيضاً، يكفيني شعور الراحة والأمان بجانبه ليكون كرتي الرابح دوماً، يجب ألا يخطر له مجرد خاطر بأنني قد أكون مجنوناً بحق وأنا الذي أنكر، أعمل جاهداً على استعادة رباطة جأشي، أزرع البسمة على شفاهي عنوةً، أطلب كأس ماء لأبلل شفاهي التي جفت بجفاف حلقي، وجفاف الدماء في عروقي

_ هيا بنا نجلس في صالة الجلوس ونحتسي كوبين من الشاي الساخن الذي قمت بتحضيره. (يقول وهو يرمقني بنظرات مريبة)

أومئ وأنا أكرر:

_حسناً... حسناً...حسناً..

قبل أن أخرج من الحجرة أسمع ذات الصوت الرقيق يطلب "النجدة" ويختفي بسرعة، تشخص عيني أنظر حولي لا يوجد أحد؟! ما الذي يجري؟ أنفض رأسي أزفر بشدة، صدري يعلو وينخفض، أهمس لنفسي أرجوها أن تهدأ...

أنزل للطابق السفلي بينما الصوت الرقيق يكرر طلبه للنجدة بصوت خفيض، أنظر حولي لا يوجد أحد ولا حتى خلفي، السيد ابانوب يسبقني بخطوات، رأسه يلتفت إلي بين الفينة والأخرى يرمقني بنظرات مبهمة، أتبعه لصالة الجلوس، أجلس على تلك الكنبة القرمزية، لازال جسدي يرتعش، ولازال الخوف يتدفق

من جوف قلبي ويطفو على ملامح وجهي، أحاول تهدئة نفسي، أفكر بين جنبات نفسي بتفسير منطقي لما حدث، لكنني لا أجد، سوى أن أقنع نفسي بأن كل ما حدث مجرد وهم وتهيأت ليس إلا، تنبعث من ركام مشاعري المتخبطة ببعضها البعض، اصفي ذهني من التفكير بكل شيء، أنتبه للسيد ابانوب لازال يرمقني بنظرات مبهمة أجهل سببها، أبدأ بحديث سخيف بعض الشيء، بل سخيف لدرجة مملة لكنني اندمج به، أشغل نفسي عن التفكير بأي شيء، ألا أن السيد ابانوب لازال يرمقني بنظرات مبهمة قد شغلت تفكيري ما سببها يا ترى؟!

عُدْتُ إلى المنزل منشغل الفكر، حاولت إضاءة الأنوار لكنها لم تضيء، يبدو بأن الكهرباء قد قطعت، فجأة أضاءت الأنوار في منزلي جميعها دفعة واحدة، تفاجأت أذكر أنني لم أترك أيَّ منهم مضيئاً، أقنع نفسي سريعاً ربما أنني أنسى كعادتي، أدخل أغلق الباب بهدوء، أعطي ظهري له هاماً بالدخول

فجأة...

وإذا بي أسمع صوته يفتح من جديد ويغلق بعنف، أنتفض رعباً وأنا أصرخ بشكل لا إرادي (لاااا) أغمض عيني أشعر بأن الأنوار أطفأت وأضاءت فوراً، أفتح ستارة أجفاني بسرعة وقد سقط قلبي أرضاً من شدة الفزع، تتجول عيني في المكان سريعاً، أتذمر، أرتجف، أمد كلتا يديّ أتأملهما أنهما ترتعشان، أهدئ نفسي وأنا أصفق، وأبدأ بإقناع عقلي (لا يوجد شيء، يجب أن أهدأ كل شيء في مكانه كما تركته، المكان نظيف ومرتب) أتنفس بعمق وأزفر بشدة وأنا أكرر (لا يوجد شيء يدعو للقلق، أنا لست جباناً، لست مريض نفسي، لست مجنوناً، أنا عاقل، أنا دكتور جراح هذا يعني أنني لست غبي لأغرق في دوامة الأوهام أنا عاقل نعم عاقل...) أرمي جسدي المتهالك على كنبة بنفسجية اللون كانت أول تغيير اعتمدته في حياتي، لونها قد جذب انتباهي، يبدأ عقلي بسرد الأحداث الغريبة التي حصلت في هذا اليوم، مشهد تلو الآخر، أزفر بشدة، فما حصل رغم محاولتي لتجاهله إلا أنه قد قلب كياني رأساً على عقب، وأشعل فتيل خوفي، أتأمل الكلمة أرددها (خوف... خوف) أفسرها شعور الخوف الذي للمرة الأولى في حياتي أذقه بطعمٍ مختلف، شائك غصصت به وكاد أن يخنقني باعتماده

الوقوف والتمركز وسط قلبي، يراودني التفكير رغماً عني (أنا خائف، أنا مريض نفسي بالفعل، يجب أن أعالج بأقصى سرعة كما نصحني جورج وإلا سيكون مصري كعاشقاتي السابقات يقتلني كما قتلهم الخوف والوهم)

أغمض عيني أتأمل الفكرة، لكن لا أدرك حقاً ما يعنيه الأمر، كل ما أدركه إصراري على إنني إنسان بكامل عقله وقوته و صحته النفسية والجسدية، لكن للحقيقة مجرد التفكير بما حصل يخيفني فعلاً، رغماً عني يرتجف جسدي وترتعش يدي، أفتح ستارة أجفاني من جديد، أنفض رأسي علها تسقط منه الأفكار والمشاعر المتخبطة، كما تسقط عقوب السجائر ورمادها من منفضة سجائري عند قلبها في مكب القمامة، بسهولة تامة ليتهم يتشابهون الآن، أقنع نفسي مجرد خوفي يعني أنني بخير، فمن الطبيعي أن أخاف، جميع البشر يخافون مما لا يستطيع العقل تفسيره، نعم أنه أمر طبيعي، أتصالح مع فكرة الخوف، لا أستطيع خداع نفسي لهذا أكلمها بصراحة ووضوح، أن ما حصل فعلاً قد حصل لكن لا داعي أن أصبح أسيره تحت رحمة الخوف، الأمر قد حدث وأنتهى.

آخذ حماماً طويلاً وساخناً عله يساعدني على الاسترخاء، أغسل أسناني بعناية، أتأملهم بالمرآة التي تعلو المغسلة، أزفر نفس طويل، لديهم مشاكل كثيرة يجب البدء بعلاجها وإلا سأفقدهم واحداً تلو الآخر، وربما جميعهم دفعة واحدة فحالهم سيئة جداً، تسوس وطبقة من الجير أصفر اللون تبدو مقززة، رغم أنني لا أدخن و لا أتناول المشروبات الكحولية، لكنني كسول ولا أعتني بهم، سوء العناية والتغذية أودى بهم وبي للهلاك، لا مشكلة إن كان الحل موجود، لكن المشكلة أنني أدرك المشكلة.

أقفز في سريري بعد أن انتقيت كتاباً عن الصحة النفسية من كتب ماريتا المفضلة من الرفوف التي لازالت مكانها في الصالة، أقرأ حد الضجر

أخرج لصالة الجلوس لازال يذهلني التغيير الذي حصل في منزلي والترتيب الذي افتقدته منذ سنوات عديدة، أجلس على كنبة من اللون اللازوردي جديدة أيضاً يصحبها كنبات بتدرج اللون اللازوردي مدمج مع اللون الأبيض الناصع،

نعم جميع أثاثي الجديد ملون بألوان البهجة قد نسقت ورتبت تحت إشراف أشهر مصمم ديكور منزلي في حيّنا الذي يدعى (صاحب الذوق الرفيع) بجانبها طاولة زجاجية وفازة تحتوي زهور ملونة تناسب الأثاث، أضأت التلفاز لأشاهد نشرة الأخبار لا جديد تشعر وكأن الأخبار ذاتها منذ سنوات مع تحديث بسيط بالسيناريو والممثلين شيء ممل ومقزز، أقلب بالمحطات أحاول إيجاد فيلم يشغل تفكيري وتجذبني أحداثه، لا يوجد، ليست المشكلة بأي شيء، المشكلة بعقلي الذي يأبى التفكير إلا بالذي حصل، يحيره ما حصل، يريد تفسير منطقي رغم أن لا تفسير منطقي لما حصل سوى أنني بدأت السير نحو طريق محطة قطار الجنون، يجب عليّ تدارك الأمر قبل أن أصعد القطار الذي لا محطة نهائية له، لكن كيف؟ الذي حصل بيني وبين جورج منذ أيام لا يمكن إصلاحه بسهولة، فأنا حقاً خذلته في أسوء توقيت أحتاج إليه فيه بحق وبشدة

أطفئ التلفاز و أعد لحجرتي، أطفئ النور، و أنسل تحت الأغطية، إنها الثانية عشر صباحاً، و أنا عاجز كلياً عن النوم، رغم التعب الشديد الذي يحتل جسدي، أغمض عيني لا أحلم بماريتا، أفكر في أنني لم أحلم منذ زمن طويل، و كأنني للتو تنبهت لهذا النقص، تحملق عيناي بشدة ألفظ فزعاً (ماريتا)، أين طيف ماريتا أيضاً؟ أنهض من جديد، أبحث عنها في جوانب حجرتي، لعلها تختبئ في مكان ما وسط الظلمة الحالكة، تنسل يدي وتشغل النور الباهت الذي بجانب سريري، تهرول عيناي في أرجاء الحجرة لا أحد، أنادي باسمها بصوت خفيض لا أحد لا مجيب، تعلو نبرة صوتي قليلاً لا فائدة، أكثر لا فائدة، إذاً لقد تعافيت من طيف ماريتا، و ابتليت بطيفٍ يحمل بطياته شعوراً أشد رعباً و خوفاً، فجأة ألمح ظلالاً تتجول في حجرتي أنتفض رعباً سرعان ما يدرك عقلي مصدرهم إنهم ظلال الأشجار التي تتمايل خلف نافذتي الزجاجية، ترعبني الفكرة من جديد، ماذا أفعل؟؟ إنني لم أعد أقوى على إطفاء النور حتى، شيء مضحك فعلاً، رجل في السادسة والثلاثون من عمره يخاف من الظلمة كيَّ لا يأتيه طيف خيالي مرعب ويقتله بخنجر ملؤه الدماء، وظلال الأشجار التي تلعب بها الريح باتت ترعبه أيضاً، يا للسخرية، أضحك بشكلٍ هستيري، أقم من مكاني، أغلق الستائر وأطفئ النور من جديد، وأنسل تحت الأغطية، متحدياً الرعب والخوف بجبروته.

فجأة....

نورٌ سطع من شدته لم أستطع تبين أين أنا؟ وما هذا الضوء الساطع؟ أركض وأركض وكأنني لا أتحرك من مكاني، وسط مكان لم أتبين له بداية من نهاية، كل ما حولي أبيض نقيّ، لا ملاح لأيّ شيء، لا جدار، لا سرير، لا صور تجمعني بماريتا، لا دولاب للملابس، لا علّاقة للمعاطف، ولا أيّ شيء يبين ملامح حجرتي، أين أنا؟ أصرخ (هل هنا أحد؟، فليجبني أحد؟، لا مجيب...) يخطر لي علها ماريتا أنادي باسمها لا مجيب أيضاً، فجأة... صوت خرير ماء قوي يصدر من سقف المكان، وكأنني وسط شلالات (آنجل) أدور في المكان، أصرخ من جديد (أين أنا؟) لا مجيب، فجأة... النور يتحول إلى ظلمة حالكة ،تصدر أصوات غريبة بلغة غريبة لا أفهمها، أصوات صراخ متداخلة ببعضها البعض، صوت صراخ أنثى وصراخ أطفال يتألمون صراخ رجل غاضب يبكي يصرخ يتألم أصوات مرعبة تدق الأرض و تزلزلها تحت قدمي، من شدتها يرتج المكان بأسره، الأصوات تعلو شيئاً فشيء، صوت خرير الماء يتدفق بقوة أكبر، أجلس أرضاً متكوراً على نفسي، أحملق في سقف المكان الذي لا وجود له سوى وهج أبيض بسيط يدل على وجوده ويبين لي ملامح ما يحدث، بدأ الخوف بالتهام جسدي فجعله يرتجف بشدة وجعل يدي ترتعشان وصولاً إلى أسناني التي تصطك ببعضها البعض بسرعة، حتى ظننت أنهم قد يتحطموا داخل فمي في أي لحظة، لكنه لم يتوقف هنا، أشعر بأنه التهمني عن آخري

وإذا به يحدث أسوء ما أذهلني، فجوة تنبثق من الجانب الأيمن يتدفق منها شلال دماء يغرق المكان ويغرقني حتى وسط جسدي، رائحة مقززة تنتشر بسرعة الضوء، و تعبق في المكان، من شدتها رددت ما في جوفي لخارجها، جسدي يرتجف أصرخ لكن لا مجيب، لا أحد غيري في المكان، أصرخ بشدة، أتحرك وسط بحيرة الدماء بهلع دون وجهة لكن لا تبديل وكأنني أدور في نفس النقطة، الدماء متجلطة مع حركتي الصعبة في وسطها تزداد صعوبة رائحتها، ويزداد صعوبة تنفسي واستنشاق رئتي للأوكسجين، أصرخ بحنقٍ شديد لا أحد غيري في المكان أبكي نعم أبكي لماذا؟؟ لا أعلم سوى أنني أبكي من الخوف والفزع والهلع الذي ينتابني

صوت الصراخ يعلو ويعلو يتردد صداه في المكان، لم أعد أستطيع سماعه، أغلق أذنايّ بكفيّ، أغمض عيني من شدة هلعي

فجأة... اختفت الأصوات، والهدوء عم المكان، أفتح عيني ببطء من جديد، فأجد ذاك الرجل يحدق بعينيه المخيفتين ويضع وجهه كالح السواد قرب وجهي، أشعر بحرارة أنفاسه، أشم رائحته المقززة التي تشبه رائحة شلال الدماء الذي غادرته للتو، يحدق بعينيه اللتين غمرتا باللون الأبيض وسط عيني بشدة، فاغراً فاهه المتسع مكشراً عن أنيابه البارزة، شكله المرعب أفزعني وكاد أن يغشى علي، تنبهت ليده يرفع بها خنجر يريد قتلي به، أصرخ من جديد و أغمض عيني بشكل لا إداري، ارتجاف يحتل سائر جسدي، أصرخ بهلع، أفتح عيناي ببطئ ثم سرعان ما أغلق ستارة أجفاني، تغلفني سلاسل العجز التي تكبلني من رأسي إلى أخمص قدميّ فتجعلني عاجزاً عن الحركة، هدوء تام، لم أعد أشعر بوجوده، لا حرارة أنفاسه و لا رائحته المقززة، ولم يغرز خنجره في جسدي، لازلت أشعر بأنفاسي وطرقات قلبي التي تهرول بأقصى سرعة لديها، لم أمت، إذاً أنا حيّ إلى الآن، أفتح ستارة أجفاني ببطء شديد، لا يوجد أحدهم يحدق بي، أنظر حولي وببطء شديد أحرك رأسي لا يوجد أحد، لا مكان غريب الملامح، أزفر بشدة، تنسل يدي إلى كبسة تشغيل النور و أعيدها إلي بسرعة خوفاً أن يمسكها ذاك المرعب، يضيء المكان بأسره، أنني في حجرتي، كل شيء كما كان، لا أحد، لا أصوات سوى صوت الساعة (تيك تاك... تيك تاك...) إنها السادسة صباحاً...

أضحك بشكلٍ هستيري، إذاً كل ما حصل مجرد كابوس، حتى أنني أشك في ذهابي إلى بيت السيد ابانوب، بل أنا مقتنع الآن بأنني لم أذهب إلى منزل أحد ليلة الأمس، كل ما فعلته أنني من فرط الإرهاق الذي غمرني في قاعه قد خلدت للنوم بشكلٍ عميق، لهذا غرقت بين طحالب الكوابيس المفزعة

(لكن رنين الهاتف كالعادة يقلب الموازين)

.....<<>>.....

لازلتُ وسط قوقعة حزني أحمي نفسي الرخوة بين جنباتها، أغلق ستائر الحياة، أخفي خلفها وهج الأمل المضيء، وأمنع رياح التفاؤل أن تعبث بوحدتي

لازلتُ مصرة على عنادي و شراستي أمنع أحدهم أن يشاركني طقوس حزني لهشاشة اهتمامهم، فهجرني الجميع ولم يعد أحدهم يعبئ لأمري، كما ظننتهم جميعهم مجرد سراب

حتى ذاك الغريب لم يعد يطرق باب منزلي، ظننته ذاك الفارس المغوار الذي سيتجرأ على اقتلاع حصوني التي أحكم الخوف صلابتها، وفكَ قيّودي التي أحكمت الحياة أغلالها، وكسر اليأس لدي بقاعدة الفرار والنجاة، ظننته منقذي كالذي انتظرته الأميرة النائمة لينقذها من ثباتها و أيقظها بقبلة الحياة، ظننته منقذي كالذي انتشل سندريلا من بؤسها وتوجها أميرةً على جميع النساء، ظننته منقذي كذاك الوحش الذي انتشل بيل من قصصها الوردية ليحيك لها واقعاً تحبه، و تنتشله بحبها من لعنة وحشيته بتعويذة الحب التي ألقاها قلبها على قلبه، ظننته منقذي لكنه سرق مني آخر حبال الأمل وجردني من النجاة وسط بئرٍ حالك الظلمة لأسقط في غياهب الوحدة للأبد، و لأبقى تلك المنبوذة، التي لفظتها الحياة من مخاضها الأخير لتلد وحيدة بأمل مشوه، ورداء يأس أحيك من تدفق خيوط الخيبات المتتالية لينسج ممزقاً لا يستر ضعفها وهشاشتها، تتسابق سنوات عمرها متدافعة بجلدها المتحرشف كثعبانٍ أقرع لكم بهجة ربيعها بذيله لتصرخ فصولها متمردةً وتمسي خريفاً لا ربيع بعده، ظننته منقذي وما بعد الظن إلا الإثم.

شعورٌ غريب وأحداث غريبة تجتاحني في وحدتي، ترصدتني ساعات الخوف وتحالفت مع عقارب ضعفي، وشى الزمان للأشباح بالوقت المناسب للاجتياح فاجتاحتني. تمردوا على خصوصياتي و انبثقوا من وسط الظلمة الحالكة يتراقصون على نوتات دمعي، ظننتهم في البداية وهماً أو سراباً لكن عند تكرار ظهورهم تصالحت مع وجودهم، فرحبت بالأشباح الجميلة، وعشقت فكرة أنسهم، و استثارتني مفاجأتهم، فلم تعد ترهبني أصواتهم ولا أشكالهم.

٣:٣٠ فجراً

أول شيء رأيته ساعتي المضيئة بالوهج الأحمر المعلقة على جدار حجرتي، ثم تنبهت للذي يقف عند رأسي يحدق بي بعينيه المغلفتان باللون الأحمر الدموي كوهج ساعتي المضيئة، أجزع، أحدق به ملياً أغلق عينايّ بسرعة ثم افتحهما من جديد علنيّ أحلم، لازال يقف مكانه، لم اتبين ملامحه أنس أم جان، ولا جنسه ذكر كان أم أنثى، سوى كائن عيناه حمراوان يرتدي عباءة سوداء تغطي سائر جسده ووشاح يغطي به رأسه يصل إلى أخمص قدميه، طوله متران على ما أظن ينقر على كتفي دون أن يلمسني، لم اتبين أكثر من ذلك فالنور في حجرتي بسيط جداً لا يساعد عيناي على تبين ما يحدث بوضوح، جلست مقعدي وأنا أسئل محافظةً على رباطة جأشي:

_من أنت؟ وما الذي أدخلك إلى حجرتي؟!

أجابني بفحيح يشبه فحيح الثعبان وقد تردد صدى صوته في أرجاء حجرتي:

_لا تكثري من الأسئلة، هناك من ينتظرنا هيا؟

حملقت به بشدة حاولت تبين ملامحه فلم أستطع، أفرك عيناي بكفيّ، تمتعض ملامحي، أفتح ستارة أجفاني ببطئ، أحدق في ساعتي المضيئة، أتلمس سريري وملاءتي، أحدق به من جديد لازال هنا، لو لم يكن بوسعي أن أراه و ألمس سريري وملاءتي ولو لم يكن بوسعي اشتمام رائحته المقززة كرائحة جيفة غرقت بدمائها منذ زمن تلك الرائحة التي تفوح وتعبث بحاسة الشم لدي حتى تكاد تفقدها وظائفها و تدمر وظائف حواسي الأخرى من شدة امتعاضها لحسبت أنني أتخيل كل ما يحدث أو أحلم.

عاد صوت فحيحه قائلاً:

_ الخوف فرض آدمي فلتنحيه جانباً لا داعي له الآن.

أعدت سؤالي بقوة وصلابة أبين له عدم خوفي أو اكتراثي لجوه المرعب:

_من أنت؟ وماذا تريد؟!

عاد صوت فحيحه يتراقص صوت صداه بقوة بين طبلتي أذنيّ حتى أنني خشيت أن يمزقهما مما دفعني لأغلاقهما بكفيّ، وقلبي بدأ يعارك قفصي الصدري، لا أدري هل أنا خائفة وأدعي الصلابة والقوة؟ أم ماذا يسمى هذا الشعور؟

_ لا تكثري من الأسئلة، هيا بنا.

لم يقترب مني الشبح المذكور لا زال منتصباً مكانه، لكنني أشعر بأن شيء ما جذبني وجعلني أقف منتصبة بصلابة على عود قدمي الهش، ثم قيدني من رأسي إلى أخمص قدمي فلم أعد أستطيع المقاومة، أغلق فمي، لكنه ترك عيني تبصر ما حولها ولتكن شاهدة على ما يحصل، فجأة ارتفعت عن الأرض أشعر أنني أطير تابعة ذاك الشبح رغماً عني، أظن أنني أحلم أحاول تأكيد ذلك لأخفف حالة الهلع والفزع الذي انتابني، بدأت تزداد سرعة تحليقي عن الأرض شيئاً فشيئا، لم أعد أتبين ملامح ما حولي، السرعة تزداد وتزداد وكأنني أسقط من السماء على الأرض، أشعر بالهواء كيف يلسع وجنتاي، وأشعر بعجز رئتي عن التقاط النفس

فجأة توقفت بسرعة وفي وقت أقل مما حسبته ممكناً، تحدق عيني، فأجد نفسي في مكان كالكهف المظلم يضيئه بضع شموع ضئيلة، جماجم بشرية تغطي جدرانه، نقشت بينها كلمات وعبارات بلغة غير معلومة لم أعهدها ولم تمر عليّ أبداً قبل الآن، رسومات صليب تناثرت على الجدران تتوسط العبارات ولعلها تفصل الجمل عن بعضها البعض، عناكب قد نسجت شباكها في كل رقعة من هذا المكان، لعب مشوهة تملئ الأرضية، لازلت أطير حتى وجدت نفسي بسرعة الضوء أقف منتصبة وسط دائرة من الأشباح يهللون بكلمات غير مفهومة أصواتهم لا يقل فحيحها عن من جاء بي إلى هنا، أظنهم يؤدون طقوساً خاصة بهم، تحيطني قدور تفوح منها رائحة مقززة، استرق النظر إلى داخلها فأجدها مملؤة بالدماء، لازلت مقيدة أرتجف رغماً عني، أنني خائفة، ظننت أنني لم أعد أرهبهم، لكنني عندما رأيتهم هذه المرة أعترف أنني خائفة بحق وأرتجف من

شدة فزعي، أخذت أصواتهم تعلو وتعلو، أنظر حولي أحاول تبين ملامحهم التي بدأت تتوضح لي شيئاً فشيئاً وليتها لم تتوضح، وجوهٌ ناصعة البياض مبعثرة الملامح، عينٌ آدمية سوداء بدون قزحية تتوسط جبهة الرأس، أنفٌ قد ركب بشكلٍ معكوس عن الأنف الآدمي، فمٌ لا شفتين له تبرز منه أسنانٌ سوداء حادة الأطراف، يرتدون كسابقهم عباءة سوداء ووشاح أسود اللون تتدلى منه خصلات شعر بيضاء، أخذت أجسادهم ترتعش، وأصواتهم تعلو، ثم بدأوا يمزقون أثواباً خاصة بي ويرمونها في قدور الدماء التي بدأ يعلو صوت غليانها دون نار، من أين أتوا بأثوابي؟ ولماذا يمزقونها ويرمونها في قدور الدماء؟ أوقف تفكيري رائحة الجيفة التي ازدادت و أشعرتني بالإعياء، أحاول كتم أنفاسي أتنفس من فمي رغماً عني، لازلت إلى الآن أشك بأن ما يحدث حقيقي، أغمض عيناي و أفتحهم من جديد، فأجد عيونهم تنقلب إلى الأعلى إلى أن يختفي سوادها فيظهر لونها ناصع البياض، أصرخ واستنجد لا مجيب، تقف الأشباح ثم تبدأ أجسادهم بالارتفاع عن الأرض يزمجرون بقوة، يتردد فحيح أصواتهم، أصوات صراخ الم بكاء أصوات مرعبة تدك الأرض وتجعلها تهتز من تحت قدمي، تفرقوا ثم اصطفوا على جانبي، ابتعدت قدور الدماء واصطفت الأخرى على جانبي دون أيادٍ تمسها، انبثقت من وسط الظلمة امرأة ترتدي حلة ناصعة البياض، لم أتبين ملامحها فهناك وهجٌ أبيض مضيء أحاطها فأخفى ملامحها، علت أصواتهم وهم يهللون، أظنهم يحبونها، فجأة تظهر عجوز شكلها مفزع، ذات البشرة الكالحة السواد، بشعرها الأبيض الطويل، تهرول بسرعة ترمي ذات الثوب الأبيض أرضاً وتتجه نحوي لتمسك بي، ثم تتبعها ذات الثوب الأبيض وتحكم قبضتيها حول جسد العجوز

فجأة... فُكت قيودي وسقطت أرضاً، استجمعت قواي على الفور وبدأت بالركض، أركض بأقصى سرعة لدي، أصواتهم تعلو، تختلط بها أصوات مرعبة، بكاء، صراخ، ضحك، أصوات غاضبة، أصوات متألمة، أصوات تهز الأرض حتى تشعر بأن الصوت يصدر منها، لم يتبعني أحد، لا أحد سواي أركض في سرداب طويل مظلم ملئ بالسراج التي يلفظ نورها نفسه الأخير، تفصلها عن بعضها عدة أمتار وشباك العنكبوت التي تملأ كل رقعة فيه، والخفافيش التي تملأ سقفه وتطير فوق رأسي تزيد شدة فزعي، أركض لوقتٍ

طويل لا أستطيع إحصاء و أنا أبكي وارتجف.. أتعثر وأسقط عدة مرات ثم أعاود الوقوف بسرعة والركض من جديد، لا شيء جديد وكأن السرداب لا ينتهي لا ملامح لنهايته، أقف محاولةً جذب نفسٍ طويل ألتقط به أنفاس الحياة، فجأة تطفئ السراج جميعها في وقتٍ واحد أصرخ، ثم تضاء من جديد، أنظر حولي لا يوجد أحد، تطفئ وتضاء تطفئ وتضاء، أصرخ بأعلى درجة صوت لدي(يكفي) تعلو الأصوات من جديد، عادوا يهللون، فجأة تطفئ الأنوار، ولا يعاد أضاءتها، أبكي بهستيرية لم أعهدها، أجلس أرضاً أتكور على نفسي وأنتفض ذعراً، فجأة يسطع ضوء بسيط أنظر فأجد تلك التي ترتدي حلة بيضاء على بعد ياردات من مكاني، أفكر في الوقوف والهروب منها، وقبل أن أنفذ 'تطفئ الأنوار وتضاء بسرعة فأجد وجهها وضع في وجهي تحملق عيناها بعيني تقول بفحيحٍ يتردد صداه في كل مكان:

_إياكِ الاقتراب منه....

أغمض عيناي، وأصرخ بشكلٍ هستيري إلى أن أغمي عليّ، أو ربما هذا ما ظننته، كل ما أدركه أنني لم أشعر إلا برنين هاتفي المحمول، أنظر إلى الساعة إنها التاسعة صباحاً، أنظر حولي أحاول استيعاب ما حصل أعاود تذكار ما جرى، أظنه كابوس بل هو كذلك، أتناول هاتفي إن المتصل إدوارد، أكتم صوت رنينه وأرميه على سريري، أتحامل على نفسي لأصنع كوب قهوة عله يعيدني للواقع، عقلي يبدأ بسرد أسئلته الفظة، ما الذي حصل؟ هل ما حصل مجرد كابوس؟ أم أنه حصل فعلاً؟ من هؤلاء؟ ومن تقصد تلك الشبح البيضاء؟ ليس بجعبتي أي إجابات، أؤكد ما حصل مجرد كابوس محاولةً إقناع نفسي، أطفئ النار تحت ركوتي التي بدأت بالغليان تنتظر حبيبات البن لتتراقص معها، أرتدي ملابسي عازمةً على العودة إلى العمل من جديد، أظن أن الوحدة ستقودني لقطار الجنون حتماً

فجأة يستوقفني شيئاً تذكرته، أفتح دولاب ملابسي، أفرغه أرضاً وأنا أبحث عن أثوابي التي مزقوها ورموها في قدور الدماء، لا أجدهم، أوسع حلقة البحث في

جميع أنحاء حجرتي إلى أن وصلت إلى سلة الملابس المتسخة، لكنني لم أفلح بإيجادهم

فجأة....

أصواتهم من جديد تعلو في منزلي وتهز جدرانه بعنف، أرتجف، سائر جسدي يرتعش، أخرجتني الأشباح من رتابة العقل إلى فوضى الجنون، أدور حول نفسي بشكل دائري أحدق في الجهات الأربع والسقف، أصرخ بهستيرية، يصمتون فجأة، إذاً لم يكن كابوس بل حقيقة، أتناول حقيبتي الصغيرة وأنا أركض تجاه باب منزلي، أهرب بسرعة وكأن أحدهم يتبعني ويكاد أن يمسك بي، أخرج، أقف أعبئ رئتاي بهواء الحي الفاسد، للمرة الأولى لا أبالي ولا ألعن هذا الحي، ولا أشتم الفقر الذي اضطرني للمكوث فيه، أستدير لأغلق باب منزلي، فإذا به يغلق بعنف في وجهي، ويحكم إغلاقه من الداخل, أحملق به لأستوعب ما حصل؟ أستدير وعيني تتفرس ملامح المارة أن كان أحدهم تنبه لما حصل؟ لا أظن! فكل واحد منهم منشغل بوجهته، أركض بسرعة هاربةً من ماذا؟ لا أعلم!

أنظر إلى الهاتف لأرى من المتصل، إنه السيد ابانوب

_لقد نسيت معطفك في منزلي بالأمس

_ماذاااااااا؟!

قطع الاتصال...ما الذي يحدث يا ترى؟ أنظر إلى الهاتف أحاول إيجاد الرقم الذي أتصل منه السيد ابانوب لأعاود الاتصال به، لكنني لا أجد شيء، لا يوجد مكالمات واردة لهذا اليوم، أكاد أجن! يحادثني إدوارد مستفسراً إن كنت سأحضر للعمل هذا اليوم، أكدت له بنعم، أومئ كثيراً، رغم عجزه عن رؤيتي خلف سماعة الهاتف، أرتدي ملابسي المرمية أرضاً على عجل، تحتاج للتمليس بها الكثير من الخطوط كأنها قطعة لبان قد بصقت من فم غجرية، أفكر في ارتداء غيرها لكن سرعان ما أبدل رأيي معللاً لا يهمني، أخرج من المنزل مسرعاً متوجهاً نحو الكافيه بسيارتي، أصل في أقل وقت حسبته ممكناً، شكلي يدعو

للسخرية وأنا أترجل من سيارتي الفارهة، شخص بمستواي المادي رث الثياب ويعمل مجرد نادل في كافيه بسيطة، (عليّ استعادة نفسي) أفكر وأنا في طريقي لغرفة تبديل الملابس لأرتدي زيّ النادل الرسمي، ثم أعود أدراجي، أقرر بشكل مباغت ترك العمل في هذا المكان، أخطوا خطواتي نحو مكتب إدوارد لأنهي الموضوع على عجلّ...

فجأة....

تخطت باب الكافيه مستعجلةً، تناظر المكان بخطى مبعثرة، مرهقة الملامح، تكسوها علامات الشقاء، توجهت ساقي تهرول نحوها رغماً عني، لا يستجيبون لأوامر عقلي الذي ينهاهم عن الوصول إليها، باغت صمتها أتدارك قربي منها قائلاً:

_كيف حالكِ؟!

نظرت إلي بطريقة مبهمة بعثرتني بين نتوءاتها، ردّت بحدّة بعد أن أطلقت شرارتين من عينيها:

_أنت هنا؟!

أجبتها بلباقة مبتسماً وعيناي ترقص فرحاً برؤياها:

_أنتظركِ

ردت بسخرية:

_أرجوك تجرد من لطفِك المصطنع

تفاجئني، أحملق في عينيها مشدوهاً، أغرق بين حنايا ملامحها، يذوب قلبي شوقاً لعناقها، هل يعقل أنني أحببتها؟ تتجاهلني، وتكمل شق طريقها نحو مكتب إدوارد، لا أعلم كيف نطقت شفتي تلك الجملة المختصرة:

_اشتقت إليكِ!!!.

تقف، أترقب ردة فعلها، قلبي يخفق لأول مرة بحضرة إحداهن، انتبه لشكل ملابسي، أصفع جبهتي بكفي اليمنى، أتشمم رائحة عرقي، يكسو ملامحي رداء خجلٍ خمري اللون، أفكر بالهروب قبل أن تلتفت، أفكر في زلزال يشق الأرض ويلتهمني ربما سيكون حلاً أسرع، ماذا أفعل؟! تباغتني وقد أصبحت قريبة جداً مني، أشعر بلهيب أنفاسها كيف تزمجر بغضب، عاقدةً حاجبيها، تنظر لي باشمئزاز، أحاول ترقيع ثوب جرأة شفتي، أحاول تبرئة نفسي من ذنبهن، لكنها تسبق محاولاتي تلوح بسبابتها، تصفع قلبي بخطاياي، وتزلزل نبضي بحقيقة أمري:

_تجرد قليلاً من غبائك، من بذلتك هذه، من ربطة عنقك الرثة، وأول زرين من قميصك المتآكل، اختصر كمّيك، وانفض عن كتفيك أتلال النساء، وعن كاهلك ذنوب فقدانهن، فالنساء ليست تنزيلات في محل شانيل، أو مجرد حذاء في محل أديداس، أعطي فرصة الشهيق لهوليود المحشورة بين شرايين قلبك لكي تنظم نبض التبديل بين النجمات... لكي لا تختلط في عقلك تلك المشاهد الصماء البكماء الضريرة، تجرد من نفسك أيها الأبله، كن كل شيء إلا أنت، وعندها يحق لك التجرأ على أسطول الاشتياق، وأن تكون قرصاناً للحب يهابه العمالقة والنبلاء، فمثلك يغرق في بركة ماء

وصل الدم لشرايين أذني، تجاهلت غضبي واحراجي الشديد، تفقدت ساعتها وهي ترمقني بنظرات لها آلاف المعاني، ويديها تحرر عنقها من أغلال الملابس وأطواق الأوشحة، مضت، وتركتني أحملق برحيلها كالأبله.

.....<<>>.....

_لم أشئ قول ذلك، لم أشئ اهانته، لكنني فعلت... رغم وجود شعور غريب يجذبني نحوه!!.

أقول معللةً بعد أن أحرجتني نظرات صديقتي لورا التي تبعتني إلى حجرة تبديل الملابس بعد أن كانت شاهدةً على إهانة دانيال، أباغتها بسؤالي الذي خطر لي على الفور:

_ ما الذي جاء به إلى هنا؟!

_ أنه يعمل هنا منذ ذاك اليوم الذي تلا يوم لقائكِ به

_ كيف تجدينه؟

_في الحقيقة إنه رجل كل الكلمات التي تقال في حقه لا يسعها وصفه، أن الأعين التي تلمحه ستدرك مدى الجمال وروعته، نعم إنه فقير رث الثياب، رديء المظهر لكن أشعر أنه يحمل قلباً أنيقاً، ولا تنسي جميع من يعرفه وتعرف إليه أحبه (تضيف بحزم) فلتمنحيه فرصة.

_ ولكنني رغم ذلك أشعر بوجود حاجز متين بيني وبين وجوده في حياتي، حاجز يشعلني غيظاً في حضرته فأتصرف تلقائياً بفظاظة لم أشئها

_عليكِ إصلاح الموقف، كاد أن يتوقف نبضه خوفاً عليكِ

_أود إصلاح الموقف، لكن كبرياء الأنثى الذي يملكني لن يسمح لي بذلك

_عليكِ أن تفكري ملياً، أيعقل أن يكون فارسكِ المنتظر؟ عليكِ أن تعطي فرصة مرة واحدة لأحدهم، لا تفعلي كما فعلتِ مع الجميع، لا تدمري مملكتكِ قبل بنائها، لا تقتلين ملككِ بفظاظة هجومك وشراسة قواعدك، لا تطفئي بداية فتيل الحب ببرودة مشاعرك وجمود إحساسك (تقول لورا برجاء)

_لا أعلم ما يجب عليّ فعله؟

_أنتِ لا تعلمين ماذا تريدين من هذه الحياة ماري؟ بالله عليكِ أخبريني عن أيّ حبٍ تبحثين؟

_أبحث عن حب يراقص دقات قلبي، حب يخرجني من ذاتي، ينسيني مأساتي، حب يدمر جميع ذكرياتي، يعيد تكوين بداياتي، و بأجمل الألوان يرسم نهاياتي، لورا أرغب أن أكتب قصيدة حب، قصيدة غزل.. فرح.. جنون.. رقص.. أن أكتب عن حب يملئ دنياي برقاً ورعداً ومطراً يعصف بي كإعصار، بل حب كزلزال يدمر جميع أحزاني ويمحو آثر آلامي، يزهر دربي ويمحو أثر الأشواك، حُب يغير جميع تصرفاتي، يظهر عليّ تحولاتي، ينور عتمة دربي الآتي، يعانقني ويخلصني من شتاتي، حُب أكتفي به، ويكن لجسدي حياة ولقلبي روح، لا أرغب بقصور ولا ممالك ولا مال، أريد قلباً يمنحني ملكيته الأبدية، يزهر في كل يوم زهراً أحمر، أكن أنا ملكته المدللة، أغوص في أعماقه ليكن أنا وأنا هوَ.

_كم من الأعوام قد مرَّ على هذه الأحلام، وكم مرة أعدتِ على مسمعي نفس الكلمات، أنتِ تبحثين عن المستحيل ماري، لا تضيعي المزيد من الفرص هباءً منثورا، سيباغتكِ المستقبل سريعاً فتجدين نفسكِ في النهاية وحيدة تنسجين من كوابيس الليل أحلام اليقظة لتصنعي ثوب الأمل، ستصلين وتبتهلين كثيراً كيّ تَعُد فرصة واحدة، عندها لن تجدين سوى الخيبة بصحبتك، ستجدين نفسكِ مقيدة في شباك العنكبوت تلك الأرملة السوداء، في أوهن البيوت يا ماري...

قاطعتها فزعة:

_ لقد أفزعتني من مجرد الفكرة

ثم أردفت بإصرار:

_ لكنني مصرة على انتظار فارسي الموعود.

.....<<>>.....

بعد أن غادرت جلست منهاراً على أول مقعدٍ صادفته، واضعاً كفي تعلوهما جبهتي على طرف منضدةٍ صماء لا تعبئ لأمري، أحملق في حذائي الذي بدأت دموع الحقيقة المرة تغسل عنه أكوام الأتربة العالقة به منذ زمن، أسأل نفسي ما أدراها بحقيقتي التي غفلت أنا عنها؟ عله إدوارد من أخبرها، ليتني لم أفصح له عن خبيئتي، بعد وقت لم أحصيه، أتدارك وضعي، وأخفي هشاشتي خلف رداءٍ صلبٍ يضغط على نبضي فيبطئ عمله، وقفت عازماً على الرحيل، أشعر بالدوار، أجلس من جديد أحني رأسي، أرفعه فأجدها بزي النادلة الرسمي، شعرها معقوص إلى الخلف، تنظر إلي باستعلاء من رأسي إلى أخمص قدمي، تذبل ملامحي على الفور، تشيح نظرها بعيداً عني، وتخطو نحو عملها، هل يعقل بأنني مثير للاشمئزاز لهذه الدرجة؟!، لا أدري ما الذي جعلني أذهب إلى حجرة تبديل الملابس أرتدي زيّ الرسمي للعمل فقد أنستني فكرة تركه، أعمل على ترتيب شعري، أحدهم بجانبي يرش القليل من البارفان على ثيابه، أطلبه منه بأدب، أرش المزيد على نفسي، ألوم نفسي لو أنني أرتدي ثيابي الجديدة لكانت صفعة إحراجي خفيفة الأثر، لا يهم فالأيام القادمة ستغير نظرتها إلي رغماً عنها، أعبئ رئتاي بهواء التفاؤل، ابتسم في المرآة لنفسي، أبدو جميلاً بعيداً عن ملابسي فملامحي لا تنم إلا عن شاب وسيم، فعيناي الزرقاوان يضجان بسحر لونهما البحري، وشعري البني الأملس مهما بعثر يفرض انسيابه، وذقني الكثيفة تناسب آخر صيحات الموضة، لا بأس بها، أنهي حديثي الغزلي مع نفسي عند صدور صوت شيء ما قد تكسر في الخارج، أخرج لأستطلع الأمر فأجد ماري تجلس القرفصاء تلملم شظايا زجاج أكواب العصير، تجرح يدها والدماء تقطر على الأرضية الرخامية البيضاء، أهرول إليها ،ألملم بقايا الشظايا الكبيرة أسرع في إحضار أشياء تساعدني دون أن أجرح يدي، أنظر نحو مصدر الصوت، أجد ماري لازالت تجلس في مكانها تبكي، أفزع، أطلب من أحدهم أن يكمل عني

جمع بقايا الزجاج، بينما أذهب مسرعاً لإحضار معقم وشاش من المكان المحدد لصيدلية الكافيه، اقترب منها، أجلس القرفصاء بجانبها، أمسك يدها وأبدأ بتعقيم جرحها، تبعد كفها الأيسر عن وجهها تحملق بي مشدوهة، لا تمانع بعد أن رأتني، لا أعبئ لنظراتها، أنتهي من التعقيم ولف الجرح، أنظف الأرضية بعد أن أجلستها على كرسي جانبي، أنتهي وأمضي في طريقي إلى عملي، تستوقفني حنجرة أطلقت نبرة صوتٍ أنثوية هادئة تنطق:

_شكراً لكَ.

إنها ماري أعلم ذلك، لا ألتفت إليها، أكمل طريقي الذي توقفت عنه منذ قليل. تطلبني إحداهن، سمراء ذات الشعر المجعد المتصبِّبِ على كتفيها واصلاً إلى وادي خصرها، دافئة الملامح، نرجسية الطباع، اقترب منها تحملق بي بنظرة إعجاب، أتجاهل والويل لمن تجاهل أنوثة نرجسية، أسألها عن طلبها، تحايد عن الإجابة، تكلمني بنبرة أنثى تنصب فخاخ الوقوع بشباكها، أتجاهل متعمداً، تعاود المحاولة لكنها تفشل بتجاهلي المستفز لها معاوداً سؤالي عن طلبها، تغضب لتجاهلي كلبوةٍ كشرت عن أنيابها عندما كادت أن تغلبها فريستها، تصرخ في وجهي، تطلب مدير الكافيه، يهرول إدوارد إليها تاركاً تلك التي كان يطمئن على جرح يدها بعد أن وصله الخبر من العاملين خلفه، يردد بعض الجمل الاعتيادية لتدارك ثورة غضبها (أرجوا أن تعذريه مجرد أبله، سيصلح الأمر حالاً) تنعتني أمام الجميع بالأبله الغبي، أطرح نظري أرضاً، أنوي حزم حقائب ما تبقى من كبريائي والرحيل من هنا بأقصى سرعة، فجأة صوتٌ أنثوي أتى نحونا مهرولاً، وبثورة غضبه عن براءتي مدافعاً، أرفع نظري عن الأرض متمهلاً، أعلم أنها ماري، أضحك، أعلم أنه ليس الوقت المناسب للضحك، لكنها تضحكني فعلاً، وكأنه يحق لها ما لا يحق لغيرها، يُدهش الجميع لضحكي المفاجئ، ترحل السمراء متوعدة بالمزيد من السوء لي وولكافيه برمته، أحملق في ماري أجدها غلفت بحمرة خجلٍ زادتها جمالاً، تبتسم لي! وفجأة بعد غياب طال مدة طويلة تشرق أنوار ماريتا، تتراقص نيران غضبها، تقف بجانب ماري وكأنهما توأمان ملتصقان، عاقدةً حاجبيها وذراعيها! تذبل ملامحي، وتبهت ضحكتي في حضرتها، أحملق بها بشدة، أبكي فجأة لا أعلم لماذا؟

ربما شوقاً لها، ربما حنيناً قد فاض لعناقها، ربما على فقدانها، ربما على فقدان روحي الحية بفقدانها، (أصبحت أضحوكة وسخرية للجميع بعد رحيلكِ ماريتا، لم يكن طيفك السبب بل كان رحيلكِ) كنت أردد على مسامع الجميع، جلست أرضاً أخفي وجهي خلف كفيّ، ولا أعلم كيف كنت أبكي؟! جلّ ما أعلمه أن ماريتا صارت بقربي، تباغتني ماري بعناقها لي، وهي تشهق لهيب بكائها الحار بينما شفتيها تكرر أسفها، أحملق حولي مذهولاً، تختفي ماريتا

فجأة....

صوتٌ قوي مرعب يصدر وكأن عاصفة هوجاء انطلقت نحونا، زلزال قد صدع الأرض وشقها واصلاً إلينا، تطفئ الأنوار ثم تضاء من جديد أكثر من مرة، ثم تتفجر فجأةً فوق رؤوس العامة، يهرول الموجودين يميناً وشمالاً، تندلع نيران غاضبة بدون سبب وكأنها نبتت من الأرض تبدأ بالتهام كل ما تصل إليه، يدٌ خفية تحمل ماري التي تنظر مثلي لما يحدث بدهشة تفك يديها المحكمتين حول عنقي وترميها بعيداً عن النيران المندلعة! تصرخ ماري وتهرول هاربةً خارج الكافيه، وأنا في أوج دهشتي وإذ بيدين تحكما قبضتهما على كتفي، يجذبونني على حين غرة فأقف منتصباً، تصيبني حالة إغماء فجأة، ولا أدري ما حصل بعد ذلك؟!

.....<<>>.....

أعشق حالة الزهايمر التي تصيبني تو استيقاظي، تلك الثواني البدائية المعدودة التي تعقب فزعي من نومٍ متعب وكابوسٍ مزعج، للوهلة الأولى مجرد من كل شيء، كمولودٍ توه شهق أول نفسٍ للحياة، لا يعلم ما اسمه... من عائلته... ما وطنه... لما خلق أساساً، نظيف القلب لا تلوثه أيّ خطيئة، بضع ثواني تشعرك بلذة حرية دهرٍ كامل، لا أعماق ولا طحالب، تطفو على السطح بقلب نظيف لا تشوبه شائبة، إلى أن يدق عقرب الدقيقة الأولى، فيمنحك عقلاً بشري نشيطاً يبدأ بأداء كامل مهامه على أتم وجه، فيطرحك رمياً من أعلى أمالك الشاهقة، يشتمك

باسمك، ويذكرك بعائلتك وأصدقائك، وينبهك لحياةٍ ومهامٍ وأحزانٍ سخيفة تنتظرك، لتصل لأرض الواقع محطماً كما كنت بالأمس

في فندق رخيص بائس، في حجرة صغيرة، أنظر حولي ستائر باهتة بفعل الشمس، تلفزيون صغير قد عصف به الزمن، أنام على سرير لا يغري إطلاقاً بالنوم عليه، وتحت رأسي وسادة قاسية كالحجر، لكن التعب والإرهاق دفعني للنوم مرغمة، أتمطى و أفرك عيني، أظن أن أسفل ظهري سيصاب بالشلل، ورقبتي تؤلمني بشدة، لم يكن منزلي بحالٍ أفضل، لكن العادة تطرح نفسها لتفرض الراحة فيه، أقف بتثاقل، لازلت بثيابي، فلا ثياب لدي ولا حاجيات، أفكر في أخذ دشٍ سريع قبل الذهاب إلى المستشفى للاطمئنان على دانيال وإدوارد وبيتر، الحمام لا يتجاوز حجم دولاب الملابس، لا يوجد به الكماليات من بلسم ومجفف الشعر، لا بأس على الأقل يوجد الأساسيات شامبو ومشط ومنشفة، لا يحق لي أن أتذمر، يكفي أن تحيطني جدران، ومكان للنوم مهما كان وضعه، على الأقل بدون أشباح، ما عساي أريد أكثر من ذلك

آخذ حماماً ساخناً وطويلاً، جسدي ممتلئ بالألوان المتناثرة بعشوائية بسبب تلك اليد الخفية التي رمتني خارج الكافيه، وطرحتني أرضاً أتأوه، أذكر تفاصيل حادثة الأمس السريعة، أفزع لمجرد التفكير بها، أخرج من الحمام بسرعة وكأن أحدهم يتبعني، أرتدي ثيابي المتسخة بسبب حادثة الأمس أيضاً، أصفف شعري بعشوائية، لازال يقطر ماءاً، كيف سأخرج هكذا في جوٍ عاصف، أهز رأسي وأنا أردد (لا يهم)

يقرع جرس المصعد عند بلوغه الدور الأرضي، أضع المفتاح عند موظف الاستقبال، يهتف في وجهي مرتبكاً:

_صباح الخير، آوه كيف ستخرجين في جوٍ عاصف وأنتِ مبللة الرأس

_لا بأس (أرد بجفاء)

_لكنكِ ستتعرضين للفحة هواء قد تطرحكِ في الفراش لأيام

أتذمر، وأزفر الهواء بضيق من فضوله، أقرر الرحيل دون رد، يكمل مسرعاً وهو يرمقني بنظرات ودودة:

_لدي مجفف للشعر أقترح أن بإمكانكِ استخدامه

تروق لي الفكرة، أومئ برأسي وأنا أشكر اهتمامه، رغم فظاظته ليلة الأمس عندما وصلت إلى هنا منهارة الأعصاب، وبدأ يضايقني بأسئلته التي لا تنتهي، ويخنقني بفضوله الساذج، أعود إلى حجرتي أجفف شعري سريعاً، وعندما أنتهي، أعيد المجفف لصاحبه، يناولني وشاحاً وطاقية وكفوف رجالية من الصوف، لا بأس بهم قائلاً بود:

_يمكنكِ استخدامهم لا حاجة لي بهم، فكما رأيت ليلة الأمس ليس لديكِ حاجيات، والجو في أوج برودته هذا اليوم، ربما يفون بالغرض.

أكتشف بعض الفوائد التي تأتي من الفضول، تروق لي الفكرة من جديد، أشكره مع ابتسامة تثني على اهتمامه لأمري، فأنا حقاً أحتاج لهم، رغم أنهم لا يناسبونني، لا مشكلة، خصوصاً وأنني لازلت أرتدي زيّ النادلة، فقد فقدت ملابسي تحت ركام الكافيه، لا أعلم ما الذي حصل في الأمس، وحول الكافيه لمجرد كومة رماد! من الجيد أن محفظة نقودي الصغيرة لا زالت بحوزتي، للحقيقة لم أجرئ الذهاب إلى منزلي ليلة الأمس، لكنني الآن مضطرة للذهاب إليه لتبديل ملابسي، وهناك سبب آخر نقودي كادت أن تنفذ، ولا أستطيع البقاء في الفندق، أستقل سيارة أجرة للذهاب إلى منزلي، يوصلني عند مقاطعة الطريق العام كالعادة، لا يقبل أحدهم الدخول إلى حينا البائس خوفاً على سيارته من طرقاته المليئة بالنتوءات الصخرية والحفر الواسعة، أدفع الأجرة بعد جدال طويل تحول لشجار حول الزيادة التي طلبها، أترجل من سيارته، أغلق بابه بعنف وأنا أمطره بالشتائم

وأنا على مشارف الوصول إلى منزلي بعد سيري على الأقدام كالعادة لمدة خمسة عشر دقيقة أرتجف رغماً عني وقد كساني رداء التوتر، لم أكن أعلم قبل الآن أنني هشة لهذه الدرجة، وإذا بي أفجع لما رأيته، تحول منزلي لكتلة ضبابية

سوداء للتو أخمدت نيرانها! والناس مجتمعون، عندما ألقي سؤالي عن ما حصل؟! يلتفتون إلي يهللون لنجاتي من الحريق الهائل الذي ألتهم منزلي عن آخره، لا أحد يعلم سبب الحريق، سوى أنهم سمعوا صوت جلبة هائلة في منزلي، وبعدها بدقائق معدودة شبت النار في أركانه، ومنذ الأمس وهم يحاولون إخماد النار التي انطفئت لوحدها منذ ساعة من الآن، أنظر بعجز لا أعلم ما بوسعي فعله الآن لا منزل ولا عمل، ولا أملك سوى بضع نقود معدودة بالكاد تكفيني حتى الغد، أنهي حديثي مع أثنان من رجال البوليس جانباً، يتركوني بعد تسجيلهم لواقعة الأمس في الكافيه وواقعة منزلي وبعض المعلومات حول الفندق الذي بت فيه ليلة الأمس ليتحققوا من أمر صدق أقوالي وهم يرمقوني بنظرات مبهمة، ثم يرحلون

أتجاهل أسئلة الجميع عن مكان مبيتي ليلة الأمس وأدخل إلى منزلي، لا شيء سوى الرماد، أتجول في أركانه وأنا أبكي رغماً عني إلى أن أصل إلى حجرة أمي، لا شيء أيضاً سوى الرماد والسواد قد كسا المكان برمته، وأنا في طريقي للخروج من حجرة أمي ألمح صندوق خشبي! أمسح سيول دمعي بطرف كمي لأتبين حقيقة وجوده، نعم يوجد صندوق خشبي بني اللون للمرة الأولى أراه ،طوله٢٠ سنتمتر وارتفاعه ٥ سنتمتر منقوشٌ عليه عبارات غريبة كتلك التي رأيتها ليلة الأمس في ذاك الكهف، يتوسطها أيضاً رسم صليب، اقترب منه و أحمله بين يدي خفيف الوزن كخف ريشة، لم تطله النار أبداً، كيف ذلك؟! أحاول فتح قفله الحديدي الضخم، لا أستطيع، أحاول كثيراً لا أستطيع، أرميه أرضاً أحاول كسره لا جدوى! أجد قطعة حديد مرمية جانباً أحاول فتحه بها، لا جدوى! أحاول كسره بها أفشل أيضاً، المثير للدهشة أن محاولاتي لا تترك عليه أثراً!

أجلس أرضاً فوق أكوام الرماد أفكر، شيء غريب صندوق خشبي يبقى بينما يتحول المنزل لكتلة رماد؟ لا وزن له رغم ضخامة حجم قفله الحديدي! أحمله بين يدي أتأمله عن قرب، وأنا أردد بحنقٍ شديد:

_لماذا لا تفتح؟!!!!!!

أحمل الصندوق الذي تبقى من ركام منزلي وأخرج، وأنا أتفرس وجوه العامة المندهشة وأتجاهل أسئلتهم حول بقائه رغم النار الهائلة التي التهمت المنزل برمته وما يوجد بداخله أهو كنز قد قمت مسبقاً بدفنه؟!، أم أنه أرث عائلي كان مدفون منذ مئات السنين قد خرج من مخبئه بعد الحريق؟! والمزيد من الأسئلة الأخرى، لا أدري لما الناس فضوليين بهذا الشكل، فليدعوا المبتلي لمصابه، أركض بسرعة هرباً منهم، أصل للطريق العام من جديد ودموعي تغرق وجهي، أستقل سيارة أجرة إلى المستشفى بصحبة صندوقي العجيب....

أسأل في الاستعلامات عن حالة مرضاي (جيدون وبأفضل حال) هذا ما قلته الموظفة البدينة التي تلتهم ساندوتش الهامبرغر بشراهة، تبدو شهية، شكلها يشعرني بالجوع

أذهب إلى حجرة إدوارد أولاً ثم بيتر واصلةً إلى دانيال، أول شيء يسألونني عنه شكلي المربك وثيابي المتسخة وصندوقي الخشبي الذي لازلت متشبثةً به، لأروي لكلٍ منهم عن حريق منزلي على حدى، و ليعرض كلٌ منهم فكرة إقامتي في منزله، فرصٌ عديدة، ولا تناسبني إحداهن، لكن ماذا سأفعل؟ إن دفعة أجرة اليوم لحجرة الفندق لن أستطيع تناول أيّ وجبة، أفكر في اقتراض المال، من إدوارد بالطبع فبيتر ودانيال كلاهما في وضعٍ مالي حرج وربما أسوء مني، أغادر غرفة دانيال بجسدي كما كنت مغادرةً لها في عقلي، أسمعه يحث طلبه بموافقتي على الإقامة في منزله، غبي كيف لي أن أقيم أنا وهو في منزله وحدنا لا تربطنا أيّ علاقة! أعود إلى غرفة إدوارد، أفكر كيف لي أن ألقي طلبي بطريقة مناسبة، أشعر بالإحراج يغرقني، خرير أمعائي أصبح مسموعاً فأنا منذ صباح الأمس لم أتناول الطعام، ألقي طلبي الذي رد إلي على عجل:

_كما تعلمين جميع ما أملك في الكافيه، حتى خزنة نقودي التي فجرت بشكلٍ مثير للدهشة! لا أصدق ما حصل أكاد أجن، أعذريني لا أستطيع تقديم المساعدة، سوى أن أعرض عليكِ المكوث في منزلي بينما تعالج حروق جسدي، واخرج من المستشفى ونتدبر الأمر سوياً فيما بعد (هذه القنبلة التي فجرها في وجهي إدوارد، لكنه معذور، يكمل بأسى:) كان بودي المساعدة، لكن ما باليد حيلة.

أغلق فمه كي لا يكمل، وأنا أردد:

_إياكَ أن تشعر بالذنب، لا ذنب لأيّ أحد فيما حصل ويحصل وسيحصل سوى أقدار كتبت لكلٍ منا، سأتدبر أمري لا تقلق، وأشكرك سأمكث في منزلك بينما أتدبر أمري قبل خروجكَ من المستشفى. (ألقيت في وجهه ابتسامة امتنان وشكر، فبادلني بمثلها)

ذهبت إلى بيتر وأنا أعلم الإجابة، لكن عليّ المحاولة، كما توقعت حصل، فأنا أدرى بحال بيتر، لم يتبقى لدي سوى دانيال، وصلت إلى عتبة حجرته، قررت الإعراض عن الفكرة، وإذا به يلمحني يناديني باسمي، أقترب وقد رسمت على ثغري شبح ابتسامة، يباغتني قائلاً:

_أسدي إلي معروفاً، معطفي معلقاً هناك أعطني إياه.

أجلب معطفه البالي على الفور وأنا أؤكد في قرارة نفسي الإعراض عن فكرة طلبي النقود من دانيال، فمثله في حالة يرثى لها بالتأكيد هو في حاجة ماسة للنقود، أناوله المعطف واستدير على الفور، يستوقفني صوته قائلاً برجاء:

_ أرجوا أن تقبلي مني هذا المبلغ المالي، وأرجوا أن تقبلي طلبي بمكوثكِ في منزلي، وتأكدي بأنني لن أبقى في المنزل فأنا لدي عيادة مغلقة و مأهولة لتكن مسكن أيضاً.

أذهل مما سمعت! أستدير لأراه، فأجد يده ممتدة إلي بمبلغ مالي هائل لم أحمل بيدي مثله قبل الآن، من أين له هذا المبلغ؟ اقترب منه على عجلّ، وأنا أسأله عن مصدر المبلغ، ليدهشني ببعض الرتوش عن حياته المادية الفارهة!، ومؤهلاته الدراسية العالية، ألقي سؤالي بدهشة مريبة:

_إذاً ما سر عملك في الكافيه ؟ ولما يعمل رجلٌ مثلك مجرد نادل بينما هو طبيب جراح لديه عيادة مغلقة وحالته المادية تؤهله لفتح مستشفى باسمه ؟

غاب في غياهب الصمت، ولم ينبس ببنت شفة، الفضول تملكني لمعرفة غموض هذا الرجل، بعد مدة طويلة مملة أقطع رحلة صمته وأنا أشكر لطفه ومساعدته لي، بالطبع لن أرفض اقتراض المبلغ منه، وأخبره بإقامتي حالياً في منزل إدوارد كما وعدته، أصر على صمته وقد أمتقع وجهه، أتناول المبلغ من يديه و استأذن للخروج، يستوقفني صوته قائلاً:

_إن إحتجتي أيّ شيء أخبريني فحسب، سأكون حاضراً، إياكِ التردد.

أومئ موافقةً لكن الكلمات تأبى أن تخرج من فمي، يدلي لي برقم هاتفه، أثبته في قائمة الأسماء لدي، وأنا أرجوا الإله في سري ألا يحوجني لاستخدامه، لا أعلم ما السبب؟! يطلب رقم هاتفي المحمول يأبى الخروج من قاع ذاكرتي، أدهش لقد نسيته تماماً، أعلم أن تلك رسالة واضحة من الإله لكي أبتعد عن هذا الرجل، أحاول تدارك الموضوع مبررة بعجزي عن تذكره، وليس لدي رصيد لأرن له، قد غدت كذبتي واضحة، يصيبني الإحراج، بينما هو قد أمتقع وجهه، لا أبالي أتدارك الموقف على عجلّ أشكره على لطفه ومساعدته لي مرة أخرى واعدة إياه بإعادتي المبلغ له في أقرب فرصة ممكنة.

أتناول وجبة سريعة في كافيه المستشفى، وجبة هامبرغر وسلطة وزجاجة مياه غازية، أنتهي بسرعة فائقة، ثم أخرج سيراً على الأقدام وصولاً إلى المول القريب من المستشفى أشتري ثياباً جديدة وأحذية للخروج مع معطف يناسبهم، والحاجيات الأساسية الداخلية، وثياباً مريحة للنوم، مجفف للشعر وربطات مناسبة لحزم شعري المتناثر بها، القليل من أدوات التجميل الأساسية رغم قلة استعمالي لهن، أعود للأسفل بالدرج الكهربائي أشتري بعض الخضار والفواكه واللحوم الطازجة، أذهب إلى منزل إدوارد بعد أن أدلى لي بمفتاحه، شقة واسعة، مكونة من ثلاث حجرات للنوم منظمين بجانب بعضهم البعض، واحدة منهم مستخدمة بالأكيد لإدوارد تعم بالفوضى والعشوائية والأوساخ بحاجة للتنظيف المطول، والترتيب بجهدٍ مكثف، والأخرى حجرة تتكون من سريرين أحدهم لفتاة والآخر لولد، مليئة بالألعاب المرتبة في مكتبة جانبية، والحجرة الثالثة، مكونة من أثاث للنوم يبدو جديداً لم يستعمله أحد، بالطبع أنا أعلم أن زوجة

إدوارد هجرته بصحبة طفليها، المطبخ يعم بفوضة كارثية، والحمام كذلك، أما بالنسبة لصالة الجلوس قد قلبت رأساً على عقب، يبدو بأن إدوارد في حالة نفسية يرثى لها، هممت بترتيب المنزل بأسره بهمة عالية إلا حجرة إدوارد، اخترت الحجرة الثالثة لأقيم بها رتبت حاجاتي الجديدة، وبعد جهدٍ مطول انتهيت حين أسدل الليل ستائره، حضرت وجبة مكونة من النقانق المقلية يصحبها طبق من سلطة الخضار التي أعشقها، تناولت الأكل بشراهة لم أعهدها، انهيت طعامي، ذهبت إلى حجرة نومي التي اخترتها، أطفأت الأنوار وانسليت تحت الأغطية، وبسرعة فائقة غططت في نومٍ عميق ومريح لم أعهده منذ زمن.

.....<<>>.....

كنت أمتلك جرأة تذهلني، لا أهاب شيئاً، لا أخشى الولوج في منتصف العاصفة، ولا يهمني نيران صاعقة، كنت شجاعاً لا أتردد المغامرة في قاربٍ مخروم، ولا العوم وسط بحرٍ هائج وأنا مليئاً بالقيود، لم يهمني يوماً ما استهلكت من نفسي وعمري، لم أكن أخشى الخسارة فقد اعتدت عليها، رغم أنني أعلم أن جرأتي كسيفٍ ذو حدين، سأتلقى آلامه مؤخراً وأنا مليئاً بالجروح الغائرة والدماء المتنافرة

لقد أمضيت حياتي كلها بدون علاقات وطيدة، كانت أقواها علاقتي بجورج ذاك الطفل البدين طويل القامة، عريض المنكبين أبيض اللون، تعلو وجنتاه بقع بنية تسمى (بالنمش) وحمرة كثيفة تجعلهما كقضمتين من التفاح الأحمر، ذاك الطفل الذي شاركني ميتم الطفولة بسريره ومأكله وكوب شرابه وأحزانه وآلامه كان خير سندٍ لي كان الأقوى بلا منازع، وكان الجدار الصلب الذي أحتمي خلفه دائماً، زرع في جوفي أجمل الذكريات وأسعدها، تلك الذكريات التي سحقت براعمها تحت قدمي، رغم جهده بإنقاذي من نفسي إلا أنني تعمدت الجحود بوجوده بجانبي، لأمضي حياتي وحيداً بصحبة الخيبة أدندن لها، وأنا أفك ضفائر الظلمة، و أمشط خصلات الوحدة المعقدة

لن أخوض تجارب على الهامش بعد الآن، لذلك يجب عليّ العودة إلى صلب النص، وقواعدي الثابتة أولاً قبل تمزيق صفحة الأمل بالحياة من كتابي الذي أصابه الاهتراء، وقبل أن أمضي حياتي بأسرها بانهيار يتلوه انهيار وأبقى تحت ركامه أنتظر أحدهم الذي لن يأتي لإنقاذي، وإن يكن لابد من الموت فلن أموت جباناً....

لذا سأفعل كما كان يوصيني جورج دائماً:

_ أن تكن محاطاً بأشخاص يحبونك ستنجو لا محال، فالقوة مهما بلغت تلتهمها جدران الوحدة الصماء إلى أن تصبح هشاً لا تقوى على المقاومة، كن عاقلاً.

هاتفت جورج فأتاني مهرولاً على وجه السرعة، يبقى كما هو لم ولن يخيّب ظني به، خرجت برفقته إلى منزلي بعد أن أطمئن على وضعي من الأطباء، وبات في تلك الليلة في منزلي، رويت لها تفاصيل ما حدث لي في فترة غيابه، وحدثته عن صديقي الجديد السيد ابانوب وما حدث في منزله، لم أغفل عن تفصيل تافه، وهو يرمقني بنظرات مختلفة منها المبهمة والمدهوشة والممتعضة والآسفة والحزينة لما ألت إليه حالي، عانقني على حين غفلة مني وأنا أشهق أنفاسي وأكفكف سيل دموعي، استرسلت في نحيبي حتى أفرغت ما بجوفي.

.....<<>>.....

آلمتني حالة دانيال النفسية المتأزمة، لم أتغيب عن ذكراه لمدة ثانية، لكن كان يجب عليه أن يفتقد نعمة اهتمامي به ليشعر بها، بعض الأشخاص لا يدركون قيمة النعم حتى فقدانها، وهذا ما حصل لدانيال، أدرك قيمتي عندما افتقدني، لا أعلم كيف لي أن أحثه على العلاج؟ وكيف ابتدأ الموضوع معه؟ لكنني سأبقى أجاهد حتى أنقذه من طريقه الوعر الشائك، باغته قائلاً:

_ ترعرعنا منذ الطفولة تحت سقفٍ واحد، قضينا أجمل الأوقات رغم سوئها، رغم الظلم الذي تعرضنا له من هذا العالم الأحمق، رغم الندوب التي لا يمحى

أثرها، رغم النتوءات النفسية الشاهقة التي نصارعها إلى الآن رغبةً بالبقاء، رغم كل ذلك ألا أن لأيام الطفولة مذاقٌ فريد وطاقة تحمل عجيبة

رد بحنق يحاول كبحه:

_أنها استهلكت طاقة صبرنا بكاملها يا جورج (زفر بحدة وهو في شرود تام ثم أكمل قائلاً:) انظر من حدة قسوتها وصلنا لسن الثلاثين من العمر شرسين كوحش كاسر، تكاد أن تُطمس ملامح الإنسان التي لدينا يا جورج ونظهر على هيئة الوحش الذي في جوفنا

أجبته بهدوء شديد:

_هذا صحيح لكن ما يجب علينا فعله؟!، هل نعاقب سنين الطفولة؟! هل نعاقب عالم أحمق بأسره؟! قل لي ماذا نفعل؟!.

_ننهي حياتنا بأيدينا، ونموت كالشجعان ،نسبقها قبل أن تتمكن منا وتتلذذ بالانتصار، لا أعلم لما هذا الكفاح الشرس من أجل البقاء؟!

هذا ما قاله دانيال فجعلني أفزع، هذا ما كنت أخشاه... أن يفكر دانيال بالانتحار يوماً! انطلقت الكلمات من حنجرتي كالسهام الملتهبة بنيران الغضب:

_ويحك يا دانيال، تقصد الانتحار، (تنبهت لطريقة كلامي، أكملت بهدوءٍ مصطنع، رغم الارتجاف الذي دب في أوصالي:)هكذا يموت الجبناء يا صاحبي، أن كنت تبحث عن الشجاعة ستجدها في وجه كهلٍ بعثرت السنين ملامحه، وأحنت صفعاتها استقامة ظهره ولا زال يضحك (أكملت بنبرة رجاء:) أرجوك دانيال أنت صديقي الوحيد وعائلتي الوحيدة كن بخير لأجلي، دعني أساعدك، دعني أسدي إليك معروفك بكونك صديقي وعائلتي، دعني أسدي معروفك بافتتاحك عيادتي وشراء منزلي الذي دفعت ثمنه، دعني أرد قليلاً من كل شيء جميل صنعته لي.

باغتني قائلاً:

_أقبل العلاج، لكن سيبقى الأمر سراً بيننا، ومهما حصل ستبقى الأذن الصاغية لي، و ستصدقني مهما كان ما أقوله غريباً أأنت موافق.

أومئ برأسي كثيراَ وقد تهللت أسارير وجهي وأنا أردد:

_لكَ ذلك... لكَ ذلك....

.....<<>>.....

أذهب للاطمئنان على إدوارد أسأله عن حال ماري، ينكر معرفته بحالها ومكانها، أجهل سبب أنكاره، أخبره بأن ماري أخبرتني بأنها ستقيم في منزله حالياً، ينكر بحنقٍ شديد جعلني أكثر فضولاً لمعرفة السبب، أخرج من حجرته قاصداً حجرة بيتر، أخبرني بيتر عن موقع منزل إدوارد دون سؤالي عنه، خرجت بعد أن أديت زيارة قصيرة، متوجهاً لجلب بعض الحاجيات قبل أن أقصد منزل إدوارد.

.....<<>>.....

دائماً ما ينسيني هذا الكوب المليء بالقهوة همومي كأن به فيروس على شكل حبة بُن خواصه كالزهايمر، أشعر أنه يجعلني أتلذذ بفقدان الذاكرة بصحبته، دقائق معدودة أغوص بها في أعماق السعادة، ما أجمل أن تكون بسيطاً قنوعاً يسعدك كوب قهوة ساخن، ربما طريقة فلسفية للتفكير بكوب قهوة، لكنه بالنسبة لي شيء يشبه المخدر المؤقت، وأهم شيء في الصباح تحديداً...

يفرغ كوب قهوتي، أرتشف آخر قطرة سائلة منه دون الوصول إلى طحل قاعه، أعود للواقع من جديد..

يجب أن أجد عمل في أسرع وقت ممكن (هذا ما حدثت نفسي به)

أتناول شطيرة جبن قد أعددتها بسرعة، آأخذ حمام دافئ سريع، أجفف شعري، أرتدي ملابس الخروج، قاصدة البحث عن عمل مناسب، يطرق باب المنزل فجأة، أجفل من عله يأتي الآن، وكيف سأبرر سبب إقامتي في منزل إدوارد أن كانت زوجته هي الطارق، أنسل ببطئ نحو باب المنزل أسترق النظر من فتحة عينه الساحرة لأجد دانيال، أفتح الباب وقد ارتسمت بسمة ملئ شدقي لا إرادية، لأجد دانيال في أبهى حلة أدهشتني، يرتدي ثياباً جديدة و أظنها من أفخم الماركات العالمية، تفوح منه رائحة عطرة قد عبقت في الأرجاء، يحمل بين يديه باقة من الورود الحمراء، وبعض الحاجيات المنزلية، يستأذن للدخول فأذن له، يناولني الحاجيات وأنا أشكره، يجيبني بابتسامة تعني على الرحب والسعة، أحمل الحاجيات إلى المطبخ...

_يبدو بأنكِ ستخرجين. (يسأل)

_تخمين جيد، أود البحث عن عمل.(أجيبه وأنا أحضر كوبين من القهوة الساخنة كما طلب)

_ما العمل الذي تجيدين فعله غير نادلة؟.

_أظن أنني لا أجيد شيئاً غيرها، (أجيبه وأنا أضحك، يخطر في بالي فكرة أطرحها على مسامعه فوراً:) ما رأيك أن أعمل في عيادتك سكرتيرة؟ وأقيم بها؟! ألا تراها فكرة صائبة؟.

أعود إليه حيث يجلس في صالة الجلوس التي من ضمن المطبخ المطل عليها، أنظر إليه و أنا أتفرس ملامحه، لا ينبس ببنت شفة، سوى أنه يومئ كثيراً شارداً وكأنه يفكر، أعيد طرح سؤالي وأنا أنتظر منه إجابة، لا فائدة، يغير مسار الحديث يحكم عيناه بعينيّ قائلاً:

_ذهبت إلى المستشفى صباح اليوم...

_كيف حال إدوارد وبيتر؟. (اسأله على عجلّ)

_بأفضل حال. (يجيب مع إيماءة قصيرة)

يسود الصمت، أنظر إليه فأجده يتأملني، أشعر بالإحراج، يباغت عقلي سؤال فأطلق سراحه فوراً:

_حدثني القليل عن ماريتا؟.

ينظر لي بدهشة، وكأنه لم يتوقع مني السؤال هذا!، يغير مسار الحديث مرةً أخرى بلهجة أكثر حدة جعلتني أشعر وكأنني في تحقيق:

_أتعلمين لم يشأ إدوارد إبلاغي عن إقامتكِ في منزله، رغم أنني أخبرته بأنني أعلم!، هل هناك علاقة خفية تربطكِ به؟ أشعر بأنه يكن لك المزيد من مشاعر الحب والود. (يقول وهو يرمقني بنظرات مبهمة، ثم يصمت وهو يتربص بشفتي منتظراً الإجابة)

أجيبه بسرعة فائقة أنكر استنتاجه ببسمة استهزاء:

_من إدوارد!؛ لا يبدو بأنك مخطئ، هو رجل متزوج رغم هجران زوجته كارمن له بصحبة طفليه ألا أنه لا زال ينتظرهم، ثم أن كارمن صديقة لي بل هي صديقتي الوحيدة، رغم أنني أجهل سبب هجرانها لي أيضاً في الأونة الأخيرة دون سبب يذكر، لكنني لازلت أقنع نفسي ربما كيّ لا أشيّ بمكانها لإدوارد الذي تربطني به صداقة حديثة العهد ليس إلا.

اقترب مني كثيراً، أحكم عيناه اللامعة بعيناي، حتى أنني أشعر بحرارة أنفاسه، قال بصوت واثق:

_أسمحي لي بقول هذا، أنتِ مخطئة بما تحاولي إقناع نفسكِ به، كل شيء في إدوارد يشي بحبه لكِ!.

أجفل!، أبتعد عنه، أقف وأنا أحاول كف سرده عن هذه الاستنتاجات والتحاليل التي لا وجود لها لكنه يصر، كاد أن يتحول الجدال لشجار طاحن لكنه قطعه

بصمت مطبق تصحبه بسمة مغتصبة زرعها على شفتيه، يرتشف كوب قهوته بسرعة، ويهم بالرحيل، يباغتني قائلاً:

_يمكنكِ المكوث في عيادتي متى شئتِ، فكما أخبرتكِ مسبقاً هي مؤهلة للسكن، وإن شئتِ المكوث في منزلي وهو الحل الأفضل سأمكث في عيادتي، القرار يعود لكِ، وأنا على الرحب والسعة بما تقررين، وبالنسبة للعمل سأجد لكِ عمل في أسرع وقت ممكن، وربما في عيادة طبيب نفسي صديق لي.

أجيبه بإيماءة مكررة تصحبها بسمة شكر وامتنان، يفتح الباب ويهم بالمغادرة، يتوقف قليلاً وكأنه يفكر بشيءٍ ما، يلتفت إلي ويباغتني بسؤاله على عجل:

_هل لي أن أدعوكِ على الغداء؟!.

_بكل سرور (أجيبه بسرعة مباغتة لم أتوقعها من نفسي)

أغلق باب المنزل خلفه، بعد أن اتفقنا على موعد ومكان اللقاء، هذا الرجل مليء بالغموض والتناقضات التي تحثني على استكشافه أكثر، أخلع ثياب الخروج، وأرتدي ثياب مريحة أكثر، أقرر ترتيب حجرة إدوارد، أدخل إليها أزفر بضيق لا أعلم من أين سأبدأ؟ لكنني سأرتبها، أبدأ بترتيب الأشياء المتناثرة أرضاً ثياب تعم أرجاء الحجرة مرمية أرضاً هنا وهناك، أجد المزيد من الصور لكارمن والأطفال ملقاة أرضاً، والبعض منها قد مزق بنوبة غضب على ما يبدو لأشلاء وقطع صغيرة الحجم، أنهي ترتيب الأشياء في مكانها بعد جهدٍ جهيد، أبدأ بإزالة ملاءة السرير لتبديلها، وإذا بي أجفل لما رأيته تحت وسادة إدوارد، ذاك الشيء الذي جعلني أحزم أشيائي وأغادر المنزل بعد حدوث جلبة هائلة بأقصى سرعة.

_أشعر بسعادة أجهل سببها.

_جيد جداً، لكن بالتأكيد هناك سبب، أين ذهبت صباح اليوم وتركتني غارقاً في نومٍ عميق أخرني عن عملي!.

_ذهبت للاطمئنان على إدوارد وبيتر في المستشفى.

_فقط !؟. (سألني وهو يرمقني بنظرات مبهمة تصحبها بسمة مجهولة الملامح)

_نعم فقط. (أنكر ذهابي إلى ماري)

_ألم تذهب إلى ماري؟! (باغتني بما أخفيته)

أطلقت ضحكة أواري خلفها إحراجي من الكذبة التي تعمدها قلبي وأمام من؟! أمام جورج الذي لا تغفل عنه غافلة بشأني، أومئ إيماءة سريعة...

_أتشعر بالسعادة معها؟ (باغتني بسؤال توقعته)

_لا أعلم بما أشعر؟ جل ما أعلمه أنني أشعر بالراحة كثيراً في صحبتها، بل أشعر أنني أستعيد نفسي بجانبها، بينما نار تتأجج داخلي خوفاً من فقدانها.

_أتدري منذ رحيل ماريتا للمرة الأولى أشعر بالسعادة تنضح من جوف عينيك وتغرق ملامحك.

أتناول مرآة صغيرة موضوعة على سطح مكتبه، أنظر فيها إلى وجهي، نعم عينيّ تبرقان بشكلٍ غريب، يغمغم ويضيف بجدية مصطنعة:

_هيا فلترحل لدي عمل ومرضى ينتظرون في صالة الانتظار.

أومئ مودعاً إياه، يباغتني قائلاً:

_إياك أن تنسى دوائك.

_بالتأكيد لن أنساه أيها الطبيب المشكوك بمهارته. (أطلق ضحكة سخرية مفتعلة إغاظةً له)

نعم أنا أتناول دوائه بانتظام هذه المرة كما وعدته، الغريب أنني أشعر براحة عجيبة تسكب في جوفي وتنعكس علاماتها على ملامح وجهي المتبدلة كلياً، هل يعقل أن دوائه السبب أم ظهور ماري المفاجئ في حياتي التي أشرقت حينها، أعد إلى المنزل، أبدل ثيابي، أدور في أرجائه، أنظر إلى الساعة بين الفينة والأخرى، أتذمر الوقت يمضي ببطئ مميت...

يرن هاتفي المحمول رقم مجهول أرد، أجد أن المتصل السيد ابانوب، أطمئن عن حالي ثم طلب مني زيارته، فهو طريح الفراش وبحاجة للمساعدة، لم أتردد للحظة، لدرجة أنني نسيت البحث عن الرقم الذي أتصل منه، كما أنني نسيت الموعد، بدلت ملابسي سريعاً وذهبت إليه، دخلت البوابة الحديدية التي أصابها الاهتراء فجأة، لم تكن كذلك في المرة الماضية، أدهش الزهور التي كانت تملأ السياج في المرة الماضية قد أضحت يباس، الغربان تملئ البحيرة التي جف ماؤها، تصدر أصواتاً جعلت قلبي يقفز من مكانه عدة مرات فزعاً، هرولت سريعاً نحو البوابة الداخلية للقصر، قبل أن أطرق البوابة يفتح الباب على مصراعيه يستقبلني السيد ابانوب بوجهه البشوش وضحكته المعتادة، أجفل كيف علم بوصولي، لا أعلم لماذا لم أعد أشعر بالراحة عند لقائه؟ أدخل إلى منزله شيء ما في جوفي لا يشئ دخولي، أقف محاولاً استعادة رباطة جأشي، أشعر بفزع يحكم كفيه حول عنقي بشدة، استرق أنفاسي بجهد جعل لأنفاسي صوتاً مسموعاً، يكرر السيد ابانوب طلبه بدخولي إلى صالة الجلوس، أشهق نفساً طويلاً ثم أزفر بحدة، يبتسم لي ابتسامة لم تكن مريحة البتة، بل جعلت قلبي يرتجف بعنف، أومئ برأسي مبتسماً له رغماً عني، لا أعلم لماذا أرغب بالرحيل السريع؟ بل بالهروب والاختفاء عن ناظريه بسرعة، يرمقني بنظرات خبيثة لا أعلم ماهيتها، يكرر طلبه بدخولي، أومئ له من جديد، وكأنني لا أتقن شيء في هذا العالم سوى أن أومئ، أدخل في ما بعد على مضض، أشعر بطرقات قلبي كيف تدق بأقصى سرعتها على جدران قفصي الصدري وكأنها تشاء تحطيمه، يدعوني للجلوس على تلك الكنبة القرمزية، يباغتني بسؤاله الأول:

_كيف حال عملك الجديد؟؟.

_قد شب حريقٌ هائل مفاجئ ألتهم الكافيه عن آخرها (وأنا متفاجئ من سؤاله الأول، كان يجب أن يسألني عن حالي أولاً، أردف يسأل وقد أعتلى قسمات وجهه دهشة متأكد أنها مصطنعة:)

_حريق !! ما سببه؟؟؟

_لا أعلم!، جلّ ما أذكره أن ماري كانت تعانقني، شبت النار فجأة، وكأنها خلقت من صلب اللاشيء، ثم يدٌ خفية خلعت ماري من بين ذراعي ورمتها بعيداً عني خارج الكافيه.

باغتني قائلاً وهو يغمغم:

_هي من فعلتها، فهي تغار كثيراً، وتحبها كثيراً منذ بادئ عهدها.

_من تقصد؟ (سألته بدهشة)

ران علينا صمتٌ مطبق، لا يخلو من النظرات المبهمة، وكأن أعيننا تطلق آلاف الأسئلة باحثةً عن الحقيقة في بحر الريبة...

_سأعُد كوباً من الشاي الأخضر، هل أعد لك واحداً؟. (قطع الصمت بنبرة تشوبها الريبة)

أومئ، يتركني مغلفاً بآلاف الأسئلة التي خلفتها إجابته المبهمة، وما يدهشني أنه بأفضل حال وليس مريضاً كما أدعى.

.....<<>>.....

هاتفت دانيال كثيراً لكن هاتفه مغلق، ولا أعلم ما عليّ فعله أتجول في الشوارع العتيقة تحت الأمطار الغزيرة، أحمل أمتعتي التي ابتلت وصندوقي الخشبي، أجلس تارة أستريح ثم أكمل الهرولة تارة أخرى وأنا لا أكف عن محاولة الاتصال بدانيال، يبدو أن علي الانتظار حتى وقت الموعد للقائه، أتوجه نحو المكان المتفق

عليه للقاء، أتناول فنجاناً من القهوة، بعد مضي وقت طويل من الانتظار والهروب من النظرات التي تشيعني أطلب واحداً آخر واثنان وثلاثة ثم كوب عصير و كوبان وثلاثة، الوقت يمضي ببطئ مميت، أشعر بتعب شديد يكاد أن يطرحني أرضاً، أحاول مهاتفته كثيراً لا جدوى، أقرر سأنتظر حتى وقت الموعد المحدد أن تأخر خمس دقائق عنه سأذهب للبحث عن فندق للمكوث فيه، أزفر بضيق لحالي، مشردة لا عائلة تحتويني، ولا أحد يسأل عن حالي، حتى صديقتي الوحيدة قد خسرتها اليوم للأبد دون ذنب يذكر.

.....<<>>.....

تأخر السيد ابانوب، أمسكت صحيفة مرمية على الطاولة بجانبي تصفحتها، وإذا بطفلة صغيرة شقراء تحملق بي بعيناها اللتين لم أتبين لونهما جيداً ترتدي فستاناً وردي وحذاءً أبيض، تبتسم لي ثم تركض بمرح تحمل بين يديها دمية صغيرة الحجم شكلها مفزع قد كتب على وجهها بالحبر أشياء غريبة بينما جسدها قد غرز به دبابيس عديدة، ثم تتبعها فتاةٌ أخرى تشبهها وكأنهما توأم تضحك الأخرى بصوتٍ يضج في أرجاء المنزل، أجفل، أغمض عيناي ثم افتحهما من جديد، تعود بي الذكرى إلى ذاك اليوم الذي كانت به زيارتي الأولى لهذا المنزل، ثم أذكر كلام جورج على الفور (أن هذه الأمور مجرد أوهام لا أكثر) لكنني رغم أنني مغمض عيناي لازلت أسمع أصواتهم تعلو بمرح، أشعر بأقدامهم تدق الأرض وهم يركضون، أفتح عيناي من جديد، لا أجدهم تجول عيناي مهرولةً في المكان تبحث عنهم لا أثر لهم، يبدو بأنني أتوهم بحق، أقف لأتبع السيد ابانوب حيث يوجد، وإذ دمية صغيرة تقع عند قدمي، أحملها بكفي، ثعبان الخوف يبث سمه في أنحاء جسدي، أكاد أجن!، أرغب بالصراخ والهروب من هذا المكان على الفور، إنها تلك الدمية التي كانت تحملها الفتاة منذ قليل، أسمع وقع خطوات السيد ابانوب لا أعلم لما أخفي الدمية على الفور في جيب معطفي؟، ثم أزرع البسمة على شفاهي وأنبت براعمها على ملامحي عنوة، أظن أن قلبي يعمل على فتح ممر من موقعه إلى صدري ليفر هارباً...

_ما بك؟!!. (سألني بحدة)

_لا شيء!. (اجيبه والكلمات تحشرجت في حلقي)

ناولني كوب الشاي الأخضر ثم جلس يرمقني بنظرات مبهمة، وضعت الكوب على الطاولة واستأذنت للرحيل، لا أعلم كيف عمّ الضباب فجأة في المكان؟، وعصفت الرياح الهوجاء بأركانه حتى كادت تقتلعني من مكاني وتحلق بي إلى عنان السماء، تتطاير الأشياء من حولي وترتطم بالسقف وتتحطم، أنظر إلى السيد ابانوب فأجد عيناه تحولت لكتلة نار، أجلس أرضاً و أتكور على نفسي كجنين في بطن أمه، أغمض عيناي وأصرخ من أعماقي...

أفتح عيناي من جديد فأجد نفسي في منزلٍ مهجور منذ عقودٍ مضت، لكانت احتلته الظلمة الحالكة لولا ضوء بسيط تسلل من خلف الستائر المهترئة، تآكلت جدرانه على مر السنين تعلوها شباك العنكبوت المعقدة، أثاث محطم وكأن العاصفة حدثت بالفعل فدمرت أركانه، أقف أنظر حولي ، ترهقني التفاصيل وتعصف بأركاني، أبحث في الأرجاء عن السيد ابانوب وأنا أردد اسمه بأعلى صوت لكن لا مجيب، أهرول أبحث عن طريق الخروج، أجد نفسي في الطابق العلوي دون أن أصعد أدراجه بممر الحجرات المقسمة جميعها مغلق ماعدا ذات الحجرة التي كتب على بابها هذه المرة بالدماء أسم ((جو))، استرق النظر إلى داخلها فأجد الطفل مفصول الرأس عن الجسد، بجانبه امرأة في عقدها الثالث من العمر على ما أعتقد مفصولة الرأس عن الجسد قد أخرج قلبها من صدرها الذي كتب عليه بالدماء أشياء بلغة غير مفهومة ذات اللغة التي أراها دائماً، لغة مبهمة لا أعلم معنى لها، ربما حروف مبعثرة وربما جملة كاملة، شعرها قد قص وملئ أرجاء الحجرة، مبخرة وقصائص من الورق ملئت بذات اللغة، بجانبها جثة ذلك الشبح الذي أجفلني في زيارتي الماضية لهذه الحجرة، مقسم الأعضاء كل عضوٍ على حدى، أصوات صراخ وبكاء أطفال أظنه صوت إناث، أتيبس من هول المشهد، تعلو الأصوات من جديد وتهز أرجاء المنزل فتبدأ جدرانه المتهالكة بالسقوط شيئاً فشيء، أهرول وأنا أصرخ لأخرج فأجد نفسي عند بوابته الحديدية المهترئة دون أن أمر بالصالة التي في المدخل أو الباب الداخلي للقصر، أركض بأقصى سرعة لدي دون وجهة حتى أسقط أرضاً مغشي علي...؛

عند الشاطئ وقت الغروب، أجد نفسي منكباً على وجهي، وعلى بعد عدة أمتار تقف سيارتي بشموخ، أقف أنظر حولي لا يوجد أحد سوى أنا، ما الذي أتي بي إلى هنا؟! أنفض الرمال عن معطفي وسائر ثيابي، وعقلي يستعيد ذكرى ضبابية عن ما حصل صباح اليوم، ولازالت عشرات الأسئلة المبهمة تحتله، ما الذي حصل؟!! وما الذي يحصل لي؟!! وهل ما أذكره قد حصل فعلاً؟!! أركب سيارتي وأتوجه نحو عيادة جورج...

أصل بعد عشرون دقيقة، العيادة مزدحمة بعشرات المرضى ومرافقيهم، أجلس أحاول الانتظار، أحاول التحكم بأعصابي المشدودة، واستعادة رباطة جأشي، أزفر الهواء المختنق في صدري، أشعر بالدوار في رأسي، أحاول الثبات، أحكم قبضتيّ حول رأسي، ولا أعلم كيف سقطت أرضاً! لازلت أشعر بحركة من حولي وأسمع صدى أصواتهم لكنني لا أستطيع الحراك، إلى أن أغشى عليّ تماماً.

.....<<>>.....

انتظرته كثيراً لكنه لم يأتي، تناولت وجبة العشاء وحملت حاجاتي وصندوقي الخشبي من جديد وذهبت، أشعر بجسدي منهكاً، يلفت انتباهي فندق راقي جداً قريب من المكان، كان أمراً لطيفاً أن أتمكن من الوصول إليه سيراً على الأقدام، أتوجه نحوه، أدخل البهو الواسع الذي تعلوه قبة كأنها السماء مزخرفة بحجارة الكريستال اللامع، وأنا أجر جسدي المتهالك من فرط الارهاق على أرضه الرخامية اللامعة، أطلب حجرة ،ينظر إلي موظف الاستقبال الوسيم بريبة من رأسي إلى أخمص قدمي، يكور شفتيه قليلاً، ثم يبحث في الدفتر الذي أمامه لا أعلم عن ماذا؟!! وهو يلوح بقلمه الذي بين أصابعه، بعد برهة من الوقت ينظر إلي من جديد يبتسم ببلاهة في وجهي قائلاً:

_يوجد حجرة شاغرة سيدتي، لكن أود أعلامكِ الإقامة في هذا الفندق غالية الثمن، (أردف ممتعضاً يقيّمني بعينيه من رأسي إلى أخمص قدمي بنظرات متفحصة:) وكما يبدو لي لستِ بحمل مصاريفه!.

ويدلي لي بثمن الليلة الواحدة، أومئ موافقة، أدفع له أجرة ليلة واحدة فلا طاقة لدي للبحث عن فندق آخر، وربما ألتقي دانيال غداً وتحل مشكلتي، ينظر للنقود بدهشة ثم ينظر نحوي ببلاهة بينما شفتيه تتقوس، أنظر إليه بحدة جعلته يعتدل بنظراته ويبدي لي قليلاً من الاحترام، يدلي لي استمارة لملئها، أملأها بسرعة، يعطيني المفتاح وهو يدلي لي برقم حجرتي (٢٤٢) أشكره، يقترب أحدهم يحمل حاجياتي وصندوقي الخشبي ويسير أمامي، يقرع جرس المصعد يبتسم في وجهي الموظف ثم يقول:

_تفضلي سيدتي قد وصلنا.

أفتح قفل الباب وأدخل، حجرة واسعة يوجد بها سرير ملكي شاسع يبدو مريح جداً، حوافه بنية اللون، وظهره من الجلد الذي تزينه حجارة ماسية لامعة، تعلوه حواف ذهبية مزخرفة، دولاب للملابس بني اللون من ضمن الجدار، شاشة عريضة حديثة الطراز ملئت الجدار، كنب جلدية بنية اللون وضعت جانباً تتوسطهم طاولة دائرية من الزجاج غلفت بمفرش مزخرف عاجي اللون، وزهرية تملئها باقة من الورود بلون اللؤلؤ، بجانبها طبق فواكه كبير ملئ بأنواع الفواكه الفاخرة، ستائر تتدلى من ارتفاع يصل السقف بالأرضية وضعت على النوافذ المطلة على المدينة بأسرها من هذا العلو الشاهق، ثريّات من الكريستال تسطع بأنوارها، حمام واسع يوجد به مغطس عميق أخفيَّ خلف الستائر الشفافة، مغسلة رخامية جانبية تعلوها مرآة كبيرة تحفها الأنوار من جميع جوانبها، تشعر كأنه قصر حول لمجرد حجرة في فندق، أشعر بنفسي وكأنني أميرة ألف ليلة وليلة، أعطي للموظف بضع نقود معدنية لا تتناسب مع فخامة المكان لكنه رغم ذلك يبتسم لي مرة أخرى شاكراً ويرحل، أخلع معطفي وحذائي ووشاحي وأرميهم على الأرض بفوضوية، أشغل الشاشة لتسطع بألوانها الصافية، وصوتها الذي يضج بأغنية جديدة لمطربي المفضل، أرقص فرحاً وأنا أتجول في أرجاء الحجرة كالأميرات، آخذ حماماً ساخناً طويل جداً وأنا أغني بمرح مع الشخص الذي يعلو صوته من الشاشة التي لازالت مشغلة، أنهي حمامي الطويل، أرتدي ثياب مريحة، أغسل أسناني، أغذي بشرة وجهي التي أصابها الجفاف بمزيدٍ من المرطبات، أستلقي على السرير وأنا أقضم تفاحة حمراء، أقلب بين

المحطات التي أراها للمرة الأولى، يطرق باب حجرتي، أنه الموظف الذي أتي بوجبة عشاء فاخرة المخصصة للزبائن الفاخرين أمثالي، لا يعلمون أنني أنعم بليلتي الأولى كبشرية على الأقل، أتناول وجبة العشاء المكونة من دجاجة محشوة بالأرز بجانبها صلصة غريبة رائعة المذاق، كوب من العصير الفاخر لا أعلم أسمه أيضاً لكنه لذيذ جداً، وجبات بأطباق صغيرة متفرقة لا أعلم لهم أسماء أيضاً لكنهم رائعو المذاق، أأكل بشراهة غير معتادة، أنتهي من وجبتي بعد وقتٍ من التلذذ بها، أصاب بالتخمة لا بأس بشعور كهذا لليلة واحدة، كشعور الملوك الذين لا يعلمون عن جوع رعيتهم شيئاً، يملئون بطونهم بكل ما لذ وطاب، غير أبهين بمن ينام على قارعة الطريق ولا يجد ما يسد به رمقه على الأقل، لا يهم، المهم الآن أن أستمتع باللحظة، أستلقي على السرير، ثم أجلس مقعدي فالاستلقاء كاد أن يقطع أنفاسي بصحبة التخمة التي لم تترك مكاناً للأوكسجين، قد حل المساء، أقف على الشرفة أعبئ رئتاي بهواء منعش، من هنا منظر المدينة ساحر، أشعر و كأنني في السماء أحلق بين النجوم المتلألئة، أنها لا تشبه المدينة على الأرض، حيث الفوضى والاكتظاظ البشري ،الازدحام، هواء السيارات التي تخنق بقبضتها الأوكسجين فتحدّ من تكاثره، السرقة النهب الغلاء الهرولة خلف لقمة العيش، انتهاء عقد الإيجار والبحث عن مسكن، مصروفات الدراسة والطعام والشراب واللباس والاطفال والأطباء حياة ملؤها اللهث والتعب.... والكثير من المصائب الأخرى؛ الأغنياء لا يعيشون مثلنا، أنهم هنا حيث السماء والنجوم والهواء المنعش، لا يعلمون عن مأساتنا على الأرض شيئاً؛ أختنق لمجرد فكرة العودة للأرض، ليتني أستطيع البقاء هنا، أزفر الهواء بشدة، دمعة متمردة تلطخ وجنتي بملوحتها، أنسفها بباطن أصابعي، أنفض رأسي أفكر لما عليّ إفساد متعة اللحظة، لما لا أستمتع، أبتسم بشدة إلى أن تداهمني نوبة ضحك، أعد إلى الداخل أقلب محطات التلفاز إلى أن أجد فيلم كوميدي، أجلس على السرير بعد أن جلبت طبق الفاكهة إلى جانبي، أشاهد وأغرق بين الأحداث مستمتعة؛

فجأة يطرق باب الحجرة، أفتح أنها الموظفة المسؤولة عن تنظيف الحجرات وترتيبها، بدينة، تمتلك وجهاً بملامح طفولية، رغم أنها في عقدها الرابع كما أخبرتني، بشوشة الوجه تدعى ((جيجي الثرثارة)) هذا ما قالته وجعلني أضحك

كثيراً، وفعلاً هي ثرثارة بحق، تكلمت كثيراً عن نفسها وعن زوجها الذي هجرها وطفلها الذي أجهضته عند باب هذه الحجرة بالتحديد، ببضع دقائق روت لي تفاصيل مسيرة حياتها المملة، إلى أن وصل بي الأمر حد الملل، كدت أصرفها بوضعي لها بكفها بضع نقود، لكن ما قالته أخيراً جعلني أستمع لها بكافة حواسي:

_هذه الحجرة قد شهدت أسوأ حالة موت كانت السبب في إجهاض طفلي الذي كنت أحلم به.

_ما الذي حدث في هذه الحجرة؟ (أسألها على الفور فزعة)

_ربما هي قتل وربما انتحار هذا ما قاله الجميع، لكنني أؤكد لكِ يا سيدتي بما أنني كنت الشاهدة الأولى على رؤية جثة الفتاة أنها حالة شعوذة.

_كيف؛ ماذا تقصدين؟

_ألم تسمعي قبل الآن عن خبر وفاة عروس بطريقة شيطانية!!!!

أومئ وقد جفلت ملامحي واصطكت ببعضها أسناني من شدة الفزع، تراقب تفاعلي الشديد معها وتضيف بحماس:

_لقد وقعت الحادثة في هذه الحجرة بالتحديد. (وهي تشير بأصبعها إلى الحجرة التي أمكث بها بمرح وكأنها وجدت الكنز)

أحملق بها بشدة فزعةً، ترتبك، ثم تضيف بآسف:

_أرجوا ألا تكوني ممن يخشون الهواء في الظلمة، أعذريني أن كنت قد أزعجتكِ.

ورحلت على وجه السرعة، وتركتني خلفها مكبلة بسلاسل الخوف، عدت إلى السرير، شهقت أنفاساً عدة و زفرتها بحدة أحاول الهدوء، أصرف تفكيري عن حديث جيجي الثرثارة، لكنني لا أستطيع أشتمها، أفكر في ما حصل منذ الصباح، أذكر دانيال، أغضب لتجاهله الفظ لي، كيف له ألا يحضر على دعوة غداء هو القائم عليها، أظنه يتعمد ما يفعله عندما وجدني بحاجة ماسة له، أذهب إلى حقيبتي أبحث عن هاتفي المحمول عليّ أجد منه اعتذاراً عن عدم مجيئه، لا يوجد شيء منه، استشيط غضباً أرمي هاتفي المحمول فيرتطم بالصندوق فيصدر منه صوت غريب وكأن أحدهم يتألم، أظن أنني أتوهم، اقترب من الصندوق بخطوات ثابتة، أجفل مما أرى، قفل الصندوق قد فتح ورمي أرضاً، أطياف تتسرب من الصندوق المغلق ثم تحلق لتملئ سقف الحجرة، الصليب قد أشتعل ناراً، العبارات المنقوشة عليه تحولت لكائنات متحركة، تهرول يميناً ويساراً ثم تسقط أرضاً وهي تنزف دماً أحمر حار، يمتد إلى أرجاء أرض الحجرة، أهرول أمامه هاربةً منه وكأنه يتبعني، أجلس فوق سريري أتكور على نفسي، فجأة أجد هاتفي المحمول في يدي أكبس زر الاتصال بعبثية غير أبهة من سيكون المتصل به.

.....<<>>.....

أستيقظ أجد جورج يقف عند رأسي يرمقني بنظرات دافئة ويبتسم لي، أحاول أن أجلس من مقعدي، يطلب مني عدم الحراك، أنظر حولي أنا في عيادته أحاول تذكر ما حصل وما الذي أتى بي إلى هنا؟! لا أذكر شيئاً البتة، أسأله، فيجيبني أنه وجدني في صالة الانتظار مرمي أرضاً ولا يعلم سوى ذلك، أعصر ذاكرتي عصراً فتبدأ الأحداث بالتتالي، أزفر الهواء بضيق أكثر من مرة، بعد تكرار أسئلة جورج عما حصل، أخبره بالتفاصيل حتى المملة منها، يرمقني بنظرات لم أتبين ماهيتها ولا أعلم إن كان يصدقني أو لا، المهم الآن أنه لا يكذبني على الأقل، يقترح الذهاب إلى منزل السيد ابانوب للتأكد، يروق لي اقتراحه، هممت بالقيام للذهاب، وإذا بهاتفي المحمول يرن، أتناوله من جيب معطفي أن المتصل ماري، ألكم جبهتي وأنا أردد:

_كيف نسيت موعدي معها؟!.

أفتح الخط على عجلّ، أجدها تصرخ مذعورةً، أحاول تهدئتها لأفهم ما بها، بعد المزيد من المحاولات أيئس، أسألها عن مكانها أعيد وأكرر، ثم تدلي لي بعنوان الفندق الذي تقيم به، أذهب إليها فوراً بصحبة جورج، أجفل أنه ذات الفندق!، يرتعش جسدي من تلك الذكرى التي داهمته، أتحامل على نفسي لأثبت، أسأل عن غرفتها بالاستعلامات، يسأل الموظف عن سبب زيارتي أخبره عن مهاتفتها لي، يصعد معنا أحد موظفي الاستقبال، يُقرع جرس المصعد يعلمنا بالوصول، يشير الموظف إلى ذات الحجرة!، أشهق أنفاساً متلاحقة، يسندني جورج وهو يربت على كتفي، يَطرق الباب كثيراً لا مجيب، أطلب من موظف الاستقبال فتح الباب بالمفتاح الاحتياطي، وقبل أن يهم بفتحه تفتح الباب وتلقي نفسها عليّ، تعانقني وهي ترتجف وتحكم قبضتيها حول جسدي الهزيل، فشعريرة مؤلمة سرت في أنحاء جسدي تبعها وخز أبر ناعم، مع تقدم الثواني أصبح أكثر ألماً، حتى تمنيتُ الصراخ والابتعاد عنها فوراً، تسمر جورج في مكانه مذهولاً وهو يسألني:

_هذه ماريتا أليس كذلك؟!!!!.

أتجاهل سؤاله، أبعدها عني، وأنا أكرر سؤالي عما حصل؟! ولم يكن منها غير الارتجاف والبكاء والترديد بحنق شديد:

_القفل قد فتح لا أعلم كيف؟! أطياف ملئت سقف الحجرة، دماء تغطي المكان وتتبعني، الصليب يشتعل، صور تتراءى لي وأنا أوقد ناراً أكتب كلمات على أوراق عتيقة، أردد جمل غير مفهومة، فجأة أتحول إلى عجوز مفزعة!. (تكمل وصلة النحيب بشدة أكبر)

_أهدأي قليلاً. (أقول وأنا أعانقها وأربت على كتفها كيّ تهدئ)

أنصرف موظف الاستقبال وهو يغمغم، ربما ظنها مجنونة، أدخلتها، تبعنا جورج، أغلق باب الحجرة وتسمر في مكانه مذهولاً مما يرى!، أجلستها على

كنبة جلدية بنية اللون، حاولت تهدئتها أكثر وأنا أحتضن كفها بكفيّ، وأردد على مسمعها:

_لا تخشي شيئاً، أنا بجانبكِ.

أشعر أن كلماتي تحد من وطأة ارتعاشها، لازال جورج في مكانه يحملق بغباء، هدأت ماري أخيراً وعمَّ السكون، غابت في شرودها السرمدي، تنظر بعيناها المغلفتين بجمرتين من جمرات الجحيم عبر النوافذ الزجاجية تارة، ثم تحملق في الصندوق الخشبي تارة أخرى، حاولت فهم ما حصل معها من جديد، عادت تروي لي قصة الصندوق الخشبي من بداية وجوده إلى ما حصل في هذا اليوم!، قصة خرافية كما وصفها جورج، لكن بالنسبة لي أنا أصدقها بالتأكيد، فالكثير من الأمور التي حصلت معي كانت أشد غرابة من الذي حصل معها، ولا يقبل تصديقها عقل بشري سليم، ولو أنني فكرت قبل الآن في سرد ما حصل معي من الأمور الغريبة على مسمعها ما كانت لتصدقني، لكن الآن بالتأكيد هي باتت تؤمن بوجود الأشياء الغريبة.

_فلتحزمي أمتعتكِ (باغتها قائلاً)

حملق الأثنان بي مذهولين، نظرت إلى جورج أهتف في وجهه:

_وما تظنني بفاعل، بالتأكيد لن أتركها وحدها بعد الآن.

_لم أقل شيئاً. (رد جورج مبرراً ببلاهة)

حزمت أمتعة ماري التي عادت لوصلة نحيبها، جورج لازال ينظر ببلاهة، ضحكت من طريقة وقوفه المعتدلة، والطريقة التي يحملق بها كالأبله، باغتني بسؤال:

_أرجوك أخبرني أليست هذه ماريتا؟.

_لا بل هي ماري؛ (قلتها وأنا غارق بنوبة ضحك قصيرة، ثم أكملت بجدية:) أتصدقني الآن؟؟.

يومئ كثيراً وهو يردد:

_بالتأكيد أصدقك، بينهما شبه يدعو للريبة!!.

ذهبنا بصحبة ماري إلى منزلي، أدخلتها إلى حجرة نومي، أعطاها جورج حقنة مهدئ كي تكتسب المزيد من الراحة التي تحتاج لها.

.....<<>>.....

على مرجٍ أخضر، تحت نور الشمس الساطعة، حيث الفراشات تتراقص، والعصافير تزقزق، طفلة شقراء ترتدي ثوب الفرح تتراقص به بمرح، تتبعها أخرى نسخة عنها، تتطاير كالعصفورة يرقصان سوياً يضحكان بمرح، تهمس إحداهما للأخرى (لا أود إيذائك لكن هو فعلها بنا) فجأة رجلٌ أخفى نور الشمس بثوبه الأسود فعم الظلام، عانقت أحداهما الأخرى، فانتزعها من بين أحضانها ورماها بعيداً عن ناظري الأخرى، فجلست تبكي بذعرٍ شديد، ثم قدم لها طبق يوجد به قلبٌ ينبض ملئ بالدماء، وقال لها بصوتٍ مرعب تردد صداه في كل مكان (تناوليه) فجأة صهيل حصان علا في المكان، يمتطيه فارسٌ مغوار، أصواتٌ بدأت تعلو حتى كادت أن تدك الأرض دكاً، تناول الفتاة ووضعها خلفه، فأصبحت هيئة الفتاة أنا، وهب يطير بي نحو السماء حيث يوجد القمر.

فتحت ستارة أجفاني رويداً، جدرانٌ مطلية باللون العاجي، دولاب ملابس أسود اللون تتوسطه مرآة كبيرة، ستائر مخملية سوداء وتحتها ستائر بيضاء شفافة مطرزة باللون الأسود والرمادي اللامع، كنبة مخملية حمراء اللون عليها وسائد بيضاء من الفرو الطويل الناعم، بجانبها طاولة زجاجية يوجد عليها زهرية ملئت بالزهور الاصطناعية الحمراء، الحجرة تعم بالنظافة والأناقة، أرقد على سرير أسود اللون عليه ملاءة بيضاء نظيفة ووسائد نظيفة مخملية حمراء اللون مطرزة برسوم سوداء ورمادية لامعة، يغطي جسدي ملاءة سوداء مطرزة برسوم حمراء

ورمادية تشبههم، وبجانبيه مجسمات جميلة للنور، لكن السؤال الواجب الآن أين أنا؟! نهضت بتثاقل، أنني أشتم رائحة قهوة تركية شهية جداً، فتحت الباب ببطئ، استرقت النظر لا يوجد أحد، خرجت من الحجرة، أتجول في هذا المنزل الجميل جداً بألوانه الزاهية، واصلةً إلى المطبخ وإذا بي أجد دانيال، يعاد كر شريط ما حدث في الأمس سريعاً أمام ناظري، أنفض رأسي سريعاً لأتلاف الشريط وإيقافه عن عرض تلك الأحداث المرعبة، أغمغم في سري، أغرس شبح ابتسامة على شفتي قائلة:

_صباح الخير.

باغتني بابتسامة عريضة تنبع من الأعماق قائلاً:

_وهل من صباح يبدأ بكِ لا يكن صباح الخير؛ (ثم أردف على وجه السرعة:) أعد كوب قهوة تركية فأنا بارع بأعدادها، هل ترغبين بكوب؟

_بكل تأكيد. (أومئ للتأكيد أكثر)

يجيبني بمرح وهو ينحني قليلاً ضاماً يده إلى بطنه:

_أمركِ سيدتي، بكل سرور.

ضحكت برقة لفعلته، وعدت أنظر حولي أتفحص المكان، الشمس تدخل المنزل من نوافذه الكبيرة، هذا ليس منزل بل قصر، وضعَ قرص الموسيقى المدمجة في أحضان والدته وبدأ يتراقص، باعثاً أنغاماً دافئة تبهج النفس، تناولت كوب القهوة وللحقيقة استمتعت كثيراً، فمذاقها رائع جداً ،وأؤكد أنه بارع بإعدادها، أرتشف آخر قطرة سائلة في كوبي بسعادة، أتجرأ وأطلب واحداً آخر مبررةً ببسمة عريضة:

_مدمنون القهوة سيتهمونك بالشح عندما تقدم لهم فنجان قهوة واحد دون ركوة مليئة بالقهوة ترافقه.

يعد لي ركوة مليئة بالقهوة بكل سرور، يجلس مواجهاً لي ينظر لي والبسمة تحتل عيناه قبل شفتاه، أدلي برأيي فهو بالتأكيد في هذه اللحظة مهم، فالقهوة أعدت لي خصيصاً:

_قهوتكَ بمذاق سمفونية عشقٍ تداعب أوتاري، رائحتها تغزوني كشوق تائه يحن للعودة إلى دياره، يعلوها قليل من مسحة الحب الكامل الدسم (توارى خجلي خلف ابتسامة ساحرة، ازدرت ريقي ثم أكملت بمرح:) انظر على وجهها رغوة على شكل قلبٍ أدمته عواصف الوحدة، يا إلهي كم أعشق هذا البخار المتصاعد على شكل راقصة غجرية يصرخ صوت خلخالها حي على الشراب، تطرق برائحتها أجراساً تزيد اللهفة.

_هل أعتبره غزل؟!. (يسأل وهو يتفرس إجابتي)

_بالطبع يستحق. كوب قهوة لم أتذوق ألذ منه. (أكمل جملتي وأنا أضحك)

_ما تفسيركِ لما حصل؟. (باغتني قائلاً)

_عفواً. (أسأل ببلاهة)

_أقصد ما حصل في الكافيه، ثم منزلكِ، ثم الصندوق الخشبي، ثم ليلة الفندق.

_لا أعلم؟! جل ما أعلمه أن لا تفسير منطقي لما حصل، (أضيف ضاحكةً:) ولن يصدق روايتي عقلٌ بشري سواء كان ذكي أو غبي.

يضحك دانيال كثيراً لضحكي، ثم يباغتني قائلاً بجدية:

_لكنني أصدقكِ.

أحملق به لألتمس الحقيقة، يومئ ويؤكد لي بأنه يصدقني معللاً:

_لن يصدق جنونك سوى أثنان أحدهما يحبك بشدة والآخر قد عاش جنونك مسبقاً، (يبتسم ثم يضيف بجدية:) ما حصل معي مثيراً للدهشة بل للرعب أكثر من الذي حصل معكِ.

أضحك باستهزاء وأنا أبرر قساوة ما حصل لي أشد رعباً من أي شيء قد حصل وسيحصل، أروي له ما حصل معي منذ وفاة والدتي إلى ليلة أمس، كانت ملامحه المبتسمة وعيناه اللامعة تمتعض مع كل حدث جديد، رغم أن البسمة لم تفارق وجهه، وعيناه كادت ألا ترمش وهي مثبتة على ملامح وجهي، لا أعلم كيف أصفه لكم؟! لكنني لمست تصديقه لي وهذا الأهم، بعد أن أفرغت ما بجعبتي روى لي بعض ما حصل معه، لا أعلم لماذا الرجال يحبون الاختصار بأحاديثهم بينما نحن نتعمق بالتفاصيل؟ للحقيقة ما حصل لدانيال غريب جداً ولا تفسير منطقي لما حصل بالفعل سوى اضطرابات نفسية كما وصفها صديقه جورج الطبيب النفسي، وكما وصف حالتي بالطبع! أي قدر هذا جمعني برجلٍ مثلي يحتاج لترميم نفسي من جديد، لكن الأهم أنني أشعر بجانبه بالأمان.

.....<<>>.....

كانت السعادة تغمرني بوجود ماري في منزلي، كنت أغرق بين حنايا شفتيها عندما تتحدث، وأغوص وسط قلبها الذي يرتجف من شدة فزعها، بالاختصار كانت هي في عالم مليء بالفزع والهلع والتيه، وأنا في عالم آخر مليء بالإثارة والحب، قد شُغفَ قلبي بها، فغدا يتراقص على إيقاع الشعور تارة، ويغفو على دفء همساتها تارة، حلقت بي إلى عالمٍ لم يألفه قلبي قبل الآن، وفتحت له آفاقاً أكثر رحابة من تلك التي ضاقت بي، قضينا ليلتنا الأولى سوياً حول المدفأة الملتهبة، كان جواً رومانسياً يخلو من الحب والرومانسية، تجلس على الكنبة تتصفح أحد الكتب المركونة في مكتبة المنزل، تبدو مستمتعة، وتكاد أن تخنقني بتجاهلها الفظ لوجودي، أقترح:

_ما رأيكِ في جولة قصيرة في حديقة منزلي؟

تبتسم بمرح و تومئ إيجاباً، ترتدي معطفها و أرتدي معطفي لتدارك البرد القارص الذي في الخارج، تجولنا مستأنسين بالنجمات التي تفترش السماء كاللآلئ النفيسة، حديقة منزلي مزينة بالأنوار الملونة قد زادتها جمالاً وبهجة، كانت اختيار ماريتا أيضاً، بالطبع قد تم تصليحها عندما تم تجديد المنزل، كانت ماري تعوم وسط محيط السعادة، يبهرها كل ما يوجد في منزلي، وكان هذا الشيء يسعدني كثيراً، تباغتني قائلة بعد أن ذبل وهج ملامحها:

_لقد كنت محقاً بشأن إدوارد.

_كيف ذلك؟!. (أسألها بدهشة)

_لقد وجدت العديد من الصور التي التقطها لي دون علمي تحت وسادته، وقد كتب على جميعها كلمة أحبكِ؛ (تنهدت ثم أكملت بأسى) لقد مزق صور كارمن والأطفال ورماهم في أرض حجرته، وقبل أن أخرج من منزله طرق الباب ظننتك في البداية أنت، فتحت الباب وعلى وجهي دهشة تغلفه، لتذبل ملامحي فور رؤيتها، امتلأت مقلتيها بالدموع فور رؤيتي، أحتقن وجهها بالدماء واستشاطت غضباً، قد كانت كارمن!، صرخت في وجهي بحنق شديد:

_منذ أن دعوتكِ على العشاء في ذاك اليوم المشؤوم وقد دمرتي حياتي بالفعل، كنت أقنع نفسي دائماً أنكِ صديقتي ولا علاقة لكِ بنظرات إدوارد الشغوفة التي كان يحفكِ بها منذ ذلك اليوم، إلى أن فاض قلبه بحبكِ فلم يعد يستطيع الكتمان، فجر عشقه لكِ في وجهي غير آبه بالدمار الذي خلفه في وجدي، هجرته والأولاد كيّ يستعيد توازنه بفقداننا، لكنني لم أتخيل للحظة أنني أقدمه لكِ على طبق من ذهب، آخر ما تخيلته أن أجدكِ في منزله.

صرخت في وجهها غاضبة أدافع عن نفسي من ذنب ألصقته بي رغماً عني:

_كارمن لا يحق لكِ أن تتهميني بالباطل.

صرخت بحنق شديد وهي تحكم قبضتها على مقبض الباب:

_الباطل؟!!، أين هو الباطل في الأمر وأنتِ في منزلي، أين إدوارد هل هو في الفراش؟!.

تنبهت أنني بالفعل في منزلها وقد نسيت الأمر تماماً، الأمر الذي يجعلني في دائرة التأكد ليس الشك فحسب، تفصد جبيني عرقاً اختنقت بعبراتي، كانت تنظر لي باستحقار، كادت ترحل، أحكمت قبضتي في قبضتها باغتها برجاء:

_كارمن دعينا نتكلم أرجوكِ.

دَخلت إلى منزلها كضيفة مما جعلني أذوب من حرارة الخجل والذنب، نفضت رأسي عندما شعرت بالذنب، أيّ ذنب هذا؟ أنا لم أفعل شيْ، لم أدرك ما كان يجول في خاطر إدوارد إلا الآن، لا ذنب لي فيما حصل، لهذا استجمعت قواي وشرحت لها ما حصل وأنا أقسم لها مراراً على صدقي إلى أن لمحت بسمة القبول على شفتيها، أخبرتها أن إدوارد في المستشفى مما جعلها تبكي بحرقة وتنهار أرضاً، في السابق كنت أشك ان كارمن تحب إدوارد بشدة كما كانت تقول وتحاول إقناعي على الدوام فإهمالها له كان واضح للعوام، كنت أظن أنها لا تحبه بل تدعي حبه، لم أكن أدرك أنني كنت بينهما حاجزاً شائكاً كاد أن يمزق علاقتهما للأبد، لكنني الآن أقسم انها تحبه بجنون، ذهبنا إلى إدوارد في المستشفى، ودخلت بصحبتها أزرع شبح ابتسامة على شفتي، صُدم إدوارد لمرآي بصحبتها، كانت عيناه كجمرتين في موقد الشتاء، باغته بحدة:

_كيف حدث كل هذا دون أن أشك للحظة، كم أنا ساذجة، اعتبرتكِ صديق لي، سألتك مئات المرات عن سبب رحيل كارمن المفاجئ لكنك لم تبح، لأنك تعلم أنك على خطأ، كارمن صديقتي واختي أيضاً، إياكَ أن تغضبها يا إدوارد.

أومئ إدوارد بأسى ثم استرق إلى وجهي نظرة أسف، ثم نظر إلى كارمن ببسمة ملئت شفتيه، باغتها قائلاً:

_لقد كنت ألهث خلف الوهم، تجرأت على ما لايحق لي، قبل لحظات من الآن كنت أبكي ظننت أنني خسرتكِ والأطفال للأبد، تباً لأشباه الوجد أولئك الذين

يوهموننا بمشاعر لا وجود لها، أرجوا أن تغفري لي كارمن لازلتِ ملكة وجدي، هجرانكِ لي جعلني أدرك كم أنني أحبكِ والأطفال.

عانقتني كارمن بفرح، ثم هرولت إلى إدوارد تعانقه و تبكي شوقه بحدة، انسحبت بعيداً عن عاصفة حبهما، عدت إلى منزلهما حزمت أغراضي ورحلت.

صمتت قليلاً ثم ارتسمت علامات التعجب على وجهها وهي تسئلني:

_كيف علمت بمكنون مشاعره نحوي؟!.

أجبتها بمرح:

_نحن الرجال أكثر فطنة من النساء في مثل هذه الأمور.

ضحكت بنعومة مع إيماءة قائلة:

_ربما.

باغتها مغيراً مسار الحديث، قائلاً:

_ما رأيكِ في دعوة على العشاء؟.

_وهل دعوة كسابقتها؟!، ينتهي بي المطاف مشردة في الشوارع ثم في فندق راقي تسكنه أشباح بائسة، ثم تهرول إلي لتجدني غارقة في نوبة هستيرية وربما هذه المرة في نوبة جنون لا تنتهي. (تسأل بسخرية ضاحكةً)

_بالتأكيد لا فها أنا سأذهب معكِ يداً بيد. (اجيبها ضاحكاً)

_موافقة، سأذهب لتبديل ملابسي أولاً. (تضيف بمرح)

تضحكني هذه المرأة أنها لا تتقن فن التدلل، لهذا أجد الراحة معها، لا تغرق حديثها بتوابل التصنع، لهذا هو شهي للغاية، أومئ وأنا أردد:

_وأنا كذلك.

أرتدي بذلة سوداء جديدة، بقميص أبيض وربطة عنق رمادية عليها نقوش سوداء كجلد الحية، وحذاء أسود اللون جديد أيضاً، وأنتظر، بعد مضي نصف ساعة، أزفر بضيق أقترب من حجرة نومي استعجلها، لا أعلم لما تستهلك النساء هذا الوقت الطويل بتحضير أنفسهن للخروج!، أطرق باب الحجرة بلطف، أسمع طرق كعب حذاء أنثوي يطرق الأرض، وإذا بماري تخرج وكأنها حورية سقطت من السماء، ترتدي فستاناً طويل فضي لامع، عاري الأكمام، ترمي على كتفيها وشاحاً من الفرو الأبيض، مع حذاء يناسبه بكعبٍ عالاً جداً، لا أعلم كيف تستطيع النساء ارتداءه؟!، كما أنني لا أعلم كيف عقصت شعرها الطويل وأخفته هكذا، وعلى جانبه الأيمن عقدت خصلة منه بعقدة شعر لامعة، وقد زينت وجهها بألوان الربيع الجذاب، أظن أنني رأيت هذه الملابس قبل الآن، لكن لا أذكر أين؟، لا أستطيع إخفاء دهشتي من جمالها، فاضت عيناي ببحر من الدموع رغم جهدي بإخفائها لكنني لم أستطع، أنني أرى ماريتا أمامي، تدارك الموقف و تباغتني قائلة بمرح:

_كيف أبدو؟!.

_رائعة الجمال (وأنا لازلت أحملق بها وأمسح دموعي برؤوس أصابعي)

أردفت فزعة من دموعي:

_أعذرني لتطفلي على ارتداء ملابس وجدتها في دولاب الملابس خاصتك، أظنهم لإحدى عشيقاتك، رغم أنهم لازالوا مغلفين بأوراقهم التي تثبت عدم استخدامهم قبل الآن البتة؛ أعتذر بشدة يبدو أنني أزعجتك. (تمتعض ملامحي، الآن تذكرت هذه الملابس تخص ماريتا، تضيف بحرج شديد:) سأبدلهم بملابسي

أحك رأسي وأنا أجيبها بتوتر وعلى شفتي بسمة شفافة:

_لا. لا مشكلة.

أردفت بفضول:

_أيمكنني سؤالك لمن هذه الملابس؟.

_إنها لماريتا، لم تستخدمهم البتة، (أنهي الحديث بجملة مختصرة:)هيا لنذهب.

.....<<>>.....

دعاني للعشاء، ولم أرفض الدعوة، دخلت لتبديل ملابسي في حجرة نومه، بحثت عن أمتعتي فوجدتهم بصحبة الصندوق الخشبي في دولاب ملابسه، على رف جانبي صغير، كان دولاب الملابس مليئاً بالملابس الأنثوية الجميلة والتي تحمل أسم أفخم الماركات العالمية، تمنيت ارتداء أحدهم، وقد فعلتها، فالملابس التي بحوزتي لا تناسب دعوة عشاء، بدوت غاية في الجمال والروعة و للمرة الأولى مذ كنت صغيرة أرتدي فستاناً، شعرت بوجود عيون تتربصني، لكنني بالتأكيد أتوهم، فيما بعد أطياف تتراقص حولي لم ألقي لهم بالاً في البداية لكن مع زحف الدقائق افزعوني، خرجت بعد أن طرق دانيال باب الحجرة بسرعة وكأن أحدهم يتبعني، كان أنيقاً أناقة لافتة، تفرست ملامحه التي سُلبت، ظننته بالبداية قد ضايقه أمر ارتدائي ملابس إحدى عشيقاته، لكن فيما بعد أكد لي عكس ذلك، كنت متأكدة أنه يرى ماريتا بهيئتي ولهذا يهتم لأمري مما يجعلني بائسة، عندما أخبرني بأن هذا الفستان الذي أرتديه لماريتا امتعضت ملامحي وتمنيت الاختفاء عن وجهه فوراً، خطر لي تبديله بملابسي على الفور لكنه أصر على الذهاب فوراً، خرجنا من المنزل، صعدت إلى سيارته التي فتح لي بابها وانتظر ليغلقه خلفي، كواحدة من الأثرياء المدللين، شعوراً لم أعهده قبل الآن، بعد خمسة عشر دقيقة توقفت السيارة أمام مبنى غاية في الفخامة والرقي، على هيئة قصر عريق في الزمن الحديث، فتح لي باب سيارته وانتظر، ترجلت من السيارة وأنا أطلق ضحكة سعادة وشعور فريد لم يسبق لي أن عشته، أشعر كأنني إحدى نجمات هوليود، العيون في كل مكان تتربصني، أحاول عدم الانبهار كالفقراء، الذين يصرخون متعجبين ليس فقط لأعجابهم بما يرونه، بل لتقييم داخلي بين صاحب النعمة وفاقدها ميزانٌ لا عدل به، البرد قارس جداً خارج السيارة، لكنه ألطف

بالتأكيد داخل هذا العمار الشاهق الذي من ضمنه المطعم، عندما تخطيت بوابته الذهبية البالغة الفخامة اجتاحني شعور مهيب جعلني أتنبه لكل حركة أقوم بها.

فتح أحدهم الباب الزجاجي الكبير لنا، وما أن دلفنا إلى الداخل بدأت فرقة موسيقية بعزف مقطوعة رائعة تحية لنا، وكأنني قد نقلت إلى عالم آخر، يعيش به فئة أخرى من البشر! دخلنا البهو الواسع، المطعم كبير حقاً، يرتاده الأثرياء والسياح، فهو قد صمم لأجلهم، أرضيته عاجية رخامية تلمع بشكل يثير البهجة في النفس، ألوان الجدران عاجية وزاهية تجعلك على حين بغتة تشعر بالإشراق، بينما يتدلى من علو ستة أمتار ستائر خمرية اللون مخملية الملمس، تغطي النوافذ التي أحاطت المطعم من جميع جوانبه، الطاولات الزجاجية قد وزعت بانتظام، يغطيها ملاءة بيضاء مزينة بأقواس من ضفائر الورود البيضاء والعروق المتدلية الخضراء، وضع عليها أطباق وملاعق وسكاكين وشوك على عدد المقاعد الشاغرة على جوانبها، تتوسطها زهرية من الكريستال اللامع تتدلى من جوانبها جواهر لامعة مثيرة ملئت ورداً أبيض، وشمعدان فضي اللون، ومقبلات وضعت في قواعد فضية مثيرة لشعور الجوع، جلسنا بجانب شلال مياه صناعي يصدر خريراً كأنه إيقاع موسيقي فريد يثير تفاصيل السعادة في جوفك، يملأ قاعه أنوار ملونة زادته روعة، اقترب النادل فاستأذنه دانيال بفعلها، وقفت مذهولة لا أعلم بما يتجادلان! أمسك دانيال الكرسي وأبعده عن الطاولة

_تفضلي أميرتي. (قالها مبتسماً و عيناه تلمع بشكل مثير للدهشة، لا أعلم هل بفعل الأنوار المتوهجة أم بفعل السعادة بصحبتي)

بادلته بابتسامة تصحبها إيماءة بسيطة تعني (شكراً)

_ماذا تودين، هل أطلب لكِ شيئاً معين؟.

ربما أصعب سؤال قدو وجه لي مذ خلقت، فأنا لا أعلم ماذا يتناول فئة البشر هذه؟ بالطبع فهم يتغذون على أسماء غريبة ولهجة أخرى، وبرستيج دقيق وتفاصيل غير مهمة البتة لنا

_كما تشاء، (ثم أردفت مع ابتسامة) السوشي هو وجبتي المفضلة؟

_هل تحبين الكافيار فهو بالنسبة لي رائع المذاق؟

أومئ رغم أنني للمرة الأولى أسمع باسمه، لا أعلم لما يبدو لي دانيال غريباً، وكأنني للمرة الأولى ألتقي به وأجلس معه، يتصرف بلباقة زائدة، ويتكلم بلهجة أخرى كمرتادي هذا المكان، أصبح ينتمي لهم بعد أن كان في عمله في الكافيه ينتمي لي، فأنني شخص يكره الفوارق التي تشكل عائقاً متيناً بين الأشخاص، فكم من المرات سمعنا قصصاً عن حب و زواج الأغنياء من الفقراء الذي باء بالفشل الذريع، وربما يفشل الحب قبل أن يفكر الأثنان بمرحلة الزواج، إلا ما رحم ربي، شعور أبغضني وعكر مزاجي الرائق، باغتني ضاحكاً:

_ما رأيكِ بوجبة تدعى (صوت البحر) سيكون من الممتع أن تجربيها، وهناك وجبة (الذرة الإخطبوط) شهية جداً هل تودين تذوقها؟ وهناك بالون قابل للأكل سيكون من الممتع أن نجربه سوياً ملئ بغاز الهيليوم يساعد على تغيير صوت من أكله.

أومئ من جديد، كما أفكر من جديد، للمرة الأولى أشعر بغرابته، شعور رهيب يجتاحني بحضرته، أشعر بأنه شخص آخر غير الذي كان معي في منزله قبل نصف ساعة، غير ذاك النادل الذي كان يعمل معي في ذات الكافيه البائسة تلك، ما هذه الأسماء التي يذكرها هل هي أسماء بلاد أم محيطات بحيواناتهم. أم وجبات طعامهم الغريبة، أوزع الابتسامات وأنا أنظر حولي لتدارك الموقف، أشعر بأنه علم بكذبة إيماءتي، لا يهم، بل يهم لكن ما باليد حيلة، لم أصعد درج الأثرياء يوماً ولا درجة حتى، أمضيت حياتي وأنا ألهث لأنال شرف الوصول إلى العتبات حيث أكون بين أحذيتهم اللامعة.

تلمع عيوني باللآلئ التي توشك على السقوط، أشعر بجرح يوخزني في الكرامة، استأذنت للذهاب إلى الحمام لتدارك الموقف قبل أن يبدأ الهطول بغزارة وتثار فوضى عارمة بألوان الطيف التي على وجهي، يباغتني بسؤاله:

_وطلب العشاء؟!

_كما تود لا مشكلة، لا مشكلة لدي مع أنواع الطعام...

_هل تودين مشروباً معين؟

_أي شيء

_هل تتناولين النبيذ؟

_لا أبداً، أفضل العصائر الطبيعية

_مثلي، حسناً.

يدلي لي بإيماءة، أذهب بسرعة إلى حمام السيدات بعد أن تجولت عيناي وتفرست مكانه، أصل. أغلق الباب خلفي، أعاود درس الشهيق والزفير لعلي أهدأ و أتدارك أمر سقوط دموعي الحتمي، وأخيراً هدأت بأقل خسائر بالنسبة لوجهي على الأقل، خرجت لأعد إليه، أمشي بخطوات ثابتة قدر الممكن، لدي مشكلة مع الكعب العالي فأنا من الأشخاص العمليين أكثر ملابسي كاجوال، لكن من الجيد أن عملي في الكافيه كان يتطلب ارتداء الكعب العالي، لكن المشكلة أنني لم أرتدي يوماً كعباً بهذا العلو، أشعر أنني بعيدة جداً عن الأرضية التي أكاد أن أسقط منكبة على وجهي من شدة ملاستها، أذكر أنني عندما تدربت للمرة الأولى على ارتداء الكعب العالي شاهدت المزيد من عارضات الأزياء وهم يتدربون، حيث يضعن كتب على رؤوسهن فيبقى مرفوعاً، ويمشين بخطوات ثابتة خطوة تتلوها الأخرى، أرفع رأسي من جديد وعلى وجهي ابتسامة لطيفة، أتخيل وكأن فوق رأسي كتاباً. أثبت خطواتي كي لا يقع أرضاً، أنظر حولي أشعر أن جميع العيون تتربصني، البعض منهم يبتسم لي. والبعض الآخر يومئ مع ابتسامة وتلويحه بسيطة بيده، أتجاههم وأعد إلى دانيال، يستقبلني بابتسامته الزاهية المعتادة وعيناه التي تبرق، أباغته بسؤالي:

_لماذا عيناك تلمع بهذا الشكل وكأنها لآلئ تبرق، (أكمل بمرح:) يوحيان لي بلوحة يرسمها فنان في صباحٍ مشرق (أحكم عيناي بعينيه وأكمل بجدية) شمس بأوج إشراقها تلقي أشعتها على مياه بحيرة صافية، عيناك الزرقاوان يبرقان كماء البحيرة!.

يضحك كثيراً، ثم يضيف قائلاً بمرح:

_لا أعلم، لكن هل أبدو وسيماً، أم ذاك النادل البائس؟.

أجيبه بصراحة:

_بل تبدو كنجوم هوليوود الرائعون. (تحمر وجنتاي خجلاً، ألوم نفسي على ما قلته)

أقترب مني قدر ما أمكنه وباغتني بسؤاله متفرساً إجابتي:

_هل أعتبره غزل؟!!!!.

_لا بالطبع، هذا الذي أصفه مجرد واقع. (وأنا أطلق ضحكة خجلة رقيقة قدر الإمكان بعد أن تلهبت وجنتاي أشتعلاً)

يباغتني بجدية:

_لماذا تصرين على إبقاء المسافة الشاسعة بيني وبينكِ.

أرتبك، ترتجف يداي، أستجمع قواي لأجيبه بصراحة:

_ليس الأمر كما تفكر، لكنني لا أعلم عنك شيئاً، للتو قد قابلتك. وللتو أجلس وأتكلم معك، لديك المزيد من الشخصيات المتناقضة، رجل بائس مدمر نفسياً، فيما بعد نادل بسيط من الذين يبحثون عن لقمة العيش، فيما بعد طبيب جراح، وأخيراً شخص ثري ثراء فاحش رائع الجمال بشخصية تسلب القلب، تملئ

خطواتك الرزانة، اعذرني على صراحتي، لكنك جعلتني أتوه بين شخصياتك المتناقضة، أخاف أن استلطف شخصيتك الثرية بعد أن وبخت شخصيتك الرثة فتتهمني بالنفاق، أنا ضائعة فيما بينك، ماذا تريد مني بالتحديد دانيال؟ هل تريد إحياء ذكرى ماريتا بوجودي؟ أنا لست مجرد سلعة! أنا بشرية كما ترى أشعر وأتألم وأبكي وأضحك ولي قلب في صدري ينبض وعقل في رأسي يفكر، لست آلية! أرجوك دانيال لا تطلب مقابل لمساعدتك لي، دع الأمور تجري على سجيَّتها، لا علم لنا بما يخبئ الغد.

باغتني بنبرة مدافعة:

_أنتِ هكذا توجهين لي إهانة تؤلمني.

_لم أقصد الإهانة، بل أقصد حفظ كرامتي ليس إلا، أنا ماري لست ماريتا، إياك محاولة التفكير بذلك دانيال.

_ماري وأنا بجانبكِ أشعر براحة افتقدتها منذ أعوام مضت، بل أشعر بسعادة تغمرني من رأسي حتى أخمص قدمي، لا أريد مقابلها أي شيء، بل أريد وجودك بجانبي، أو على الأقل في حياتي، لا أطلب منكِ سوى ذلك.

أرتبك كثيراً، يتجاهل أرتباكِ ويكمل وكأنه مستمتع بتخبطي، أردف قائلاً:

_هذه المرة الأولى التي أراكِ فيها ترتدين فستاناً؛ (صمت ثم أكمل وكأنه يتردد بتكملة الجملة) وعاري الأكمام أيضاً، وعلى وجهكِ تَزَيّن الربيع.

ابتسم بلطف رغماً عني، يباغتني قائلاً:

_أحببت أحمر الشفاه الذي زين شفتيكِ.

تنتابني نوبة خجل يشع وهجها من وجنتي فتجعلهم كجمرتين، يغير مسار الحديث:

_قد جهزت عيادتي وأصبحت مؤهلة للسكن والعمل أيضاً، سأنتقل إليها غداً.

_لا...؛ أقصد كيف سترحل عن منزلك، سأمكث أنا بها أن سمحت لي بالطبع، بينما أتدبر أمري.

_كما أخبرتكِ، أفكر العمل في مجالي. أقصد طبيب جراح، وبالمناسبة وجدت لكِ عمل. ستكونين سكرتيرتي، ماري أنتِ دفعتيني لأحب الحياة من جديد.

أومئ ولا أضيف لرصيد الحديث شيئاً، شرد لوقت وكأنه يفكر بشيء ما، ثم ألتفت إلي مبتسماً يباغتني قائلاً:

_لا أريدك أن تبذلي المزيد من التفكير بنفاقكِ كما أسميته، هذا الأمر لم يراودني البتة، أنا من دخلت في حياتك بشكلٍ أربككِ، تسببت بضياعكِ بين شخصياتي المتناقضة كما اسميتها، لكن هل تريدين الحقيقة (أومأت إيماءة تأكيد وعيناي تتفرس شفتيه، أردف قائلاً بجدية:) لقد شهدتِ تحولاتِ التي صنعتِها، لقد شهدتِ ولادتي من جديد على يديكِ ماري؛ (تبسمت بشكلٍ لا إرادي، تبسم وهو يدلي لي بسؤاله:)هل يراودكِ شعورٌ لطيف بصحبتي، أتشعرين بالحب مثلاً؟!!!....

أغير مسار الحديث كعادتي بإطلاق ضحكة ناعمة. والسؤال بسؤال آخر:

_ما أخبار الطعام؟!.

رد بلباقة تشبهه:

_أحبيني ولكِ كل ما تشتهين.

تبسمت بإحراج، غضضت طرفي عنه، أراقب المكان حولي، بدأ العازفون بإطلاق مقطوعة موسيقية راقصة، توافد العشاق إلى وسط القاعة للرقص، اتسعت حدقتا عينيّ بمرح، أشار دانيال لي بيده ليلفت انتباهي،وقف وتوجه إليّ يلوح لي بيده يقطع شرودي بما يحصل على منصة الرقص ثم مدها نحوي، قال باسماً:

_هل تودين الرقص؟

_بالطبع لا!. (أجيبه مرتبكة)

أعاد المحاولة لكنه غير صيغة الطلب مع ابتسامة ساحرة:

_هل تسمحين لي برقصة معكِ؟

ضحكت كثيراً

_لكنني لا أجيد الرقص!!.

أقترب مني أوقفني ثم خاصرني وهو يسوقني إلى وسط القاعة، يهمس في أذني:

_الأنغام تتدبر أمركِ لا تقلقي، سترقص روحكِ أولاً. ثم قلبكِ ثم جسدكِ سيتطاير وكأنه ريشة، كل ما عليكِ فعله أطلقي عنان السعادة فقط.

أومئ بمرح، يضيف هامساً في أذني:

_بالمناسبة أنا لا أجيد الرقص أيضاً. (قال كلمته الأخيرة ضاحكاً)

ما أن وقفنا وسط القاعة حتى هدأت الموسيقى من روعها لتتحول لنغمات رومنسية، وكأنه أتفق مع العازفون على ذلك، وضع يده أسفل ظهري برقة، كما لو أنه يطوق فراشة يخشى على جناحيها، وبيده الأخرى أمسك يدي، قربني إلى جسده قليلاً، وبدأ يتراقص مع النغمات الهادئة. يجاريها بهدوئه ورومنسيته وكأنه محترف، أشعر بسعادة تسري في أنحاء جسدي لا أدري ماهيتها، ثم برقة أنسلت يديه الأخرى خلف ظهري، وقربني إليه أكثر، أشعر بلهيب أنفاسه، أشعر بشهيقه وزفيره رغم طرقات قلبي الصاخبة، بعد وقت لم أحصيه من الارتباك، زادت حدة الموسيقى ليضحك العاشقون ونضحك مثلهم، فالعازفون يعزفون على أوتار مشاعرهم الجياشة. ما أن تهدأ نيرانهم حتى يشعلونها من جديد، ابتعدت عنه وأنا غارقة بنوبة سعادة لم اعهدها، رفع يدي للأعلى وبدأ يدور بها بحركات خفيفة

وأنيقة ومتناغمة مع الموسيقى التي تُعزف، نفعل كما يفعل العاشقون الذين يحيطوننا من كل جانب حتى يظن من يرانا وكأننا منهم، تمنيت ألا تنتهي النغمة وألا تتوقف الرقصة، وألا تدق الساعة الثانية عشر التي أنهت ليلة سندريلا، لكن بعد وقت شعرته قصير جداً، انتهت الموسيقى وتوقف العازفون، باغتني بتقبيل يدي وسط الجموع التي صفقت له، وكل أنثى تغمز لحبيبها، خاصرني من جديد وهو يحكم قبضته هذه المرة ويضمني إليه وكأنه يخبر الجميع أنني له، وساقني إلى الطاولة من جديد، باغتني بقبلة طبعها على خدي وعاد إلى مقعده سريعاً، كان في الجو على ما أعتقد رذاذاً من السعادة، نظرت إليه وملامحي لازالت تضحك، لكنني هذه المرة نظرت إليه كما لم أنظر من قبل، أشعر بشيء يدفعني للجلوس وسط قلبه. البقاء بجانبه، الحفاظ على كفي بكفه، شعور للمرة الأولى يداهمني بحضرة رجل، قطع سلسلة أفكاري العربة المليئة بالطعام التي يسوقها النادل وبجانبه آخر يساعده بتنسيق الأطباق على الطاولة.

لم تغادرني ماريتا طوال الأمسية، لم أستطع تحديد ماهية ملامحها، لا أعلم هل يبدو عليها الغضب أم الغيرة؟ لكنها كانت هادئة تحافظ على المسافة التي تبقيني هادئاً بوجودها كي لا أبدو غبياً أو سخيفاً

أشعر بسعادة تسري في أنحاء جسدي، كانت ماري تبدو غاية في الروعة والجمال، خطفت أنظار الجميع ،كانت الغيرة تتملكني عندما أرى جميع العيون تتربصها، راقصتها. و للمرة الأولى أراقص أنثى، و للمرة الأولى أرقص، كان شعوراً فريداً مع أنثى فريدة، أعترف أنني أحبها، وأود البقاء بجانبها دائماً، أشعر بالغيرة.. بل بالجنون.. بل بحب التملك، أطلقت العنان لمشاعري، وأخبرتها بما يدور في جوفي بكلمة اختصر بها معنى الحب أجمع...

_أحبكِ

ردت مازحة:

_اللحظة أم أنا، أو لعلها ماريتا قد ظهرت بطيفها لكَ الآن.

باغتها بحزم:

_بل أنتِ ماري، هل تقبلين الزواج بي؟.

نبعت ملامح الدهشة على ملامحها، وارتعشت أطرافها، أجابتني بجدية:

_الأمر ليس بهذه السهولة دانيال!.

سألتها وقد سقط قلبي مغشياً عليه بعد أن ذبلت ملامحها تماماً:

_لماذا ما الصعب في الأمر؟!.

_دانيال، لازال الوقت باكراً.

أردفت بحدة:

_ماريتا، صدقاً أنني أحبكِ.

اتسعت حدقتا عينيها، ثم غرقت بالعبرات التي فاضت فجأة، أضافت بشفاه متقوسة تكتم بهما شهقات غصت بهم:

_أرأيت دانيال، لازالت غارقاً بحب ماريتا وليس ماري.

لكمت جبهتي، نظرت إليها، أردفت بنبرة آسفة:

_أعذريني، صدقاً إنه مجرد خطأ سببه التشابه بين أسماءكم.

لم تستطع كتمان عبراتها أكثر فأطلقت العنان للآلاف كي يشكلو سيلاً كاد أن يحفر وجنتاها، أضافت متلعثمة بحروفها:

_والشبه أيضاً أليس كذلك، أرجوك دانيال لا أريد رؤيتك مرة أخرى.

همت بالرحيل، وقفت أستجديها ألا ترحل لكنها أبت، هرولت باكية، فهرولت خلفها أنادي باسمها غير آبه بالعيون التي تتلقفني بدهشة، كاد أن تقع بسبب حذائها العالي فأمسكت بها وعانقتها بشدة، حاولت التملص مني، فأحكمت قبضتي حولها هامساً في أذنها:

_أحببتكِ كما لم أحب قبل الآن، لن أدعكِ ترحلين، لن أخسركِ مهما كان الثمن، لن أستطيع الحياة بدونكِ بعد الآن ماري.

استسلمت لعناقي تجهش ببكاء حار تلفظ به خوفها، صفق الجميع بمرح ضاحكين، ابتعدت ماري عني تمسح بظهر كفها وجهها فجعلته كلوحة شتاء عاصف، ضحكتُ لمظهرها، علمت سبب ضحكي فأُحرجت ثم أطلقت ضحكة تتعثر بدموعها، أضافت بصوت متهدج بمرح:

_قد نسيت تماماً الربيع الجذاب الذي رسمته على وجهي، بالتأكيد قد حول وجهي إلى قاع موقد الشتاء أليس كذلك؟، ثم أنني نسيت أين نحن؟!.

أجبتها ضاحكاً:

_لا بل إنه تحول للوحة جو عاصف تتكبد في سماؤه غيوم سوداء، باختصار لقد تحول للوحة فنية مبهرة.

اقتربت مني لتخفي وجهها عن الجميع بقربي، لأكن حاجزاً بين إحراجها مما حصل وبينهم، سألتني بإحراج شديد التمسته من حروفها:

_هل الجميع ينظر نحونا؟!.

أجبتها ساخراً بمرح أغيظها:

_ليس الجميع تماماً، فهناك طفل صغير يلهو في عربته لا ينظر نحونا.

لكمتني برقة على كتفي، ثم كررت سؤالها، فأجبتها بمرح:

_ليس الجميع فحسب حتى الستائر المخملية تحملق بنا بشدة، و أشعر أن القمر يسترق النظر من الطرف الخفي لتلك الستارة المحايدة عن طرف النافذة.

لكمتني بقليل من القسوة، بينما يعلو شفتيها بسمة يغلفها الإحراج والتوتر، ثم قالت برقة:

_ماذا أفعل الآن، أنا في وضع محرج للغاية، يجب أن أصل إلى حمام النساء.

أجبتها بمرح:

_لدي الحل...

حملقت بي بشدة، تتعلق عيونها بعيناي المبتسمة بخبث، ثم على حين غرة حملتها على يدي فضحكت، وأخفت وجهها تمرغه في صدري، فطبعت القليل من لوحتها على قميصي فضحكت تخفي وجهها خلف كفها،ذهبت بها نحو الحمام والجميع يضحكون بمرح ويصفقون، ما أن وصلت أمامه همست في أذنها:

_أحبكِ

ابتسمت بشدة، طبعت على جبينها قبلة وأنزلتها أرضاً؛ دخلت الحمام مسرعة تهرول، وخرجت على طبيعتها الجذابة بعد عدة دقائق، باغتها قائلاً:

_تبدين أروع الآن، فلوحة بجمال طبيعي محرم إفسادها بالألوان.

ابتسمت برقة، أردفت بجدية:

_هيا إلى الطاولة، الطعام قد برد وقد فسد طعمه وأنا جائع جداً.

تومئ مع بسمة ساحرة سلبت عقلي، كدت أن أحملها وأطير بها، لكن فجأة...

أطفأت الأنوار، أصيب الجميع بالهلع، اقتربت من ماري سريعاً، أمسكت كفها وقربتها مني، أضاءت الأنوار من جديد. هدأ الحضور، ثم أطفأت. وكأن أحدهم يعبث بها عمداً، تضيئ وتطفئ سريعاً لأكثر من مرة، اقتربت ماري مني أكثر أشعر بها ترتجف، صرخت فجأة (لا تقتربي مني! لاااا) ووقعت مغشياً عليها...

حاولت إيقاظها بعدة طرق لكن لم أفلح، اجتمع الناس حولنا، انهارت قواي وخرّ جسدي أرضاً كقطعة بالية، دفنت وجهي بين صدري وركبتيّ، غرقت في نوبة نحيب حارقة، شعرت بالوهن بالضعف بالخوف باليأس، استسلمت ككل مرة لكن هذه المرة استسلمت كجثة هامدة، فجأة شعرت بيد تربت على كتفي، رفعت رأسي لأجد طيف ماريتا تبتسم لي بحنو زائد، همست لي ولأول مرة تكلمني ماريتا:

_لا تستسلم هيا قُمّ.

استجمعت كل ذرة طاقة من قواي تاهت عني، حملت جسد ماري المتدلي على يدي مهرولاً إلى سيارتي، أقود مسرعاً نحو أقرب مستشفى؛ لم يعلم أحد من الأطباء ما بها، بقيت بصحبتها خمسة عشر يوماً في المستشفى، لم تتحرك ماري أثناءهم البتة. أخرجتها بصحبة جورج من المستشفى. ونقلتها إلى منزلي بعد أن هيئته لها كما طلب الطبيب حتى يأذن الإله باستيقاظها، بعد أن غادر جورج، وبت وحدي بجانبها أتأمل ملامح أميرتي النائمة، أهمس لها (ليتها توقظكِ قبلة) تظهر ماريتا من وسط الهدوء القاتل، تقترب مني بهدوء. تمسح بباطن كفها على رأسي، ثم تلتفت إلى ماري، تنظر لها بأسى. تقترب منها، تمسح بظهر كفها على خدها، تقترب منها وتقبلها بلطف، أجفل لموقفها! أسألها علها تجيبني:

_لماذا لم تغضبي كعادتكِ لوجود إحداهن!؟ لماذا لم تنظري لي بشماتة؟ لما هذا الهدوء المريب؟ لما هذه النظرات الحانية؟.

لكن لم يكن منها سوى ابتسامة واهية، أضفت بحدة:

_هل أذيتها؟!، أرجوكِ ماريتا لا تفعليها، أنني أحب ماري بشدة، أرجوكِ لا تحرميني من وجودها. يكفي ما حدث حتى الآن ماريتا أرجوكِ يكفي.

نظرت لي ماريتا ولازالت تبتسم بلطف أربكني...

فجأة طرقات خفيفة تنقر باب منزلي بلطف!. أتلفت ناحية مصدر الصوت، ثم أعاود النظر إلى ماريتا فلا أجدها، يعود صوت طرق الباب بشكل أقوى، ربما يكون جورج، أخطو نحو الباب بتثاقل، يطرق الباب بعنف شديد، أفتحه فأجد السيد ابانوب!، أجفل. ما الذي أدراه بمكان سكني؟!، يستأذن للدخول، أومئ وأنا أشير له بالدخول، يصل إلى صالة الجلوس، يخبرني دون مقدمات أنه يعلم بأن ماري طريحة الفراش، أسأله بحدة:

_ما الذي أدراك؟!، من أنت أنسٌ أم جان؟، (أكمل بحنق شديد:) بوجودك أشعر بأشياء غريبة تحدث معي. أشياء لا تفسير لها، أرى أشياء لا يصدقها عقل بشري، قل لي مما خلقت أنت؟!.

يجيبني بهدوء تام استفزني:

_لا تخرج عن صلب الموضوع، دعك من الرتوش، دعني أخبرك بما يهمك معرفته الآن. (أقترب مني وهو يلتفت وكأن أحدهم يتبعه، أدلى لي بورقة صفراء صغيرة قد عصف بها الزمن، ترافقها قارورة زجاجية بحجم عقلة الأصبع، وأكمل هامساً بصوتٍ يشبه فحيح الثعبان:) أولاً خذ هذا العقار ولتشرب منه ماري. ستشفى!.

نظرت له مشدوهاً أقول:

_ماذاااا!!!.

أردف بحدة:

_ لكن لا يغرك شفائها لأنه سيكون بشكلٍ مؤقت. (ثم أكمل بصوتٍ محشرج:) خذ هذه الورقة، يوجد بها أسم جزيرة، أذهبا إليها، ستجدان حراساً يملئون المكان لا تجزعا منهم' لن يؤذونكم إن قلتم لهم (يا بارئة اللعنات) إياك أن تنسى، هناك فقط وأنت فقط من يمكنك إنقاذ ماري من الموت المحتم. لا تتردد في الذهاب، ومن الأفضل في أسرع وقتٍ ممكن، وإياك أن تنسى أخذ الصندوق الخشبي معكما، وإياك الخطيئة على أرض الجزيرة، وإلا ستفشل وستموت ماري سدى، إياك.

وبقيت كلمة إياك تتردد كثيراً، واختفى السيد ابانوب وكأنه لم يكن، نفضت رأسي، ربما لأنني لم أتناول دوائي منذ مدة عادت تحتلني الأوهام، شعرت بملمس في يدي اليمنى! نظرت إليها فأجد القارورة الزجاجية الصغيرة والورقة التي أدلى لي بهم، أفزع! أعود بخطواتي إلى الوراء اصطدم بالكنبة التي خلفي فأرمي جسدي عليها، أفتح الورقة الصغيرة أفزع لما رأيته قد كتب داخل الورقة

_حقاً لقد كان هنا! لقد كان هنا!. (اكرر جملتي القصيرة كثيراً)

أذهب إلى جورج على وجه السرعة، أحدثه عما حصل، يقترح الذهاب إلى مخبر صديق له لتحليل العقار، أومئ معلقاً:

_ ربما أنها فكرة صائبة.

أقود بسرعة هوجاء كادت أن تودي بنا إلى الهلاك، نصل فنجد المخبر مغلق، أصرخ بحنق شديد:

_أكاد أجن، لا أستطيع الانتظار، فلتهاتف صديقك أو لنبحث عن مخبري آخر.

_أرجوك أن تهدأ قليلاً؟.

يهاتف جورج صديقه، نعود لسيارتي نجلس بها وننتظر، بعد خمسة عشر دقيقة مروا علي كخمسة عشر عاماً يصل صديق جورج، لم يكن شاباً كما توقعت، بل

كهلاً مخضرم يدعى (إيثان)، يترجل جورج من السيارة وأتبعه على وجه السرعة، ألقي التحية وشرعا بتبادل أطراف أسئلة وأجوبة معتادة (كيف الحال.. وما الأخبار.. ومجاملات لا فائدة منها)، اقاطعهم بجدية عدة مرات مبرراً خطورة الأمر، يحملق بي إيثان ببلاهة، يشرح له جورج الأمر لكن بطريقة منطقية بعيداً عن الحقيقة الخرافية، مدعياً أنني من اختراع العقار لعلاج ماري، وشرح له وضعها الصحي المحيّر، ويود التأكد من مفعوله والمواد المستخدمة كأول تجربة لي، إيثان مخبري ممتاز ومجدّ في عمله، لكن علتّه الوحيدة أنه كهل لا يحب أن توجه له أيّ أسئلة أثناء عمله مهما كانت أهميتها، أجرى المزيد من التحاليل والتجارب على الحيوانات الصغيرة، كانت عيناي تتبعه منتظرة النتيجة، بينما كان بدوره يرمقنا بنظرات غريبة، منها المبهمة، ومنها المتفاجئة، وما زاد فضولنا إنه في كل تحليل وتجربة يصرخ مشدوهاً:

_يا للهول، شيء رائع، بل شيء مريع.

أظنه أنتهى، فأسأله عن النتيجة ليجيبني على وجه السرعة بكلمته المعتادة وكأنه لا يتقن قولاً غيرها:

_هششششش

واضعاً سبابته على فمه، بينما عيناه تجحرني، بعد وقت متواصل من الجهد والتعب يصل حتى ثمانية ساعات متواصلة، وأخيراً أدلى لنا بالنتيجة المبهمة بسعادة:

_أنك بارع حقاً، لم أستطع تحديد المواد المستخدمة في العقار، لكن الشيء الوحيد الذي أثبته لك أن العقار يشفي أيّ مرض عرفته البشرية منذ الأزل حتى الآن!، شيء لا يصدق!، عقار لم أستطع معرفة خواصه أن صنعناه بكثرة ستكون قادر على أن تنقذ الملايين من المرضى الذين تنتهي حياتهم بسبب أيّ مرض كان، هذا العقار سيخلد التاريخ به اسمك حتى الأزل، و سيجعلك وذريتك من أثرى أثرياء الكرة الأرضية برمتها، هذا العقار الذي كنت أحلم باختراعه دوماً... (ضحك ملئ شدقيه حتى بانت نواجذه الاصطناعية ثم أكمل :) يا للهول شيء لا

يصدق كيف استطعت إعداده وما المواد التي تم على أساسها هذا العقار، أكاد أجن.

النتيجة أغرقتني بسعادة غير معتادة، تدارك جورج فضول إيثان قائلاً:

_كما تعلم أنه سر لا يستطيع البوح به.

يومئ إيثان كثيراً وهو يردد:

_هنيئاً لكَ أيها الشاب، هنيئاً لك.

أتناول من يده ما تبقى من العقار وأهرول نحو سيارتي، يتبعني جورج على وجه السرعة، يبدو الطريق أطول مما كان عند المجيء، جورج مدهوشاً يرشق أسئلته الكثيرة كما يرشق الفلاح النشيط حقله، لا أجيبه على أيٍّ منها، فتفكيري كان مكرساً أن ينتهي الطريق بأقصى سرعة، وأرشف ماري هذا العقار، وأراها بصحتها مرة أخرى، نصل إلى المنزل، أفتح الباب بعجلة جعلت المفتاح يسقط من يدي التي ترتعش أكثر من مرة إلى أن تتم العملية بنجاح، أهرول نحو حجرتي التي ترقد بها ماري، أُجلس رأسها على قدمي، أفتح فمها ثم أسكب ما تبقى في القارورة الزجاجية في فمها عن آخره حتى يتلاشى هو وحلم إيثان وحلم إنقاذ البشرية برمتها عن أخره، وانتظر.. وانتظر لا شيء يحدث، تمر ثلاث ساعات ببطئ مميت، يخرج جورج عن صمته قائلاً:

_يا للغباء ننتظر كالأبلهين شيئاً يشبه السراب، يبدو أن إيثان قد أصابه الخرف، يبدو أنه يجب أن يغلق مخبره ويرحل إلى جزر هاواي أو ربما المالديف ليترّفه ويقضي بهما أيامه المعدودة.

أحملق به ووجهي ككتلة نار مشتعلة، أحاول أن أكتم غيظي قدر الإمكان، أفكر في الصراخ في وجهه، لكنني أحزم أمتعة الغضب بجهد، ثم أجيبه برقة قدر ما أمكنني:

_فلتدعني معلقاً بحبال الأمل، حاول ألا توقعني من أعلى هضاب التفاؤل، تجرد قليلاً من سلبياتك لمرة واحدة لأجلي على الأقل، ربما عليك إعادة دراسة علم النفس من جديد أيها الطبيب جورج.

تظهر ماريتا من بين حبال الآمال المعلقة وتنقذني من جدال قد يتحول لعراك، لازال جورج يتكلم لكنني لا أسمعه ولا أفهم مما يقوله شيئاً، فتفكيري قد شل تماماً، وتركيزي قد سلط برمته نحو ماريتا وماري، تنظر ماريتا إلى وجهي برقة، تقترب مني كثيراً، لأدرك أنها تقترب من ماري! تنظر إليها بأسى، تمسح بيدها برقة على جبينها، ثم تزفر هواءً دافئاً ضبابي اللون على وجه ماري، فترمش ماري بعينها من رقته، ثم تعطس برقة، تتوهج عيناي فرحاً لما أرى، تنظر لي ماريتا وعلى ثغرها بسمة فرح، ثم تتلاشى سريعاً، وأخيراً تفتح ماري عيناها التي تهرول في أرجاء الحجرة، بينما جورج يردد:

_يا للهول ،كيف حدث هذا؟.

_أين أنا؟ ما الذي حصل!؟. (تسأل ماري)

_لا تقلقي أنتِ بخير. (أجيبها وعيناي تمطر فرحاً)

تعلق عيناها بعيني لبرهة ثم تحاول أن تجلس من مقعدها، تعيد تكرار سؤالها:

_ما الذي حصل لي؟!.

_من هو السيد ابانوب؟. (أباغتها بسؤالي)

_من يكون هذا السيد ابانوب؟.

_رجل غريب الأطوار يدعي أنه تربطكِ به صداقة قديمة لكنكما على خلاف.

تهز رأسها نفياً ثم تضيف:

_لا أعلم عما تتحدث؟! ولم أسمع بأسمه قبل الآن البتة!.

تدهشني أجابتها، أروي لها تفاصيل مبعثرة منذ بداية معرفتي بـالسيد ابانوب حتى الآن، كانت ملامحها تمتعض وأنا أسرد لها بعض التفاصيل، وتهز رأسها باستنكار، وتنكر لفظياً أي معرفة سابقة بهذا الشخص الغامض، إلى أن وصلت إلى ما حصل أثناء مرضها المبهم، والقارورة الزجاجية التي ساعدت بشفائها، مؤكداً على ما قاله السيد ابانوب، أن شفائها مؤقت، فقوة اللعنة التي أصابتها لا يبطلها أي ترياق، و حياتها على المحك، لذلك فأن حياتي على المحك أيضاً، ولأجل إنقاذ أنفسنا علينا الذهاب إلى الجزيرة المدون أسمها على هذه الورقة الصفراء، التي أدليت لها بها وجعلت ملامحها تفزع!...

يقترح جورج أن نذهب إلى منزل السيد ابانوب، أومئ ربما فكرة حسنة لنبدأ من السيد ابانوب، من هو؟ من يكون؟ بل ما يكون؟ تؤيد ماري الفكرة وتصر على الذهاب برفقتنا

أقود بسرعة لا بأس بها، نصل بعد نصف ساعة، لا يوجد منزل! سوى منزل مهجور كما تركته في المرة الأخيرة، تصيبني نوبة هلع، يرمقني جورج وماري بنظرات مبهمة، أصرخ بحنق شديد في وجههما:

_صدقوني هنا منزله!، لقد زرته أكثر من مرة، كان قصراً من عصر الزمن الجميل، لم يكن كذلك إلا في المرة الأخيرة، (أذكر شيئاً مهماً، أصرخ قائلاً:) انتظرا تذكرت لدي رقم هاتفه الذي اتصل بي منه في المرة الأخيرة (أبحث في قائمة الاتصال لدي لا أجده، أين أختفى الرقم! أعيد المحاولة لأكثر من مرة لا فائدة، أغمغم بحنق: إذاً كالمرة السابقة لا يوجد رقم، أصرخ بحنق شديد كاد يقتلني: يكفي) أترجل من سيارتي، أسئل المارة عن مالك هذا المنزل المهجور، لا أحد يعلم! كل منهم يقول بأن حال المنزل هكذا منذ أعوام طويلة، ولا يذكرون عنه شيئاً، يرمقني جورج بنظرات مبهمة، ثم يترجل من السيارة يحاول إعادتي للسيارة لنرحل، لكنني أصر على معرفة الحقيقة، تتبعنا ماري، ننتظر كثيراً،

وأسأل كثيراً لا فائدة، إلى أن مر عجوز فسألته عن مالك هذا المنزل المهجور بحنق أزعجه، رمقني بنظرات مبهمة ثم رد سؤالي بسؤاله المبهم:

_وما شأنك أنت بمالك المنزل؟!.

_أرجوك أخبرني أن كنت تعلم. (أسئله برجاء ينطوي على بعض اللين)

أعاد سؤاله بطريقة فظة:

_وما شأنك بمالك المنزل؟ أني لا أخبرك عنه شيئاً، حتى تخبرني سبب اهتمامك بمعرفته؟.

_أرجوك فقط أجبني، هل أسم مالك هذا المنزل هو السيد ابانوب؟.

أعتلا قسمات وجهه الدهشة، أجابني وهو يومئ:

_هذا صحيح، وما أدراك؟.

أخبرته بتفاصيل ما حدث إلى أن جاءني السيد ابانوب في هذا اليوم، كانت ملامحه تمتعض، غمغم قائلاً بهدوء هامساً لنفسه لكن هدوء الليل أسمعني صوته:

_إذاً أنت المختار (وأكمل بصوتٍ مسموع، مشيراً إلى ماري) أنتِ ماري أليس كذلك؟ (تومئ ماري مؤكدةً ما قاله، ثم يكمل:) أين ماريتا إذاً هل التقيت بها أم لا؟

أعتلا قسمات وجهي ووجه جورج وماري الدهشة والمزيد من الصدمة ،سألناه بصوت واحد:

_و ما أدراك بماريتا! ماذا تعلم يا هذا؟.

بدأ يروي لنا تفاصيل مبعثرة يعلمها:

_ماريتا وماري شقيقتان تؤام.

اعتلى قسماتنا الدهشة المفزعة....

_ماذا؟ هذا مستحيل!!!!. (تقول ماري)

_ماذا؟ كيف ذلك؟ ولا تعلم أحدهما بوجود الأخرى!!. (سأله جورج بدهشة)

_لأن السيد ابانوب قد وضع كل واحدة من ابنتيه في مكان!

صرخت بصحبة جورج بصوت واحد:

_ابانوب والدهم؟!!!!!!.

_لا مستحيل أنت تكذب يا هذا!، أنا وحيدة والدتي، ووالدي قد توفي قبل أن ألد ببضع شهور. (تجيبه ماري بقليلٍ من السخرية)

رمق ماري ببضع نظرات اخترقتها كالسهام فأصمتها، ثم نظر إلينا قائلاً:

_نعم ابانوب والد ماري وماريتا، أدعى (جوشوا) كنت أعمل لديه حارس لبوابة القصر، لم يكن بحاجة إلي، لكنني قصدته في يوماً ما عندما كنت مهاجراً من بلادي إلى هذه البلاد، بعد أن توفيت عائلتي بطوفان ابتلعهم، فغدوت أبحث عن رزقي بعيداً عن تلك البلاد التي سلبت مني أغلى ما أملك، كنت شاباً يافعاً آنذاك لازمته حتى أختفى عن وجه الأرض، كان يعمل مشعوذاً عرفته الأرض بأسرها، كان يقصده الأشرار أمثاله من مشارق الأرض ومغاربها، كاد أن يصل ملك النمرود بسلطته على العالم السفلي، أنجبت زوجته هيلين ماري وماريتا، لم يكن سعيداً بما رزق، فكان حلمه ذكر يرث شره وملكوته على العالم السفلي، فهجر زوجته سنتان ثم عاد ومكث معها عاماً، ثم رزق بمولودٍ ذكر، أقام لأجله الأفراح سبع ليالٍ، أحتفل بهم مع الأنس والجان، فكان كل من يعرف ابانوب شيطانٌ مثله، ولا فرق بينهم وبين العالم السفلي، وبعد ثلاثة أشهر شاهدت ابانوب وجه الفجر يسوق ابنتيه اللتين تبكيان بذعرٍ شديد رق قلبي لهما فتبعته، علمت أنه يود

التخلص منهما، أصمتهما فجأة بطريقته الشيطانية، ظننته قد قتلهما، إلى أن وصل إلى شرق البلدة، وضع إحداهما بصحبة صندوق خشبي بجانب منزل امرأة، علمت فيما بعد أنها لا تنجب، وقصدت ابانوب بقصد ذلك قبل أيام من الحادثة، لكنه لم يفلح بمساعدتها وأظنه قصد ذلك، وساق الأخرى إلى جانب باب ميتم في ليلة ثلجية، تركهما يقاسيان معاناة البرد والوحدة واليتم طوال حياتهما، تركهما وعاد إلى منزله.

تصرخ ماري مذعورة:

_نعم يراودني هذا المشهد كثيراً، سواء في أحلام اليقظة أو كوابيس الليل المفزع، ظننته مجرد هذيان يختلقه عقلي الباطن.

_إذاً ماري من تربت في منزل السيدة التي لا تنجب، وماريتا من تربت في الميتم، لكن لماذا فعل ذلك؟!!، أيّ أب هو؟!!. (أسأل)

أستدار جوشوا هاماً بالرحيل، استوقفته كي يكمل باقي القصة، لكنه أبى معللاً أننا لا نبدي له أيّ احترام، اعتذرنا جميعاً منه وبعد المزيد من المحاولات معه أكمل قائلاً:

_تبعته إلى أن اقترب من الوصول لمنزله، كان هذا المكان في ذاك الزمان أراضٍ بور مهجورة،(قال وهو يشير بيده إلى العمارات الشاهقة التي تحف القصر المهجور من كل جانب، ثم أكمل:) لا يقصدها أحد بل لا يتجرأ أحد على الاقتراب منها خشية شر ابانوب وأعوانه، من ذا الذي يتجرأ على المكوث بجانب النمرود، لهذا كان من الطبيعي أن يشعر بوجودي خلفه، بحركة خاطفة لا أعلم كيف أحكم قبضته حول عنقي ورفعني عن الأرض، ظننته يريد قتلي!، لكنه قبل أن تفارق روحي جسدي رماني أرضاً، اقترب مني بحركة لم أتبين ماهيتها، أظن أنه كان يطير عن الأرض، وكان بوسعه فعلها، فقد كان حديث البلدة في ذاك الوقت عن ابانوب وشره وقدراته ومعجزاته، كان الجميع يخشى تطور شره و يتحاشاه، كي لا يقلب فوق رؤوسهم البلدة بأسرها، قال لي هامساً بصوتٍ كفحيح الثعبان:

_أن حصل عكس ما أريد سينسى الجميع ابانوب، إلا أنت سيأتيك يوماً المختار أخبره القصة كاملة.

ثم استدار هاماً بالرحيل، ثم أشار إلي بسبابته مهدداً:

_إياك أن تتبعني أبقى هنا.

لكنني تبعته، سمعت صوته وأعوانه يهلهلون كعادتهم بكلمات غير مفهومة، لا أعلم كيف ساقتني قدماي إلى حجرة نومه؟، للحقيقة كنت راغباً بسرقة شيء يجعلني ثرياً لحدٍ ما، وبالفعل قد وجدت صندوقاً خشبي يحتوي بعض المجوهرات التي تخص السيدة هيلين، وبعد هروبي أدركت أن به مخطوطة، هربت إلى البيت المقدس، كنت متأكداً أن ابانوب سيحرق العالم بأسره لأجل هذه المخطوطة، لكنني لم أجرء على العودة، لهذا قصدت مكاناً نقياً لا سلطة لابانوب عليه، لكنه وجدني في نهاية الأمر عندما كنت بصحبة رفاق السوء في ليلة سمر، قيدني وعاد بي إلى جانب قصره، أخذ مني المخطوطة وترك لي صندوق المجوهرات قائلاً في وجهي بغضبٍ هادر:

_لقد شفع لكَ عندي طمعك، وتلوث سريرتك أيها السارق، سأتركك لأجل الرسالة التي ربما سأحتاج منكَ تأديتها يوماً، أن لم تسير الأمور على ما يرام سينسى الجميع ابانوب إلا أنت لا تنسى ذلك، إياكَ أن تتبعني هذه المرة؛ (استدار هاماً بالرحيل، ثم استدار مهدداً بسبابته، يقول بصوته المفزع:) سأعود لك أن انتهى الأمر كما أريد.

واختفى ابانوب، وبعد ثلاث ساعات زمنية تحول القصر لما تراه الآن، لم أعلم ما كان مصير زوجته وأبنه جو؟ وبالفعل لم يعد أحد يذكر ابانوب، بت أجري صباح اليوم التالي أسأل الجميع عنه، لا يذكره أحد وكأنه شيئاً لم يكن، هذا جلّ ما أعلمه. كنت أراقب الفتيات من بعيد حتى بلغت كل منهما سن الرشد وأنساني الزمان ذكرهما بعدها.

_هل تقصد أنا المختار؟. (سألته بفزع)

_أنت يا ولدي المختار، أنت فقط من باستطاعتك إنقاذ التوأم من الموت الحتمي، ستظهر ماريتا، قدرك أن تلتقي بهما، وقدرهما ألا ينقذهم سواك.

ضحك جورج بسخرية ولم يعقب، بينما ماري رمت جسدها المتهالك على قارعة الطريق، تسند نفسها على عامود الإنارة الذي عانقها بود، غارقةً بشرودها السرمدي، بينما تزاحمت الدموع في محجري، وبدأت الهطول بغزارة، أجبته بأسى:

_لكن ماريتا ماتت.

_ماذا؟!!.

أخبرته عن ماريتا وكيف كان موعد زفافنا قريب، وكيف ماتت بعدها كل أنثى عرفتها وأوشكت على الزواج بها، باغتني يتفوه بالحقيقة التي بحثت عنها طويلاً:

_قد طالتك اللعنة أيها المختار، هيلين جعلت ابانوب يغضب غضباً استجمع به قوى الشر أجمع، لهذا وطأة اللعنة ستصيب كل من اقترب ممن نزلت عليه.

_وما كان هو سبب خلافه مع زوجته؟. (يسأل جورج بسخرية، فما زال مصراً على إنكار حقيقة ما يحصل)

_رغم حبه الكبير لها، إلا أن هناك المزيد من الخلافات، البعض منها بالنسبة لي لازال مبهماً، فقد كانت السيدة هيلين طيبة جداً، لم تكن على رضا بما يفعله زوجها منذ البداية، ومع الوقت زادت الخلافات واحتدت بينهما كثيراً، إلى أن باتت تكرهه، حاولت كثيراً الفرار منه بصحبة أطفالها، لكنه بصحبة أعوانه من العالم السفلي سرعان ما يجدها، كان يخبرني دوماً لو لم تكن هيلين عشيقته التي يهواها بجنون لتخلص منها فوراً لكنه لا يستطيع العيش دونها.

_ألم تعلم ما حل بالسيدة هيلين وابنها جو؟(أسأل)

_مطلقاً.

أذكر شيئاً، أدلي به فوراً بطريقة تائهٍ وجد ضالته:

_لكنه أخبرني ذات مرة أن زوجته أصيبت بمرض خبيث أثناء حملها، و ماتت بعد إنجابها لولدهما جو، وجو قد فارق الحياة بعدها وكان حزيناً لما حصل.

ضحك العجوز كثيراً حتى بانت نواجذه الفارغة، وعلق قائلاً:

_مجرد هذيان، أحداث من ضرب الخيال، أتعلم قد أخبرني بهذه الرواية ذات مرة، لكنها رواية خرافية كان يتمنى حدوثها، كان حينها في حالٍ يرثى لها، يتناول النبيذ بشراهة لم اعتدها منه، لا أعلم ما الذي جرى بينه وبين السيدة هيلين في الفترة الأخيرة، لأنني لم ألتقي بها آنذاك مطلقاً، ولا أعلم ما كان مصيرها؟.

_لقد قتلهما. (تقول ماري وعيناها تمطر ألماً)

_ماذاااااااا؟ (يقول جورج)

تكمل بأسى:

_نعم هذا تكملة المشهد، قتل الطفل الصغير شبح يرتدي رداءً أسود اللون، كنت أراقبه عند باب غرفة زرقاء اللون، ثم حملني رجل بصحبة فتاة أخرى وكان يطير بنا بينما أنا والتي معي غارقون بنوبة بكاء، ولا أرى سوى ذلك. (شهقت بعض الأوكسجين ثم زفرت أنفاسها بشدة ثم أضافت:)هنا ينتهي الكابوس في كل يوم.

أجفل لما قالته ماري، أذكر ما شاهدته بعيني، أروي لهم تفاصيل ما شاهدت في منزل السيد ابانوب، في حجرة جو، وكيف فصل ذاك الشبح رأسه عن جسده، وكيف في المرة الثانية وجدت سيدة وذاك الشبح والطفل غارقون ببركة دماء، وكيف تم قتلهم بطريقة وحشية، تهز رأسها ماري إيجاباً وهي تردد:

_هذا تماماً ما كان يراودني في كوابيسي دوماً.

بينما يفزع جوشوا لما قلته، يهمس في أذني قبل أن يرحل جملة قد أفزعتني:

_هناك ستجد الحقيقة، فلتسرع بإنقاذ ماري، حان دورك أيها المختار، نهاية ماري تعني نهاية قلبك الحتمية، لا تنصت لمن حولك أتبع قلبك وكن شجاعاً.

ورحل وأنا لازلت أتتبعه بنظراتي متجمداً في مكاني، باغتُ جورج قائلاً:

_سأذهب إلى الجزيرة صباح الغد.

_كفاك سخفاً يا رجل، أتصدق هذا الخَرف؟!.

جحظت عيناي نحوه، وأجبته بحنق شديد كاد أن يقتلع حنجرتي:

_ألم تسمع ما قاله؟ ألم ترى تطابق الأسماء والأحداث بين ما قاله وما حصل معي وما كنت أشاهده؟ وما حصل مع ماري أيضاً، أجبني هل ما حصل ككل من ضرب الخيال؟ مجرد عثرات، بل كما تسميها مجرد خرافات، هيا أجبني؟!!!.

_ممكن أن تكون مجرد صدفة. (يقول جورج بارتباك شديد)

_الصدفة من الممكن أن تحدث مرة أو مرتين، لكن أن تكررت الصدف فلتتأكد حينها أن هناك خطباً ما يخفيه القدر يجب استكشافه يا جورج، قبل أن يصب القدر غضبه، لن ينفع الندم حينها، ولن تكون هناك فرصة أخرى للنجاة، أتدرك الآن خطورة الأمر يا جورج!.

صمت جورج ولم يعقب على كلامي، صعدت سيارتي بصحبة ماري التي دخلت في نوبة بكاء صامتة فتبعنا جورج، أوصلته إلى منزله وعدنا إلى منزلي، أجلست ماري على الكنبة، ساد الصمت لوقت طويل بينما كلٌ منا غارقٌ بضجيج أفكاره ومشاعره المتناقضة، غارقٌ بين الحيرة والدهشة، بين الوهم والحقيقة، أمسكت الورقة التي أعطاني إياها السيد ابانوب أتأملها (جزيرة الموت!) أسمها يفزعني، أسأل نفسي كثيراً عن سبب تسميتها بهذا الاسم المفزع، أنفض رأسي لا يهم، يجب أن أذهب لحجز تكت طائرة، لماذا لم أسمع بأسم هذه الجزيرة يوماً؟، ولم

أسمع أحدهم قد قصدها يوماً، لنرى ما قصة هذه الجزيرة، أذكر جملة السيد ابانوب، وأذكر آخر ما قاله بشأن صندوق خشبي يجب عليّ أخذه معي، لكن أيَّ صندوق خشبي كان يقصد؟!.

أفكر كثيراً في كل لقاء وكل حديث وكل شيء قد حصل بصحبة السيد ابانوب، لا أذكر شيء يخص صندوق خشبي، ليس لدي سوى هذه الورقة ودمية تلك الطفلة، تلك الطفلة!، نعم أيهما كانت هل كانت ماري أم ماريتا؟!، أبتسم عندما أذكر شكلهما، طفلتان بريئتان، ماذا يخفى عني بعد!، أنظر إلى ماري بأسى، أسأل نفسي:

_ما الحقيقة التي جعلتكِ طريحة الألم، وجعلت ماريتا طريحة الموت، ما المعجزة التي سأجدها في تلك الجزيرة و ستنقذنا!؟!.

أدخل إلى حجرتي أفتح دولاب الملابس، بغية أخذ ملابس نظيفة، قاصداً آخذ حمام دافئ، ألمح صندوق خشبي قد شاهدته مسبقاً بحوزة ماري، وأخبرتني مسبقاً أنها وجدته في منزلها، الذي تحول لرماد، وبقي هو في معجزة كادت تفقدها عقلها، نعم هذا هو الصندوق المقصود، أحزم بعض أمتعتي والصندوق والدمية والورقة الصفراء الصغيرة، وأضعهم جانباً، أخرج بصحبة الحقيبة والصندوق الخشبي قائلاً:

_نعم قد عزمت على الذهاب، يجب أن أجد الحقيقة وأفك اللغز.

تضيف ماري:

_سأكون بصحبتك أليس كذلك؟.

_بالطبع، فيجب أن نذهب سوياً، هذا ما قاله السيد ابانوب.

تسأل برجاء تائه يحلم بإيجاد ضالته::

_هل يعقل أن حديث السيد جوشوا حقيقي!، هل يعقل أن السيد ابانوب الذي لم يشاهده سواك والدي!؟.

_هناك دائماً أشياء عصية على الفهم، لا تكترثي لما قاله، لنعتبر ذهابنا إلى تلك الجزيرة مجرد سياحة.

تقول بأسى والحزن قد نبت من قلبها و عرّش على ملامحها:

_يجب أولاً أن تروي لي القصة بتفاصيلها، كل ما حدث معك بتفاصيله يا دانيال، أرجوك أكاد أجن.

جلست وبدأت سرد الأحداث بتفاصيلها المملة منذ البداية وحتى النهاية، ثم ذهبنا لحجز تذكرتان، أسأل عن جزيرة الموت يخبرونني أن أقرب منطقة لها يوجد بها نقل جوي مدينة اندرنيكوس، ثم عليّ أن أقصد ساحل باربرة عن طريق النقل البري، وفيما بعد قارب يقلني إلى الجزيرة، الموعد في السابعة من مساء الغد، إذاً الجزيرة موجودة بحق، سررنا للبداية المشرقة، ثم ذهبنا وتناولنا وجبة العشاء في الجوار، ولا زلنا نناقش تفاصيل ما حدث إلى أن عدنا إلى المنزل في وقت متأخر، في صباح اليوم التالي طرق باب منزلي بشدة، إنه جورج، شاهد حقيبة أمتعتي المركونة جانباً، صرخ في وجهي بحنق شديد:

_كفاك سخفاً يا رجل، هل ستذهب إلى تلك الجزيرة؟!.

_بالطبع سأذهب، ولو تطلب أمر إنقاذها أن أجوب مشارق الأرض ومغاربها حافي القدمين لما ترددت بفعلها أبداً.

_تسمى الجزيرة (جزيرة الموت) أيّ لم يقصدها أحد وقد عاد حياً، جميع من دخلها فُقد! شأنها كشأن مثلث برمودا، ألم يفزعك اسمها، ألم يثير فضولك تسميتها بهذا الاسم، أفهمني دانيال!، أنني أخشى عليك من أتباع هذه الخرافات التي لا يصدقها سوى الأغبياء، أولئك الجهلاء الذين يصدقون الأساطير، ويؤمنون بكلام المشعوذين.

يفزعني ما قاله جورج لا أنكر ذلك، لكنني سأذهب حتى أن كان مصيري الموت، أجيبه بتحدي:

_نعم...(أصمت برهة، ثم أكمل قائلاً:) أفضل الموت وأنا أحاول، على أن أجلس وأراقب ماري إلى أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، ثم لا تنسى أنني سأنال مصير الهلاك، أتطلب مني أن أمضي حياتي بانتظار الموت يا صاح.

_أرجوك دانيال، أنت طبيب جراح، هذا يعني أنك من المثقفين الواعيين، لا تدع الخرافات تلتهمك وتقضي عليك، أخشى عليك من الأذى.

أومئ، ثم أردف بنبرة صوت هادئة:

_أفهمك جورج، لكنني لا أستطيع تجاهل ما حدث، أنني أؤمن بحقيقة ما حدث، يجب علي المحاولة، لا أستطيع أن أقف مكتوف الأيدي، وأدع حرباً فتاكة تقام بين قلبي وعقلي إلى أن تقتلني، يكفيني ما عانيته، جورج أرجوك تفهم موقفي من الأمر، يجب أن أذهب إلى تلك الجزيرة.

يومئ كثيراً، يرمي جسده بتثاقل على أقرب كنبة، يزفر أنفاسه بحدة، يسأل:

_كيف ستذهب؟

_قد حجزت تذكرتين إلى مدينة اندرونيكوس، ثم سنقصد ساحل باربرة براً، وهناك سنجد سفينة تقلنا للجزيرة .

_لا يوجد سفن تنقل ركاباً لتلك الجزيرة، كما أخبرتك مسبقاً فتلك جزيرة الموت، ولا أظن أن أحدهم يجرؤ على الاقتراب منها بعد أن فُقد كل من قصدها.

_أستأجر قارباً.

_و من سيؤجر قارباً ببضع نقود، ويخسر ثمنه بأكمله، لتصل أنت لتلك الجزيرة، أنت لا تعلم خطورة الأمر يا دانيال، البعض يجزم أنه سيخسر روحه مقابل ذلك.

أجيبه بحدة:

_سأشتري قارباً يا جورج، ولو استدعى الأمر سأصنع سفينة كسفينة التيتانيك، وسأبحر لتلك الجزيرة.

_حاول أن تفهمني، عنادك هذا سيؤدي بك إلى الهلاك.

أجيبه بحدة:

_أفضل أن تلفظني الحياة، وأكن لقمة سائغة ممضوغة في جوف الأرض، على أن أرى ماري تذبل كزهرة ربيعٍ، طرحتها رياح خريفٍ متمردة أرضاً.

_إذاً أنت تصر على الذهاب.

_كثيراً.

_فلترافقك السلامة، أنتبه لنفسك، أنني أحبك يا صاح. (قال جملته بأسى، جذبني إليه وعانقني طويلاً، سمعت شهيق أنفاسه يختلط بحرارة دموعه)

بكيت كثيراً، وكنت أردد: وأنا أيضاً، سأشتاق إليكَ كثيراً.

همّ جورج بالرحيل، ثم أستدار وهو يمسح دموعه بمنديل ورقي قائلاً:

_وداعاً ماري.

أستدير فأجد ماري على باب حجرتي، تومئ وتبتسم له، يبدو بأنها كانت تنصت للحديث منذ بدايته

أردفَ بأسى:

_لا تطل المغيب يا صاح.

رحل جورج، وقد ترك خلفه فوضى عارمة قد أحدثها في جوفي.

نجلس في المطار ننتظر موعد طائرتنا، ماري بجانبي قد التهمها التفكير، تتناول كوب قهوة فرنسية ساخنة قد اشتريتها لها منذ لحظات، أنظر حولي أتفقد ملامح المسافرين، أجفل لما أرى! بينما تضحك ماري لما ترى، يباغتني قائلاً:

_لم أستطع تحمل فكرة الابتعاد عنك يا صاح، (يضيف بمرح ضاحكاً:) يبدو أننا كما تربينا سوياً، سنموت سوياً، هيا فلنبتسم للكاميرا

(وأشار بيده لأحدهم، ليلتقط لنا صورة فورية، تناولها من صاحب الكاميرا، ووضعها في جيب حقيبته الخارجي مبتسماً)

أجاريه قائلاً بمرح:

_أهلاً بك يا صاح في رحلة الجنون.

يومئ ضاحكاً بشدة، ها هو مكبر الصوت يعلن عن بدأ رحلتنا، أستقل الطائرة بصحبة ماري وجورج وامتعتنا والصندوق الخشبي الذي لا يفتح، أحاول طول المسافة فتحه لا فائدة، يصيبني الملل، ثم أعاود المحاولة من جديد، لا جدوى! لا تبدي ماري أي ردة فعل، تنظر لي فحسب، يغلبني النعاس، يوقظني جورج يعلمني بنهاية الرحلة، أجد ماري تضع رأسها على كتفي، وقد غرقت في نومٍ عميق، أوقظها برقة، نترجل من الطائرة بخطوات مرتبكة، نتناول وجبة بسيطة من مطعم للوجبات السريعة في الجوار، ثم نجد سيارة أجرة، أطلب منه إيصالنا لمرفأ بلدة باربرة كي نجد قارب يقلنا للجزيرة، يفزع وتمتعض ملامحه، يغلق باب سيارته بقسوة، ويهم بالرحيل، وهو ينعتني بالمجنون، يرمقني جورج بنظرات تعني (أرأيت) لا بأس. أعرض عليه مبلغ باهظ فيوافق فوراً، أرمق جورج بنظرة تحدي تعني (أرأيت).

يقودنا حيث وجهتنا، بعد مسير ساعتين ونصف نصل، نترجل من سيارته، أنظر إلى الساعة التي تطوق معصمي لأرى كم الساعة، فأجدها قد توقفت عن العمل؛

أخرج هاتفي المحمول من جيب بنطالي لأرى كم الساعة، الهاتف لا طاقة شحن فيه، أسأل ماري وجورج و يخبراني بالمثل فهواتفهما المحمولة قد فرغت من الطاقة أيضاً، و ساعاتهما قد توقفتا عن العمل، وإذ بأحد المارة في منتصف عمره، رث الثياب، مرهق الملامح، منحني الظهر، يبدو عليه علامات المرض، أسأله (كم الساعة يا سيد) بينما أحاول إعادة تشغيل هاتفي المحمول، فيجيبني:

_يبدو بإنك غريب يا هذا؟ (وجه أنظاره إلى هاتفي المحمول وأكمل قائلاً:) لن يعمل هاتفك المحمول، ولا ساعتك التي تطوق معصمك، لا تحاول لا جدوى من ذلك! (ثم أضاف مفجراً قنبلة الدهشة الأولى) على هذه الأرض الملعونة لا مكان للتكنولوجيا! هنا يعيش أهل الساحل حياتهم كحياة العصر الحجري، لا تكنولوجيا ولا كهرباء ولا بيوت معمارية حديثة، ستجد أكواخ خشبية مترامية وبيوت حجرية تعود ملكيتها لأغنياء المنطقة الذين رحلوا بعد أن ظهرت جزيرة الموت، لن تجد أي شيء من العصر الحديث على أرض الساحل.

_ما السبب؟! (أسأله)

_لا أحد يعلم ربما لعنة الجزيرة حلت على أرض ساحل باربرة أيضاً. (يجيبني)

_لماذا إذاً لا يرحلون و يتعايشون مع العصر الحديث في المدينة؟!. (تسأل ماري)

_الفقراء يا أبنتي يحلون أينما رخصت الحياة لهم، يعيشون حيث يقتاتون قوت يومهم، لا يريدون شيئاً سوى ذلك، ليس لهم مكاناً بين سكان العصر الحديث، هم يخشون الأحلام، فكيف تريدين منهم التسكع وسط عصرٍ لا يستطيعون النيل منه سوى الحسرة والألم.

(يقول جملته الأخيرة وهو يهز رأسه بأسى) رحل رغم ندائي المستمر له!.

يضيف جورج ساخراً:

-قد بدأ الغموض والإثارة يا صاح.

أتجاهل تعليقه، أنظر حولنا، المرفأ يعج بالقوارب الصغيرة التي لا أصحاب ترافقها!، تحيطنا هالة دهشة وعلامات استفهام كثيرة منذ أن خطت أقدامنا أرض الساحل، أين أصحاب القوارب ولما حال القوارب هكذا؟!، بعد المزيد من الأسئلة ومحاولات الاستفهام عن أصحاب القوارب، لا يوافق أحدهم على إيجاري قاربه ولا بيعه حتى، مهما بلغ الثمن المعروض عليه، لأن كما يقولون فأن لعنة الجزيرة تصيب قاصدها ومن ساعده بذلك...

يتجمع حولي الناس، بعد أن علموا مرادنا، وأحدهم يصرخ قائلاً باستهزاء شديد ضاحكاً:

_غرباء يريدون قارباً يوصلهم لجزيرة الموت، يا لهم من أغبياء.

يضيف جورج باستهجان:

_قد غدونا سخرية يا صاح.

نظرت إليه بطريقة جعلته يعتذر عما قاله ويصمت على الفور، تجمع حولنا المزيد من الأشخاص، بقينا صامتين نراقبهم، حتى بعد أن أطلقوا المزيد من الأسئلة، كوابلٍ من السهام التي سقطت فارغة.. صريعة عند أقدامنا، رغم ذلك لم ييأسوا، وظلوا يترقبون، لكنها ردت إليهم خاوية، ولم يفلحوا أن يصبهم منا جواباً واحداً، يأسوا أخيراً، طوقونا وجلسوا أرضاً، طلبوا منا الجلوس ففعلنا، تكلموا كناصحين لنا، يرون الكثير من القصص التي شهدها بعض البحارة الذين مروا بجانب الجزيرة، أحدهم شاهد حراساً يقفون فوق الماء أشكالهم مفزعة، جميع من كان بصحبته يؤكد أنهم لم يكونوا بشراً (أجفل...أذكر حديث السيد ابانوب، نعم قد ذكر وجود حراس يملئون المكان على أرض تلك الجزيرة، لكنه لم يخبرني بأشكالهم الغريبة كما يصفونها، ولم يخبرني بأنهم يقفون فوق الماء) أكمل المحيطين بنا سرد حديثهم، البعض يظن أن الحراس يحيطون البلدة من جميع جوانبها، والبعض الآخر يؤكد ذلك، وأحدهم يؤكد أن ما يحيط بالجزيرة

ليس ماء، بل دماء!!!. دماء تحيطها من جميع جوانبها، مؤكداً أنه رأى هذا الشيء بعينيه، وآخر يؤكد أنه في رحلة من رحلاته شاهد الجزيرة بأسرها، تحولت لكتلة نار، دون أن تلتهم النار منها شيئاً، وكل من كان على السفينة أكد ذلك...

ثم اقتربت بوقار من المكان عجوز في عقدها السادس وربما السابع وربما في عقدها العاشر، لشدة كهولتها، تدعى هانّا، عصف الزمان بأركان ملامحها فأطبقها على بعضها البعض، يتدلى من وشاحها الأبيض المرمي على رأسها باستهتار، خصلات تلمع بضوء الشمس بلونها الأغبر، منحنية الظهر، تتوكأ على عصاها الغريبة، برأسها الأفعوانِ، بدأت تروي على مسمع الجميع قصتها، من الواضح أن الجميع يعلمها إلا نحن، قالت:

_أن تلك الجزيرة لم تكن موجودة، استيقظنا في يومٍ من الأيام على صوت جلبة هائلة تصدر من وسط البحر، عاد الصيادون من فورهم، ورحل أكثر من في البلدة في ذاك اليوم، خشية طوفان البحر الذي توقعه الصيادون، لكن عائلتي كانت من الطبقة الفقيرة، تلك الطبقة التي أصرت على البقاء، لعدم توفر المال والبغال التي تساعدهم على الرحيل، فتعايشوا أيام العدة لثورة البحر باستهتار، غير مصدقين بأن ما قيل عن طوفان البحر سيحدث، أو ربما أدعوا عدم التصديق لقلة الحيلة، كنت أعدو بصحبة أخي (لاكي)، الذي اختفى في ذاك اليوم بصحبة عائلتي، ثار البحر! أغرق البلدة لمدة قصيرة، لكن هذه المدة القصيرة قد دمرت منازل الفقراء وتركت منازل الأغنياء الذين رحلوا. لم ينجو من غضب البحر إلا القلائل و أنا منهم، لم ينجو من عائلتي سواي، وربما قد نجا أحد آخر!.

صمتت قليلاً تنسف بباطن كفها بضع لئالئ تدحرجت على انحناء وجنتيها، ثم أردفت قائلة بأسى:

_في مساء ذاك اليوم سمعنا صوتاً كان يتردد صداه في كل مكان قائلاً: كل ما آخذ كان قرباناً للجزيرة الجديدة وساكنيها. وبعد سنوات طويلة من الحادثة توافد الغرباء ليسكنوا في هذه البلدة التي أطلق عليها (ساحل باربرة) أيّ ساحل الغرباء، أكثر من قصد الساحل كان من الصيادين الفقراء الذين توجهوا إلى

عملهم صباح ذات يوم، ما أفزعنا قد فقد الكثير منهم في ذاك اليوم وكل يوم، كنا نظن أن البحر أعتاد على التهام أجساد الفقراء، كنت أسمع ذاك الصوت يردد تلك الجملة بين الحين والآخر، إلى أن أدرك أن أحدهم قد فُقد، لازلت أسمع ذاك الصوت كلما فُقد أحدهم حتى الآن.

صمتت من جديد قليلاً ثم أكملت بصوت متحشرج:

_بقينا على تلك الحالة لسنوات طويلة جداً، الداخل إلى البحر مفقود والخارج منه مولود، ولم يعلم أحدهم ما السبب وراء ذلك

صمتت برهة تشهق وتزفر أنفاسها وتبتلع ريقها ثم أكملت:

_لم نعلم بوجود الجزيرة إلى أن عاد أحدهم في يومٍ ما، وأخبرنا بوجود الجزيرة التي فَقَدَ عليها أصحابه...

وأشارت بعينيها على شاباً دعته ماثيو. مرهق الملامح قد عصف الزمان بحيويته، وعبث بشهيته تجاه الحياة، فجعله هزيل الجسد رث الثياب لا يبالي بالحياة ومتاعها.

فأكمل عنها قائلاً بأسى:

_كان أخي، لقد كان شجاعاً يهابه العمالقة والجبابرة، صدمه ما حصل في ذلك اليوم، حينما وجدوا تلك الجزيرة، كان الهدوء يعمها والنباتات الخضراء والأشجار الباسقة تهيئ لك مظهر الجنة بروعتها، سُر الجميع كونهم أول من اكتشفوا الجزيرة، نزلوا إليها بغية الاطلاع عليها، كانت أطيافاً تلاحقهم منذ البداية، إلى أن تحولت لوحوشٍ كاسرة مرئية، وتحولت الجزيرة لكتلة نار، لم تكن النار تلتهم شيئاً منها سوى أشلاءً بشرية، كان أخي يفزع لمجرد تذكار ما حصل، بدأوا بالتهام أصحابه واحداً تلو الآخر بشكلٍ وحشي، كان أخي يرى الأعضاء المتقطعة وهي تتطاير في كل مكان، هرول هارباً منهم باتجاه القارب، وما أن وصل إليه حتى أمسكه أحدهم وقد أغشي عليه، وفي مساء ذلك اليوم

وجد نفسه في قاربه قرب الشاطئ، أظن أنهم تركوه حياً لنعلم بوجودهم، ركض أخي مهرولاً وثيابه مضرجة بالدماء و كذلك وجهه وسائر جسده، وكأنه خرج للتو من بركة دماء، وقف وسط الساحل وهو يصرخ كالمجنون يخبرهم بما رأه وما حصل لأصحابه، لكن لم يصدقه أحد!، وأتهم أخي أنه من قتل أصدقائه، ومن كان يقتل جميع من فُقد، كثرة المقولات حوله، وأحيك العديد من القصص المفبركة، وانهالت عليه الاتهامات الباطلة، حتى غدى أخي في نظر الجميع مجرماً، تاه أخي كيف يثبت براءته. إلى أن قرر أهل البلدة بالإجماع تجريمه، والحكم عليه بالإعدام!، دافع أخي عن نفسه بحكم غريزة البقاء، كنت آنذاك طفلاً صغيراً في السابعة من عمري، بكيت كثيراً، لم يكن لي في هذه الدنيا سوى أخي، لكنهم أصروا على إعدامه وأجمع الجميع على ذلك. اقترحت عليهم الذهاب بصحبة أخي ليروا تلك الجزيرة، و ليتأكدوا من صحة كلامه قبل أن يعدموه ظلماً، صمت الجميع أمام اقتراحي الصائب، ولم ينبس أحدهم ببنت شفة، فلا يوجد لدى أحدهم دليل يدين أخي. سوى أنه قد عاد من البحر كالمجنون مضرجاً بالدماء، جهزوا مركباً ضخماً، قاده المزيد من الشجعان، قيدوا أخي في عامود وسط المركب، لم يسمحوا لي بالذهاب معهم، لكنني تسللت إلى المركب خلسة، واختبأت. إلى أن وصلنا الجزيرة، فصرخ أخي معلناً براءته، خرجت مهرولاً إليه أبكي، لكمني أحدهم كيف أجرؤ على مخالفة الأوامر، أسكتوا أخي من فورهم، فهم لا يرون أشباحاً ولا وحوشاً كاسرة!، حاول أخي نهيهم عن النزول إلى أرض الجزيرة لكنهم لم يأبهوا لما قاله، فكوا وثاق أخي وقيدوني مكانه، نزلوا إلى تلك الجزيرة وهم يضحكون ويبعثروا كلمات الإعجاب بجمال الجزيرة، وما أن دخلوا الجزيرة وإذ بظلمة شديدة قد طوقت المكان وبالكاد بينت ملامحها، ولا أعلم كيف غلبني النعاس فجأة!...

استيقظت فوجدت الفجر قد نشر بلطفٍ ضوئه الحاني، فأدركت أن صباح اليوم التالي قد أطل، وجدت قيودي قد فكت، نظرت من طرف المركب الذي بدأ مسير العودة فوجدت على ضفاف الجزيرة رؤوس الشجعان جميعهم، ولم يكن أخي بينهم صرخت بحنقٍ شديد باسمه لكنه لم يجبني، ولا أعلم عنه شيئاً حتى الآن؟ ومنذ تلك الحادثة لم يجرأ إلا القلائل الذين ندعوهم بلا ريب بـ (الفضوليين المجانين) على خوض رحلات متفرقة في بحرنا هذا، وبالتأكيد لم يعد أحدهم،

لهذا رحل الصيادون مرة أخرى بعد أن باعوا قواربهم هذه بثمنٍ بخس لوافدين جدد كانوا يجهلون ما يحدث،(مشيراً بأصبعه على القوارب المتناثرة على الشاطئ بكثافة) حاول البعض منهم الإبحار للصيد من جديد بعد أن ظنوا أن ما قيل عن الجزيرة وساكنيها بأنهم (تملكوا البحر وأصبح الموت مصير من تجرأ على الأبحار عليه) مجرد أقاويل لا أكثر، لكن الأخرون لم يعد أحدهم إلى الآن ولا نعلم مصيرهم، ولازال بعض الفضوليين المجانين يقصدونها ويُفقدوا. (قال كلمته الأخيرة بأسى شديد)

ثم أضاف أحدهم:

_لهذا مُلاك هذه القوارب لم يحركوها منذ ذلك اليوم البتة، وكل قارب يبحر في البحر يهلك صاحبه، فقد كان البعض في الآونة الأخيرة يتجرؤن على إيجار قواربهم للفضوليين، لكن الآن هذا مستحيل، (صمت قليلاً ثم أردف بحنق:) إلا أن كنتم تودون الهلاك لنا عندها لم ولن نغفر لكم، يكفينا ما عانيناه حتى الآن.

روي على مسمعنا الكثير من الأقاويل التي أجمع البعض على حقيقتها، لكن ما أجمع عليه الجميع شيء واحد أن الجزيرة ملعونة ولن ينجو من اقترب منها أبداً، أنا الآن في حيرة من أمري، لا أعلم ما عليّ فعله؟!، كيف سأتدبر أمر القارب؟ تبادلت مع ماري نظرات الحيرة، أقنعنا الجميع بصحبة جورج بالأعراض عن الفكرة والعودة من حيث أتينا، حاول الجميع ردعنا عن فكرة الذهاب إلى جزيرة الموت، حاولوا اخافتنا، حاولوا ترهيبنا، ألا إننا (لن نعبئ لكلام أحدهم ولن نعود، هم لن ولم يفهموا خطورة مجرد التفكير بالعودة من حيث أتينا، نحن شخصان قد حكما عليهما بالموت مسبقاً ولديهم فرصة واحدة للنجاة، فرصة واحدة لا أكثر!) هذا ما قلته لجورج، وما اتفقنا عليه أنا وماري بعد أن تفرق أهل الساحل وتركونا بمفردنا.

.....<<>>.....

ها قد عادت بي الحياة إلى دوامة كوابيسي، التي تبين لي أنها إعصار واقعي، لا بد لي أن أغرق وسط دوامته إن أردت النجاة، ظننت في البداية أنها مجرد

سحابة رمادية ستنقضي تدريجياً، ظننت أن العبق بنسيم الهوى ورياح الأشواق ونار الحب المتأججة ستقضي عليها، لكنها كانت مجرد البداية للقاء أبدي، مازال في نبض القلب شوق للقاء لم يحدث، كلما زاد قربه زاد حبه، حتى بت أتنفسه وكأنه الحياة.

في ذات الكوخ نقطن كلٌ منا على سريره، كلٌ منا يعانق نار شوقه، يتدفأ بها وسط رياح البرد القاسية، تأملته ليالٍ عدة، حلمت به، كما صنعت من شرود اليقظة أحلاماً عدة...

تتألق السماء بحشدٍ هائلاً من النجوم للرقص في ذاك المساء، ينظر لهم ويتأمل حيرتهم وهم يبحثون عن القمر لبدء حفلتهم الراقصة! فيكيد لهم المكيدة ضاحكاً وهو يقول: لقد تعذر القمر عن الحضور، فلا قمر في وجود قمري سنبدأ الحفل! تزفني النجوم بعد أن عملت على تألقي الكواكب، فلا يليق بالقمر أن تزينه أيادي البشر (هذا ما ردده) بينما تتألق الأرواح في حجرة الأحلام للقاءٍ سرمدي

وسط انتظار الحشد الهائل، أخرج من بين الظلمات أجمل عروس، تضمني الغيمات مباركة غيمة.. غيمة، بينما سعادتي تعانق السماء بأسرها وتراقصها ضاحكة، لتأتي حبات المطر وتغسل بقايا غبار الانتظار العالق بين ثنايا القلب، وكالعادة لحظة العودة للواقع تأتي لتفسد كل شيء، ما زلت أتساءل أين أنا من الهوى؟

على أرض الساحل ومذ وصولنا بات ملتصقاً بي أمام البحر، ليكن شاهداً على عناق أرواحنا الدائم، سألته كثيراً:

_أين أنا من الهوى؟

وفي كل مرة يجيبني:

_فلتسألي قلبك!؟

_أيعقل أنني بت في أعماقه؟ أيعقل أن طحالبه قد أحكمت على جسدي بأسره؟

_الجواب لديكِ (يرد بهدوئه المعتاد، مما يزيد لهفتي لأكوامٍ من الغزل السرمدي)

_أين أنت من الهوى دانيال؟ (أسأله وقد أحكمت عيناي في عينيه)

_أنا متأكدٌ أنني في أعماقه، قد أحكمت طحالبه على جسدي وروحي وقلبي فصرت كلي لمن أهوى. (يرد بقلبه ولسانه مجرد أداة ليعلو صوته)

_ومن تهوى؟. (أسأل طامعةً بكثيرٍ من الغزل)

_القمر وسط النجوم.

_وما اسمها تلك القمر خاصتك. (أضحك بخجلٍ وكأنه يعلم ما صنعت من أحلامٍ في الخفاء خلسة)

_ميم (من قيدت تاريخ ميلادي) ألف (من أحكمت أغلال آلامي) راء (ريعانة قلبي) ياء (تلك التي يوم امتلاكها أقصى أحلامي)

ظننته سيكمل تركيب الحروف ليصل لأسم ماريتا مما جعلني أرتجف من حدة التوتر، لكنه توقف عند اكتمال اسمي، عانقته بقوة، وأنا أصرخ للبحر:

_فلتكن شاهداً على ما قال.

.....<<>>.....

مكثنا في الساحل لأيام عديدة، كانت ماري تقضي نهارها بصحبتي على شاطئ البحر مما زاد من قوة علاقتنا، تحدثنا عن كل شيء قديماً.. وحديثاً.. ومستقبلاً.. حزيناً.. وسعيداً، تشاركنا الذكريات.. التفاصيل.. المأساة..

حدثتها عن شقيقتها ماريتا كثيراً كما كانت تطلب، وما أن أبدأ كانت تمطر حديثي عن ماريتا ألماً من نوعٍ خاص مما يربكني ويوترني كثيراً.

حدثتني عن من ربتها وكانت تظنها والدتها، في كل مرة تتحدث عنها تبكي كثيراً، فأحاول أن أساعدها على تجرع مرارة الصبر، بينما جورج يمارس مهنته ببراعة على أهل الساحل الذين أحبوه، وكانوا يصطفون بالطوابير بجانب كوخنا للتحدث إليه، سررت لسعادته التي كانت تنضح من ملامحه عندما يدعونه بالطبيب، ويهمس الأطفال والكبار عند مروره (أنه الطبيب) فيتهافتون عليه ضاحكين مسرورين لرؤيته يمر أمامهم وكأنه معجزة ما.

في الليل أجلس وحيداً أفكر، تملكتني الحيرة، تارة يتملكني الفزع على ماري و أعزم على العودة، وتارة أخرى أجزم وأصر على الذهاب إلى تلك الجزيرة، مجرد هواجس تخصني، لا أفصح عنها لأحد.

ذات ليلة باردة عبثت عاصفة هوجاء بهدوء البحر، كان جورج خارج الكوخ، ربما في كوخ أحدهم ممن يرونه معجزة، لم نعد نلتقي به كثيراً، حتى ظننته أنه نسي لما نحن هنا، بينما كنت جالساً بصحبة ماري بجانب مدفأة ملتهبة، نحاول تدفئة أجسادنا التي ترتجف، وكلٌ منا غارق في شروده السرمدي، أفكر لما القدر يأخذني في اتجاهات أبعد مما توقعت! لم أتوقع عدم توفر التكنولوجيا في هذا المكان البائس، لم أتوقع الذي يحصل ككل؟

_يجب أن أتدبر أمر القارب، لا فرصة لديكِ للنجاة سوى الجزيرة، كيف لي أن أتجاهل جميع ما حصل وسيحصل والعودة من حيث أتينا، أظن لا حل لدي سوى سرقة قارب أحدهم! لكن من الممكن في تلك الحالة أن عدنا سالمين من جزيرة الموت أن يكون مصرعنا على أرض الساحل على يد أهله المذعورين. (أقول ما أفكر به بصوتٍ مسموع)

تومئ ماري بعجز، وأنا في أوج حيرتي يطرق باب الكوخ الذي نمكث به، كوخاً صغيراً يخص العجوز هانّا، يحتوي على سريران، أضافوا له سريراً ثالث لجورج عند قدومنا، بالطبع غير مريحان البتة، ملاءة وأغطية ومدفئة تبتلع

الحطب بشراهة ويعصف دخانها الأسود في المكان وفي رئتينا بشكل مثير للبغضة، فقط لا شيء سوى ذلك، تتوجه أعيننا نحو الصوت، انتصبت واقفاً قاصداً الباب بتثاقل، أرتجف من حدة الرياح التي تتسلل من خارج الكوخ عبر الشقوق التي تملئ أركانه، وما أن فتح باب الكوخ حتى هجمت الرياح وكأنها شبح يود التهامي، كان الطارق ذاك الشاب الذي يدعى (ماثيو)، استأذنني للدخول، فأذنت له

_كيف حالكما؟! (يباغتني قائلاً بمرح)

_في أسوء حال كما ترى. (أجيبه بشفاهٍ ترتجف)

_يا لهشاشة أولاد المدن الحضارية. (يقول بمرح)

نضحك على تعليقه، وجه أنظاره نحو ماري:

_الجدة هانّا تنتظركِ أيتها الشابة.

تومئ ماري وتغادر الكوخ متجهةً نحو كوخ الجدة هانّا

ثم باغتني بسؤاله:

_لم تخبرنا بقصتك أيها الغريب؟.

_أيّ قصة؟. (أسأله باللامبالاة)

_ما سبب مجيئكم إلى هنا؟ وما الذي يجبركما على قصد تلك الجزيرة، بل الإصرار على الذهاب إليها؟

أجيبه بسؤال آخر، وأنا أنظر بعينيه مشككاً بإجابته مسبقاً:

_وهل ستصدقني مهما بلغ قصتنا من الخيال؟.

_بالطبع، كما صدقت رواية ساحلنا هذا، والجزيرة الغامضة التي تقتلنا واحداً تلو الآخر أيها الغريب. (يجيبني بعد أن رمقني بنظرة ارتياب)

أدلي له بإيماءة تصحبها ابتسامة، أقنعتني إجابته وأعطتني جرعة جرأة جعلتني أسرد قصتي على مسمعه بسلاسة، كان يومئ إلى أن أنهيت حديثي بجملة (لا يمكنني العودة من حيث أتيت، وإلا ستموت ماري وسيموت قلبي وجسدي على قيد الحياة، لا يهمني شيء جلّ ما يهمني ماري، سأنقذها ولو كلفني هذا حياتي بأسرها)

_أتحبها أيها الغريب؟.

أجبته و نار العشق تفجرت وسرت في أنحاء جسدي فيشعرني لهيبها بدفيءٍ يكفيني العمر كله:

_كثيراً، رغم أن حبها حديث الولادة، ألا أنني لم أشعر بحب يجتاحني، يزلزل أعماقي ويفجر بركان مشاعري الهامدة مثله، أشعر بوجودها وكأنني أملك الدارين (الدنيا والآخرة).

فاجئني بجملته المختصرة:

_ سأساعدكم أيها الغريب!.

اقتربت منه، وبحركة لا إرادية أحكمت قبضتي حول ساعديه، سألته وكل رجاء أن يكن صادقا بما قاله للتو:

_أأنت جاد بما تقول؟.

_فلنقل يساعد أحدنا الآخر.

أفلت قبضتي مطلقاً سراح قبضته، وأسأله مستفهماً ما كان يقصد:

_كيف ذلك؟.

_أنت تريد إنقاذ حبيبتك، وأنا أريد إنقاذ قلبي وعقلي اللذين أصابهما الهرم و كادا أن يفقدا فرصتهم في الحياة.

_لا أعلم ماذا تقصد بكلامك إلى الآن؟.

_أريد أن أعلم ما كان مصير أخي، أن كان حياً سنعد سوياً، وأن كان ميتاً فلي حق الانتقام.

سقطت كلمته الأخيرة مبللة بدموع القهر والضياع وانتظار المجهول، أومئ بأسى لحاله.

.....<<>>.....

أجر جسدي المتهالك، وقد بات قشوراً تغطي عظاماً أحنت خيبات الزمان استقامتها، أتكئ على عصاي، أخشى أن تنطبق جدران هذا الكوخ الرثة علي كما تنطبق على قلبي من رطوبتها وجفاف دفئ العائلة بين جنباتها، أخشى أن أموت وحيدةً.

ها قد أكملت عقدي السابع بمفردي، لا عائلة تحتويني ولاحب اجتاح جنبات قلبي، ولا أطفال يبثون البهجة في ختام رحلتي!

قد عقدت العزم بمجيء الغرباء، سأرافقهم بالذهاب لجزيرة الموت، وسأبحث عن أخي الصغير(لاكي) شعلة حياتي التي انطفأت في ذاك اليوم الأغبر، رغم إقناع الجميع لي بأنه قد مات، ألا أن شعوراً ما يجتاحني على الدوام ويشي لي بأنه لازال حياً.

كان طفلاً في الخامسة من عمره يصغرني بست سنوات، في ذاك اليوم كنت في الحقل أعدو بصحبته ونمرح سوياً، كان طفلاً ضحوكاً بريء الملامح لطيف

المعشر قصير القامة ممتلئ الجسد رجاج الوجنتين الورديتين كم كنت أعشق تقبيلهما.

فجأة باغتنا صوت جلبة هائلة افزعتنا! حينها هاج البحر كالوحش الكاسر يزأر في وجوهنا ويهرول خلفنا راغباً بالتهامنا، حملت لاكي الذي صاح فزعاً بصوتٍ يمزق نياط القلب على ظهري بجهد بالغ، وهرولت هرباً به من غضب البحر، بينما أعدو سقط لاكي من على ظهري، وباعدت بيننا خطوات عدة كانت كفيلة باختفائه عن عيني بلمح البصر! لازلت أذكر خوفه، ولازلت أذكر صوت نشيج بكائه، ولازلت أذكر عيناه الغارقة ببحر الخوف والبكاء كيف كانت تتوسل لي ألا أتركه أبداً مهما حصل، لا زلت أذكر صيحاته وهو يتوسل لي:

_هانّا أرجوكِ لا تتركيني وحيداً، أنني خائف جداً، أرجوكِ.

لكنني فعلتها لأنني أملك وجداً يضج بالأنانية، بل أنه وجد جبان، وها هو لاكي وحده، وها أنا وحدي تنهش ما تبقى مني الجدران البكماء، وذاك السرير البالي، وتلك الكتب الصماء، كانت الوحدة أقل عقاباً لي لما فعلته، كان من الأجدر أن أكون برفقته حتى لو كان الموت مصيرنا.

نعم فرضت على نفسي عقاباً أستحقه، لم أفتح باب قلبي لأحدهم يوما، رغم أن الكثيرون تسللوا خلسةً، ألا أنني طردتهم شر طرده! و تعمدت إهانتهم كي لا يعاودوا المحاولة فاستسلم لهم، وأغدو بين جموع الأطفال والأحفاد أنعم وهو في المجهول وحيداً.

.....<<>>.....

يفتح باب الكوخ فجأة! إنها العجوز هانّا، تباغتنا قائلة:

_وأنا لي حق الانتقام من تلك الجزيرة وساكنيها، سأذهب برفقتكم!.

ننظر إليها بدهشة، تكمل بحرج:

_لم أقصد الاستماع لحديثكما، لكنكم من تركتم الباب مفتوحاً، والفضول من طباع النفس البشرية.

تباغتنا ماري قائلة وقد جاءت للتو:

_إذاً أنتِ هنا أيتها الجدة وأنا أبحث عنكِ، أخبرني ماثيو أنكِ أرسلته في طلبي.

_كعادته يكذب. (تقول الجدة هانّا وهي ترمق ماثيو بنظرات ثاقبة)

أوجه دفة حديثي إلى العجوز هانّا، أكلمها بحزم ينطوي على بعض الحدة، وأنا أتحاشى النظر إليها:

_لا يمكننا أخذكِ معنا، فالأمر خطير جداً.

تجيبني بحنق شديد أفزعني:

_ويحك أيها الغلام، أترى نفسك شجاعاً أكثر من هانّا.

يضحك ماثيو كثيراً، ثم يضيف بمرح:

_إياك العبث مع هانّا أيها الغريب، وإلا ستندم.

أضحك لضحكهم، لا يمكنني منعها، ولا يمكنني الموافقة، أفكر بأخذ موقف حازم بشأنها، يجثم إحساس قاتم على صدري، لكن لا يحق لي الاعتراض، لكل منهم حق الانتقام، فما فعلته الجزيرة وساكنيها كان أشد وطأة من أيَّ ظلم.

_ما الجديد؟. (توجه ماري سؤالها لي وعلامات الاستفهام بادية على ملامحها)

بينما جورج وكز ماري في كتفها لتسمح له بالدخول، نظر الآخر لنا ببلاهة وسأل:

_ما بكم؟ هل من خطب ما؟.

أجيبه بهدوء:

_سنذهب غداً إلى الجزيرة؛ (أردفت بحدة:) ستبقى هنا لا مكان لك بيننا.

يسأل بسخرية:

_كيف؟! ومن قال ذلك؟.

أقترب منه أحكم قبضتي حول عضده، بينما عيناي عانقت عيناه بود:

_جورج لا دور لكَ في القصة، أخشى عليك من الأذى يا صاح، لا ذنب لك في تحمل رحلة شاقة نسبة عدم العودة منها ٩٩٫٩٪.

أحكم قبضته الآخر حول عضدي وهو يقول:

_بلى لي دور هام في القصة، أنسيت أنك صديقي يا صاح أم ماذا؟ (قرب وجهه من وجهي وهو يضيف بحدة:) لن أتركك تذهب بمفردك يا صاح، سأبقى لأحميك مادام قلبي ينبض، لن أتركك أبداً، فلا تحاول، أنتهى الحديث، لنخلد إلى النوم لأجل رحلة الغد.

عانقته بقوة، بينما تسللت بضع قطرات الدموع من عيني تقبل كتفه.

في صباح اليوم التالي أيقظتنا العجوز هانّا، قد هيئت بصحبة ماثيو متاعاً وطعاماً يكفينا لمدة أسبوع كامل، ومركب بدائي لا حداثة به، مجرد شراع، لا بأس به. يملكه ماثيو وقد كان لأخيه لم يستخدمه البتة حتى الآن، أحتاج بعض التصليحات، فغدا في أحسن حال. أمد كلتا يدي على جانبي بتثاقل، لازال النعاس يتملكني، لم أنم جيداً في الليلة الفائتة، قد شغل تفكيري القصص والأقاويل المتداولة حول الجزيرة وساكنيها، وما تخبئه لنا من مفاجآت وربما مصائب وربما بركان جحيم سيثور و يبيدنا عن آخرنا، ضميري يلكزني لأجل جورج الذي لا ذنب له في هذه المغامرة، أخشى عليه من الأذى أكثر مما أخشاه على نفسي.

كنت آخر من صعد على متن المركب بصحبة أمتعتي وصندوقي الخشبي، تجمع على الشاطئ أهل ساحل بربرة يشيذعونا بنظرات الوداع المؤلم الذي ليس منه عودة، ودعتهم هانّا بقلبٍ حديدي، لم تلفظ عيناها دمعة واحدة، مؤكدة لهم بشموخها عودتنا القريبة، مما ساعد شعور الراحة والطمأنينة بالسريان في روحي المرتعدة، والاستقرار في أحشائي المتخبطة، كانت بداية رحلتنا هادئة ومحفوفة بمشاعر متخبطة بين التوتر والسعادة والخوف ولذة السعي تجاه الانتقام.

ثم مضى ساعتين ونصف ونحن راكدين وسط البحر، لم نرى جزيرة ولا أيّ شيء سوى الماء تحيطنا من كل جانب، هدوء البحر عجيب في شهر يناير الذي من المفروض ألا تتوقف رياحه وأمطاره المصحوبة بعواصف رعدية! لم يكن أحدنا من البحارة، ولم يكن أحدنا يعلم ما علينا فعله في مثل حالتنا، حل المساء و أسدل الليل ستائره الحالكة الظلمة، ولا زلنا وسط البحر الذي عمّ بهدوء غريب، لم تساعدنا مجرد نسمة للتقدم خطوة إلى الأمام منذ الصباح.

_ما الذي يحدث، ما علينا فعله الآن؟. (أقطع الصمت السائد بسؤالي)

_ربما هكذا قضى السابقون نَحْبَهُم؟!. (تجيب ماري بفزع)

_أيعقل هذا؟ لكن لو كان الأمر كذلك لعادت القوارب محملة بجثثهم، ثم أنني قد عشت تفاصيل الرحلة إلى جزيرة الموت وطريق العودة لازلت أذكر كل شيء، لم نمر البتة ببحر هادئ كالذي نحن به الآن، أيعقل أننا تهنا في البحر. (يعلق ماثيو)

_كيف نتوه ونحن لم نسير بمركبنا إلا لوقت قليل، الغريب أنه حجب عنا الساحل تماماً كما أننا لا نرى ملامح جزيرة، ثم أتعلم ما مشكلتك أيها الفتى؟. (تسأل الجدة هانّا، وعلى وجهها علامات استفزاز متعمد)

يضحك ماثيو كثيراً، ثم يعقب:

_أنني غبي. أليس هذا ما تودين قوله أيها العجوز؟.

وكزته هانّا بعصاها بغيظ, ثم أردفت بغيظ:

_فلتصمت إذاً، (ثم وجهت سؤالها لي) ما رأيك في الأمر أيها الغريب؟

_بالمناسبة أدعى دانيال!، لماذا تدعونني بالغريب على الدوام، كما أنني طبيب أفضل من الطبيب جورج

تضحك الجدة هانا ثم تجيب:

_ربما لأننا لم نشاهد غرباء منذ زمن طويل، فسكان الساحل الحاليون لم يغادروا ولم يدلف إلينا أيّ غريب منذ سنوات عدة، أيّ منذ آخر دفعة تهجير وتوافد حصلت إلى ساحل باربرة، وأنت كنت قائدهم حين دلفتم إلينا.

_ بالنسبة للعجوز هانّا جميعنا غرباء، وجميع من يقطن الساحل غريب، فهي الوحيدة الباقية من السكان الأصليون. (يقول ماثيو بسخرية)

تشتعل الجدة هانّا غيظاً من تعليقات ماثيو، بالنسبة لي هذا الشاب يضفي جواً من المرح وسط هذا الهدوء القاتل، تعيد الجدة هانّا سؤالها الذي لازال معلقاً:

_ما رأيك أيها الغريب ما الذي علينا فعله الآن؟.

أرفع كلتا يدي وأنا ألف رأسي يميناً ويساراً بحركة تعني (لا أعلم)

توجه دفة السؤال إلى جورج:

_وأنت أيها الطبيب ما رأيك؟.

يجيبها بتؤدة:

_للأسف يا جدة لا أعلم عن البحر شيئاً؟ لا أرى بيدنا حلاً سوى الانتظار، لكن علينا أن نبقى متيقظين، وأخذ الحيطة والحذر.

أضيف بمرح ساخراً من اللقب الذي التصق بي عنوة:

_ما رأيك أيها الطبيب دانيال، (أضيف وأنا أطلق ضحكة عالية) لا أعلم يا جدتي؟.

يضحك الجميع لضحكي، ماري تجلس على يساري، أستلقي أرضاً واضعاً رأسي على حقيبتي، أتأمل السماء الصافية بصمت، في ليلة يجب أن تلبدها الغيوم وتغرقها الأمطار، مر اليوم الأول ببطئ، وأشرق الصباح حاملاً بجعبته الأمل، لكنه سرعان ما انتهى بخيبة، ومر اليوم الثاني، وها قد أطل الصباح الثالث طابعاً بوهج شمسه الحارقة اليأس على سحنتنا.

مجتمعون وسط المركب وعلى وجوهنا ملامح اليأس، لا نملك من أمرنا شيء، لا نستطيع العودة ولا التقدم خطوة وسط هذا السكون الرهيب، أتحاشى النظر إلى جورج الذي كان يغط بهدوء عميق، ولا يبدي أي ردة فعل. يتآكلني الذنب تجاهه لكن لا فائدة من الندم الآن سوى حنظل أضيفه لمرارة ما أمر به.

كادت زوادتنا أن تنفذ رغم حرصنا الشديد عليها، فقد مر أسبوع كامل ببطئ مميت، حتى شعرنا وكأنه حاملاً بجعبته العمر كله، مستلقٍ على أرض المركب واضعاً رأسي على حقيبتي، أتصفح وجوه الجميع، أراقب اليأس الذي ينسكب من أعينهم، أبحث في ملامح السماء عن بصيص الأمل، فجأة يحدث اهتزاز في حقيبتي، شعرت به بقوة، لكنني في البداية لم ألقي له بالاً، استقمت و خطوت واصلاً لحدود المركب أراقب هدوء البحر المميت، ثم أهرع إلى حقيبتي بسرعة، يخطر لي في بادئ الأمر أن شبكة الاتصالات أصبحت متاحة في هذا الساحل المعدوم من كل شيء، يسألني جورج فزعاً بينما عيون الجميع تترقبني وقد اجتمعوا حولي:

_ما بك؟!.

_اهتزاز في حقيبتي، شعرت به بقوة. (فتحت سحاب حقيبتي العالق بالخيوط المتناثرة بتثاقل، أخرجت الهاتف لا زال مطفئ) لا يوجد شبكة؟. (أقول خائباً)

_إذاً ما الذي أحدث صوت اهتزاز في حقيبتك؟. (تسأل ماري)

_لا أعلم؟.

يسأل ماثيو بينما عيناه تعانق الهاتف المحمول ببلاهة:

_ما هذا؟.

_أنه هاتف نقال، ألم تراه قبل الآن؟. (يسأل جورج)

_لم أره قبل الآن البتة، ما يمكنه فعله؟!. (ثم يضيف ببلاهة مضحكة) هل يستخدمونه لأغراض الشعوذة؟!.

تجيبه ماري بينما شفاهها تبتسم:

_لا. هو للتواصل. (ثم تغرق في نوبة شرح طويلة، بينما ماثيو يومئ لها ببلاهة تشي بأنه لم يفهم كلمة مما تقول)

كانت الجدة هانّا غارقة بتفكيرها الحالك بصمت، بينما عاد صوت الاهتزاز بقوة أكبر بينت لي مصدره، أنه الصندوق الخشبي! أخرجته من حقيبتي، ووضعته على أرض القارب، جحظت عيني الجدة هانّا باتجاهه، اقتربت مني بسرعة شابة في العشرين من عمرها، أحكمت يدها حول عنقي تسأل، وعيناها يتطاير منها الشرر:

_ما الذي أتى بهذا الصندوق إليك؟!.

أجبتها بفزع:

_إنه لماري، وجدته في منزلها، ولا أعلم سوى ذلك؟.

تنظر ماري بفزع إليها، وقد أحكمت قبضتها حول مقبضي الأيسر، بينما وقف جورج يراقب ما يحدث، تناول ماثيو الصندوق يتأمله قائلاً باستفهام:

_ما الذي أغضبكِ أيها العجوز؟، لا أجد أيّ شيء غريب في هذا الصندوق الخشبي!.

تناولت الصندوق من ماثيو تتأمله، وقالت:

_قد وجدت كتاباً على شاطئ الساحل رسم فيه هذا الصندوق، حدث ذلك بعد حادثة طوفان البحر بأيام، كان عنوان الكتاب بلغتنا (جزيرة الموت، غموض لا نهاية له) لكنني لم أعلم ما كتب داخل الكتاب؟ كانت لغة مبهمة ولا زالت بالنسبة لي، كنت أتأمل طريقة رسم الصندوق، وطريقة حفر النقوش عليه، رسومات كثيرة لشريرة عجوز شمطاء تنظر من بعيد لهذا الصندوق، وصورة أخرى يضع أحدهم في الصندوق مخطوطة وأشياء لم أفهم ما هي، وتارة أخرى أحدهم يحمل الصندوق ويهرول هارباً من تلك العجوز التي تتبعه، وعلى صفحة أخرى رسمت العجوز بأبشع مظهر، كانت مرعبة لدرجة أنني في كل مرة أشعر بها تتحرك وأشعر بها حولي، فأرمي الكتاب واهرول هاربةً منه، ثم أعد للمنزل الذي كنت أمكث به، وأجد ذاك الكتاب على سريري تحت وسادتي، بقيت على تلك الحالة طوال عمري حتى فقدت الكتاب في السنة الماضية.

_لا نعلم ما المدهش في القصة أيتها العجوز! (قال ماثيو جملته بملل)

_الشيء الوحيد الذي استطعت فهمه في ذاك الكتاب، أن الصندوق من سينقذ أهل الساحل من غضب الجزيرة. (قالت الجدة هانّا جملتها وهي تجلس بجانبي)

_كيف ذلك وهو لا يفتح لنعلم ما به؟. (تسألها ماري)

_أظن أن هذا الصندوق لا يفتح إلا بتعويذة خاصة به يعلمها أهل السحر.(تجيبها الجدة هانّا)

_وما الفائدة مما ذكرته يا هانّا، وأنتِ تهرولين نحو الصندوق كشابة ظننته صندوقاً يحتوي كنزاً قد سرق منكِ. (يقول ماثيو بسخرية مستفزة جعلت العجوز هانّا تستشيط غضباً)

_ألم أقل لك مذ كنت صغيراً أنك غبي. (يومئ ماثيو ضاحكاً، تكمل الجدة هانّا بحنق شديد)فلتصمت إذاً أيها الفتى الغبي.

باغتنا جورج قائلاً وعلى شفتيه ضحكة عريضة:

_للحقيقة ما حصل حتى الآن جعلني أنفصل عن الواقع، غدوت أشعر أنني في عالمٍ من الخيال، وما يدهشني أنني أشعر بمتعة لم أشعر بها قبل الآن قط، وبودي أن أشكرك يا دانيال، لكن لا تسألني لأجل ماذا بالتحديد، أشعر أنني أود شكرك، وها أنا أشكرك.

_أتسخر مني يا جورج!. (أسأله بحدة)

هز رأسه نفياً، وملامحه أكدت لي صدق ما قال، جلست أفكر في كلام العجوز هانّا، ربما أتوصل لأي شيء، لكنني للحقيقة أصابني النعاس ولم أفهم مما ذكرته الجدة هانّا شيئاً، وسرعان ما غلبني النوم بجانب الصندوق.

.....<<>>.....

_ها قد مضى على تيهنا ثلاثة أسابيع يا أبتي، ندور في الجزيرة كما يدور عقرب الساعة حول نفسه، ولا جديد حتى الآن سوى أن زوادتنا على وشك النفاذ.

كانت عينيّ والدها تتصفح الكتاب بنهم، تبحثان عن ثغرة النجاة، أردفت وجد بأسى:

_لا أعلم ما الذي يسلب عقلك في كتابٍ كهذا؟ يحتوي بعض الرسومات الواضحة والكثير من الخربشات المبهمة!.

_أين روح المغامرة التي كنتِ تتحدثين عنها دوماً يا وجد؟. (أجابها بتؤدة)

أردفت وجد بأسى شديد، أضاف لملامحها القلقة مسحة حزن:

_عن أي مغامرة تتحدث يا أبتي، ونحن وسط هذه الجزيرة لا نستطيع التقدم ولا العودة من حيث أتينا، حتى أنه لا يوجد بشري آخر غيرنا، ويح هذا الكتاب هو السبب!.

_لا تضعين أخطاء حدثكِ على عاتق الكتاب يا وجد، وأنا لم أطلب منكِ مرافقتي بهذه المغامرة، كما أنني لم أشئ ذلك، إنما أنتِ من شاء ذلك.

أردفت وجد وقطرات الدموع تتدافع وسرعان ما انسابت على خديها كنهرٍ جارف:

_ألازلت تحسبها مغامرة!، يبدو أن هكذا قضى السابقون نحبهم يا أبتي.

ربت على يدها، ثم أردف قائلاً بحنان:

_ما بكِ يا وجد؟ ما الذي أثبط عزيمتك؟!.

_قد تلاشى أمل نجاتنا يا أبتي، لا أخشى على نفسي، إنما عليك؛ يبدو عليك التعب الشديد، وأنت تنفي ذلك، تكابر و تتحامل على نفسك.

تنهد بأسى وأجابها:

_لازلتِ تعلمين خبيئتيّ يا وجد.

_عيناكَ لازالت تشي لي بالكثير يا أبتي.

_وبماذا تخبركِ الآن يا وجد؟.

_أنك نادم على إتباع فضولك يا أبتي.

_أصبتِ، جل ما يهمني يا وجد شيءٌ واحد، أخشى أن تغدين وحيدة في هذه الجزيرة الموحشة!.

_أرجوك لا تتفوه بمثل هذه الكلمات يا أبي، مجرد الفكرة تفزعني، أرجوك كن قوياً لأجلي. (قالت وجد كلماتها بنبرة تشوبها المرارة، بينما عيناها غرقت ببحرٍ من الدموع)

نشأت وجد في قرية هاربيت المطلة على البحر، حيث تحف الجزيرة من طرفٍ آخر يبعد الكثير عن ساحل باربرة.

كانت وجد فرحة أبيها الأولى. حيث دبت بجسده الروح، و أنعشت قلبه الذي جف من طول الانتظار، لذلك سماه بأسمى أسماء الحب و أرفعهم (وجد) والذي يعني أشد أنواع الحب والهيام. لكن فرحته كللت ببصمة سوداء لا تنسى، حيث ماتت زوجته بعد صرخة طفلته وشهق نفسها الأول! فأصبحت وجد له كل الحياة وأصبح لها كل الكون، بات يتنفس عبر ضحكاتها، وباتت تتنفس بوجوده.

كان السيد مايكل عالم آثار، جذب انتباهه حديث الجميع عن الجزيرة الغامضة، والتي أطلق عليها سكان العالم أجمع (جزيرة الموت) شاء زيارتها منذ القدم، ألا إن الفرصة لم تتح له إلا الآن.

ترعرعت فكرة اكتشاف الجزيرة ونمت في السنوات الأخيرة، حيث وصلت لذروتها، ولم يعد شيء يكبح جماحه للذهاب إليها سوى وجد، حيث أن وجد لم تسمح له بالغياب عنها أبداً، حاول كثيراً التملص منها لينطلق نحو شغفه، لكن سرعان ما كان قلبه يعتصر لفكرة غيابه عنها، فيرتد عن الفكرة أو يؤجلها إلى وقتٍ لاحق، حين تكبر وجد قليلاً ويكن باستطاعتها الاعتناء بنفسها فترة غيابه عنها. أخِذاً بالأسباب: عله لا يعود من تلك الجزيرة، ويفقد في أعماقها، وتموت

حكايته وسر الجزيرة معه، و يدفنوا على سطح أرضها الغامضة كمن سبقوه؛ فهذا الاحتمال كان وارد جداً، لهذا تحامل على نفسه منتظراً الوقت المناسب، الذي تبين له على مر السنين بأنه ينتظر السراب! حيث أن وجد كانت كلما مرت السنين كلما ازدادت طفولتها بعينيه، وزاد تعلقه بها كما ازداد تعلقها به. لم يتعلق قلب وجد بأحدهم، لهذا في عامها التاسع عشر حسم أمره، ونوى الرحيل خلسة! معللاً لنفسه علها تجد نصفها الآخر، قلب يشغلها عن التفكير الدائم به. أقفل القضبان حول قلبه كي لا يردعه عن السعي وراء حلمه، وأولى الحكم لعقله كي يتدبر أمر تسلله، لكن الآخر كان مكرساً كيف سيكون حال وجد فترة غيابه، وإن لم يعد ما الذي ستأوي إليه حالها، وسرعان ما يرسم له في مخيلته شكل وجد وهي على فراش الموت، تلفظ أنفاسها الأخيرة شوقاً لأبيها، نفض رأسه بعد تفكير دام لأربع ليالٍ جعلته مرهق للغاية، فغدى طريح الفراش لأيام قد أفزعت وجد خوفاً على أبيها.

كانت وجد تعلم بما يعتلي صدر أبيها، لهذا قررت حسم الأمر بالذهاب معه، متسلحة بروح المغامرة المصطنعة، التي نمت وشبت فجأة، رفض مايكل الفكرة بشكلٍ قاطع.

في إحدى الأيام كانت وجد كعادتها تودع شمس المغيب على شاطئ البحر، ثم تعدو عائدةٍ إلى قريتها على ظهر جوادها قبل الرحيل الأخير، فكانت وجد بطبيعتها تكره النهايات الحزينة، التي تختتم بظلمة حالكة، غير أبهة بالخيوط الرمادية المتسللة من ضوء القمر، تلك الخيوط التي لم تبهرها يوماً... رغم إصرار الجميع على روعتها، ألا أن لوجد معتقدات أخرى، حان وقت المغيب ودقت نواقيس العودة، ركبت على ظهر جوادها (الأبهم) كما كانت تسميه، علا صهيل جوادها ورفع قوائمه الأمامية معلناً استعداده للعودة، رشقت وجد البحر بنظرة مبتسمة، ترثيه بمأتمه القادم بعد دقائق معدودة، وهمت تدير وجهها عنه لترى وجهتها القادمة، لكن ما جذب انتباهها كتاب قديم، قد لفظه البحر لتوه، وكأنه يقدمه لها كهدية، أوقفت جوادها الذي بدأ بخطواته الأولى يهرول، ثم شدت لجامه تحثه على العودة حيث الكتاب، ترجلت من على سطح جوادها، وسارت بتؤدة نحو الكتاب الذي كان عنوانه (جزيرة الموت، غموض لا نهاية له) قلبت

صفحاته المهترئة لا شيء! سوى المزيد من الرسومات و الخربشات المبهمة، أما الكتابات عليه فقد كانت بلغة غريبة، ليس هذا ما أدهش وجد، بل حرارة الكتاب، وعدم تبلله بالمياه البتة، وكأنه خرج من الفرن وليس من البحر! حملت الكتاب ثم امتطت حصانها، وعادت حيث يوجد أبيها بانتظارها يَعدُ العشاء كعادته، عاد الشغف يرعى بعقل مايكل بمجرد قراءة عنوان الكتاب، الملفت أن عنوان الكتاب بلغتهم، أما ما بداخله بلغة بهمة، تصفحه بتؤدة، لم يفته تفصيل واحد من تفاصيله، درس كل ما به ثلاث ليال متتابعة، وحاول فك رموزه، وترجمة جمله المعقدة، لكن مع مدى معرفته الواسعة، وخبرته بمثل هذه الأمور لم يفلح إلا بترجمة جملة واحدة بلغة تختلف عما كتب، مؤلفة من كلمتين (بارئة اللعنات) ومع مرور الوقت استطاع تفسير جملة أخرى، كتبت فوق رسمة لنبتة غريبة الشكل تصحبها رسم خريطة مبهمة (نبتة الحياة على أرض الجزيرة) عادت وجد لنوتات أغنيتها القديمة بالذهاب برفقة أبيها للجزيرة، مدعية الشغف بمعرفة أسرارها، لكنها بين جنباتها كانت تود الحصول على تلك النبتة، لعلها تساعد والدها على الشفاء من مرضه المميت، الذي رافقه لأعوام كثيرة، حتى اقترب من الوصول لذروته، لكنه أصر على رفضه بعد مشاهدة الكتاب أكثر.

لكن بعد إصرار وجد الذي دام لسنة كاملة، وافق أخيراً حيث الشغف والفضول تسلل لجوف وجد، وباتت بالفعل تود أن تعلم أسرار جزيرة الموت، حزم مايكل أمتعتهم بتردد، كادت الحيرة تقضي عليه، لكن سرعان ما طبطبت وجد على صراعات قلبه، وكبحت وساوس غراب عقله بابتسامتها المريحة: التي تشد وثاق التفاؤل، وتربط به على قلبه.

ركبوا قاربهم مشيعين جميع من عرفهم بنظرات السرور، الذين ما كان منهم إلا أنهم شيعوهم بنظرات الوداع الأخير، حملت أمواج البحر قاربهم وسارت به نحو (جزيرة الغموض) كما أحبت أن تسميها وجد، لردع الخوف وتنحيته بعيداً عن عقلها الطفولي. وكأن البحر منح وجد كرت استثناء، حيث أن رحلتهم كانت سلسة للغاية، ووصلوا للجزيرة بطرفة عين.

وهاهم تائهون عليها منذ ثلاثة أسابيع، لا يعلمون عن طريق العودة شيئاً، ولا عن التقدم خطوة طريقاً، مهما ساروا يعودون للنقطة التي وصلوا إليها فور اختفاء شاطئ البحر عن أعينهم في اليوم الأول بطريقة غريبة.

.....<<>>.....

استيقظت على صوت اهتزاز بسيط، وكأنه تعمد إيقاظي، أجد ماثيو و الجدة هانّا وجورج نائمين بهدوء، وماري مستلقية بجانبي كملاك، جلست أتأملها لوقت لا يحصى، ما أن تحركت فوقفت لأبتعد عنها، لازلنا وسط البحر الهادئ، أقف أتأمل المكان المظلم حولي، فجأة سطع ضوء أحمر بعيد، كان يسطع بشدة، أيقظت ماثيو والجدة هانّا وجورج وماري على وجه السرعة، أصرخ بمرح ظننت أننا عدنا إلى الساحل، لكن ما أفجعنا أننا اقتربنا من الجزيرة، مع العلم أننا لم نشعر بحركة القارب البتة، بعد ساعة زمنية أطل الصباح بوهج شمسه الحارقة، وقد اقتربنا كثيراً من الجزيرة التي تبدو هادئة، تحبس الأنفاس لجمالها وروعتها، وقفنا مذهولين مما يحدث، وما أن توقف القارب على حدود الجزيرة وإلا قد عمّ الظلام في المكان بأسره، وكأننا قد نقلنا لعالمٍ آخر، لاحت لنا أطيافاً تحلق في المكان، ثم أصواتاً تهرول قد دقت الأرض، ثم صراخ وبكاء عمَّ المكان، تشبث أحدنا بالآخر، فجأة أحاط الجزيرة بحر دماء خاثرة، أشعر بحرارتها رغم علو المركب، رائحتها تسببت لنا بالأعياء، مر وقت حسبته طويل جداً، مع أعصاباً المشدودة وأنفاسنا المكتومة وعقولنا المسلوبة، فجأة ظهر لنا كائنات لا أعلم ما اسميها؟، أشباح أم شياطين! ينقسمون لفريقين، الفريق الأول طولهم يبلغ ثلاثة أمتار ونصف على ما أظن، رؤوسهم سوداء كرأس الثعبان، وأجسادهم كأجساد القرود، فمهم كفم القرش يحتوي على أسنان فتاكة، عيونهم تضيء بلون أحمر قاتم، والفريق الثاني طولهم متران على ما أظن لكن بالتأكيد ليس أكثر من ذلك، وجوههم شديدة البياض، مبعثرة الملامح، عينٌ آدمية شديدة السواد بدون قزحية تتوسط جبهة رؤوسهم، أنوفهم قد ركبت بشكلٍ معكوس عن الأنف الآدمي، أفواههم لا شفتين تحيطهم، يبرز منهم أسنانٌ سوداء حادة الأطراف، يرتدون عباءات سوداء، ووشاح أسود اللون، يغطون به رؤوسهم، التي تتدلى منها خصلات شعر بيضاء اللون. أشكالهم كأولئك الذين وصفتهم لي

ماري ذات مرة، اقتربوا منا ببطئ شديد، يصلون إلينا، ثم يقفون دون حراك، يحدقون بشيء ما! توجهت أنظارنا لما يحدقون به، أنه الصندوق الذي لا أعلم كيف حملته بيدي، وأحكمت قبضتيّ حوله، زمجروا في وجوهنا بغضب، تذكرت ما قاله لي السيد ابانوب، لكنني نسيت الكلمتين اللتين وجب عليّ قولهم فور رؤيتهم، علت الأصوات حولنا، اقترب أحدهم أمسك قاربنا الصغير بيديه ثم أفرغنا أرضاً، و رمى بقاربنا فتحول إلى أشلاء، سقطنا على أرض الشاطئ الرملية، لكن المدهش أننا لم نتأذى من أثر السقوط! هرولت عيناي تجاه البحر، فوجدت الدماء لازالت تحيطنا. أمسك أحدهم بماثيو، بدأوا يزمجرون بغضب وماثيو يصرخ فزعاً، ماري تتشبث بالعجوز هانّا التي تصرخ قائلة:

_أرفع الصندوق للأعلى كيّ يرّوه.

_بينما جورج يردد مدهوشاً فزعاً:

_أقسم أنني لو تحدثت لأحدهم عما أرى بالتأكيد أنهم سوف ينعتوني بالمجنون حتى الموت.

وأنا غارق بين كومة ذكرياتي العفنة، أبحث عن تلك الجملة القصيرة التي قالها لي السيد ابانوب، لكن لا فائدة! حمل أحدهم الجدة هانّا وماري التي تصرخ بفزع أيضاً، بينما رفع آخر بقبضته جورج الذي أصيب بدهشة ألجمت لسانه، رفعت الصندوق للأعلى، أمسكني أحدهم بذراعيه التي تشبه ذراع القرد، لكن بأظافر طويلة حادة، سقط الصندوق من يدي، أدركت أنها النهاية الحتمية، أصابني اليّباس وأنا أتأمل أظافر ذاك الكائن الحادة، وأنيابه التي تقطر سائلاً لزجاً يعبر عن شهيته لتناولي، أغمضت عيناي بهلع، تراءت لي الجملة وكأنني أشاهدها قد كتبت على لوحٍ أبيض اللون، سمعت صوت ماري تصرخ باسمي وكادت تقولها، صرخت بصحبتها بحنق شديد كاد أن يخدش رئتي من شدة ضغطه عليهما بصوت واحد:

_يا بارئة اللعنات.

فجأة وجدنا أنفسنا أرضاً، وقد عاد ضوء النهار واختفت الوحوش على الفور. كنا نشهق أنفاسنا و نزفرها بحدة، وصدورنا تعلو وتنخفض، ننظر حولنا بفزع، أشجاراً باسقة تحف المكان، نباتات خضراء تعلوها أزهار غريبة، ونباتات أخرى قد حملت ثماراً عجيبة بشكلها وألوانها، عشبٌ أخضر قد فرش الأرض حتى طال الساحل فأخفى الرمال، تزينه زهوراً فواحة رائعة الجمال، بحرٌ أزرق ترقص أمواجه بهدوء، والمدهش أن مركبنا قد ركن جانباً ليس به خدش! الجو كجو الصيف اللطيف بنسماته الرقيقة، مما جعل في المكان جواً عاطفياً يبعث الطمأنينة.

_ما الذي حدث؟. (يسأل ماثيو بفزع)

_الجواب عند الغرباء!. (تجيبه الجدة هانّا وهي ترمقني بنظرات مبهمة)

يعلق جورج مصدوماً وهو يتلفت حوله بفزع:

_أكاد أن أصاب بالجنون، ما الذي يحدث يا دانيال؟.

_لا أعلم هذا ما قاله لي السيد ابانوب كما رويت لكم مسبقاً. (أقول مبرراً)

يومئ ماثيو إيجاباً، تعترض الجدة هانّا بحدة:

_لكنني لا أفهم شيئاً، أنا لم أسمع قصتكم منذ البداية أيها الغريب.

جلست أروي لها قصتنا باختصار، بينما جلس جورج بجانبي ينصت لحديثي، لكن هذه المرة بجميع حواسه، يصدق كل كلمة أقولها، ويفهم معناها، كما أنصتت الجدة هانّا إلي بتركيز شديد، استوقفتني مراراً تسألني عن بعض التفاصيل، وكذلك فعل جورج، حاولت التركيزمعهما بينما عيناي تتبع ماثيو الذي يشهق مذهولاً لجمال الجزيرة، قطف ماثيو من الفاكهة الغريبة، لونها أسود وشكلها يشبه وجه القزم و همَّ بتذوقها، صرخت به الجدة هانّا:

_ويحك يا فتى! كيف تتناولها لعلها سامة؟.

_رويدكِ أيتها العجوز، لا داعي للقلق، مذاقها رائع جداً. (يجيبها ماثيو بعد أن قضم لقمة يمضغها بنهم)

أردفت بحدة، بينما ترمقه باشمئزاز:

_ويحك، فتى غبي.

أضحك لجدالها المضحك الذي لا ينتهي، شئت تذوق الفاكهة، لكن شيئاً ما منعني من المحاولة، وشرد بتفكيري نحو ما يجب علينا فعله الآن، كذلك ماري لم تفكر في المحاولة.

_أيها الغريب ما علينا فعله الآن برأيك؟.(تسأل الجدة هانّا)

_كما أخبرتكِ أيتها الجدّة لا علم لي بشيء سوى ما أخبرتكِ به.

تومئ إيماءة قصيرة ،ثم تضيف بحزم:

_لنستطلع الجزيرة إذاً، علنا نجد ضالتنا؟.

_لكن ليبقى الجميع متنبه، علينا أخذ الحيطة والحذر، إياكم أن تغفلوا عن شيء. (يعلق جورج بتؤدة)

أومئ إيجاباً، أحمل بصحبة ماثيو وجورج أمتعة الطعام، تسبقنا الجدة هانّا بعد أن أسندت جسدها على عصاها بصحبة ماري بخطوات ونتبعهم بصمت، جمال الجزيرة لا يوصف، وصلنا إلى مرجٍ أخضر يمر من وسطه نهر يصب في البحر، تعمقنا أكثر حتى وصلنا إلى جبال ووديان مزهرة بزهورٍ وردية تلمع بشكلٍ مثير للدهشة، تفوح منها رائحة غاية في الروعة والجمال، جمالها يحبس الأنفاس، قال جورج مذهولاً:

_أكاد أن يصيبني الجنون، عقلي الباطن لا يصدق ما ترى عيناي، دانيال أن الجزيرة مدهشة للغاية، أنظر إلى الزهور وكأنها فصوص من الماس الحقيقي،

تلمع بشكل يثير البهجة في النفس، (يضحك بشدة، ثم يضيف:) وما يدهشني أكثر أنني متشغف للمزيد، وأشعر أنني لو لم أصحبك لكنت أضعت على نفسي شيئاً لا يعوض، ليت كان هاتفي يعمل، لأوثق به بعض الصور لهذه الطبيعة المدهشة، كيف لم أفكر بإحضار كاميرا للتصوير.

باغته ضاحكاً:

_من يرى ملامحك في المطار، يظن أنك كنت مقدم على عملية انتحارية أيها الطبيب. (وسرعان ما أُتبع جملتي بضحكة مجلجلة بادلني الجميع بمثلها)

أضافت ماري:

_لكن لا أظن أننا لو قمنا بإحضار كاميرا للتصوير، أنها ستعمل في هذه الجزيرة المبهمة، الخالية من معالم التكنولوجيا كحال الساحل.

وكز ماثيو الجدة هانّا وهو يسألها بصوت مسموع:

_ما هي الجينولجا التي يتحدثون عنها أيتها الجدة، وما هي الماكيرا.

_ويحك أيها الغبي، كم من المرات حدثتك عن التكنولوجيا التي اختفت بعد ظهور الجزيرة، لكن بالتأكيد لم تكن بهذا التطور الذي وصلت له الآن، كانت بدائية للغاية (يومئ ماثيو متعجباً، أردفت الجدة هانّا:) كنت غير موجود عندما اختفت التكنولوجيا عن أرض الساحل.

_أذاً تريدين إقناعي أنكِ تعلمين بأمر التكنولوجيا منذ زمن بعيد أيتها العجوز، (ثم أكمل بصوت ماكر يبتسم بخبث:) أم أنكِ تدعين العلم أمام أولاد المدينة؟، أجيبِ أيتها العجوز؟.

_ويحك (تجيبه الجدة هانّا بعد أن حدجته بنظرة انزوى بها الغضب، ثم أضافت بثقة:)على الأقل أنني أعرف بنطقها لست مثلك أيها الجاهل. (وغدت تردد إغاظةً له بسخرية ضاحكةً:) جينولجا، ماكيرا

نغرق في نوبة ضحك، يبادلنا الأثنان بمثلها، ثم بدأ جورج وماري يشرحون لهم عن التكنولوجيا ونحن نتابع المسير، تعمقنا في الجزيرة أكثر فغاب عن أنظارنا ملامح البحر والمدهش أن صوته قد اختفى أيضاً، كنا نستريح بين الفينة والأخرى، نأكل تارة ونشرب الماء تارة أخرى، ونريح أقدامنا التي تصلبت من التعب والإرهاق، وصلنا إلى الوادي لا شيء جديد غير أن المكان غاية في الروعة، مياه النهر تنضح ماءاً ثجاجا، العشب في أهبّ أناقته، ندى الغروب يأجج رائحته الرطبة، الزهور زاد فوحان عطرها بشكلٍ مثير للعطاس، ارتمينا أرضاً طامعين بقليلٍ من الراحة التي لم تهنأ بها ماري بسبب العطاس الذي انتابها

حان وقت مغيب الشمس الأمر الذي قد فاتنا، لا نملك مصباح ولا أي شيء يساعدنا على الرؤية أمامنا، اقترحت الجدة هانّا جمع حطب بسرعة فائقة يكفينا لنضيء المكان بنور لهيبه بينما يحل الصباح، وفعلاً تم الأمر، وها نحن نعمل على إشعال النار بعيداً عن الأعشاب الرطبة التي كانت تُفشل محاولاتنا، مما جعلنا نعمق البحث عن بقعة رملية صلبة، وبعد وقت طويل من البحث وجدنا بقعة دائرية كبيرة الحجم قريبة من النهر، خالية تماماً من الأعشاب ومن ريح الحياة بين حبات رمالها الصلبة، وأشعلنا النار وسطها، بينما كانت المزيد من الأسئلة المبهمة تدور في أذهاننا حول هذه البقعة الدائرية، وخلو الحياة منها، الهدوء يعم المكان، وما يطمئننا أكثر عدم وجود حيوانات برية أبداً هذا ما استنتجته أثناء جولتنا، ما أن حلّ الظلام حتى بدأت أضواء خافتة بين الأعشاب بالظهور، ظنناها في البداية حشرات مضيئة، وربما عيون تترقبنا، جلسنا نراقبها بحذر شديد، مع رحيل الشمس عن أخرها افترشت لنا الأرض بنورها حتى أضاءت المكان بأسره، تبين لنا فيما بعد أن الزهور الغريبة في الوادي كانت تضيئ ليلاً، كان مشهداً لا يوصف، بدأت ماري تهرول بين الزهور المضيئة بمرح وكذلك ماثيو وجورج، كانت ملامح السعادة تجلد كل ألمٍ قد سبقها إلينا، بينما الفزع الذي أحتل أجوافنا يرتعش بعيداً عنا، والأحزان تنوح صريعةً تحت أقدامنا، ابتسمت الجدة هانّا لسعادتنا وعيناها تتفرس المكان بمرح ولازالت عساها تسودها بإخلاص الخادم لسيده.

بدأ ماري وماثيو بالغناء والرقص، وأصوات ضحكهم تعلو، بينما غدوت وجورج أصفق لهم، هرولت ماري نحوي أمسكت كف يدي وبدأت تراقصني بينما شفاهنا تغني بسعادة، و الجدة هانّا تتبعنا على مهل حتى ابتعدنا قليلاً عن النهر، مر وقت طويل يقارن بالعمر كله، ولعله وحده يكفي ليقال عنه أننا كنا أحياء حينه، وكما لكل شيء بداية فهناك نهاية بالتأكيد، وأخيراً رمانا تعب السعادة كلٌ منا في جهة، فوق الزهور المضيئة، لكن سرعان ما أصبنا بحكة جلدية شرسة داهمت أجسادنا بأسرها، فأسرعنا نحو النهر لتبريد حرارة أجسادنا التي ارتفعت، ثم عدنا لتلك البقعة الرملية وافترشناها للنوم، ربما الآن علمت مغزى وجود هذه البقعة، وسرعان ما غطت الجدة هانّا وماثيو وجورج بنومٍ عميق، نظرت إلى ماري نظرة ذات مغزى فهمته، ثم خطوت إلى جانب النهر من جديد، وهي تتبعني بهدوء، جلسنا بجانبه نستمع لصوت خريره المتناسق، تبسمت ماري ثم رمت سهم سؤالها فأصاب مسمعي:

_ألم يغلبك النعاس أيها الغريب؟. (ثم تبع سؤالها ضحكة مقهقهة)

نظرت في عينيها حتى سكنت ملامحها، ثم باغتها قائلاً:

_بل غلبني العشق أيتها الغريبة الحسناء.

تنحنحت ماري بخجل بعد أن طبع على وجنتيها أنوار حمراء متوهجة، أضفت متعمداً ازدياد لهيب خجلها لتزداد حمرة وجنتيها:

_وغلبني الشوق لعناقٍ حارّ أيتها الحسناء.

هرولت ماري عائدة حيث توجد العجوز هانّا واستلقت بجانبها، تبعتها ضاحكاً بصمت، استرقت النظر إليّ، ثم أخفت وجهها المضجر بحمرة الخجل.

استلقيت أرضاً قرب الزهور المضيئة التي تحيط الدائرة الرملية الصلبة لأبقى على مقربة منها، وعيناي ظلت تراقبها حتى غلبها النوم فأغلق ستارتها رغماً عني.

_ماري... ماري، هيا استيقظي هناك أمرٌ جلل يجب أن تعلمي به.

_من أنتِ؟. (سألتها وأنا أفرك عيناي بأطراف كفيّ)

_أنا ماريتا يا ماري، هيا تعالي معي، (نظرت إليها بريبة، ثم أضافت:)لا تخشي شيء لن أؤذيكِ.

عاودت النظر إليها بنظرات تملؤها الريبة، ربما أنني أحلم!، جذبتني من يدي بهدوء بينما ماثيو ودانيال وجورج والجدة هانّا يغطون في نومٍ عميق، وسارت بي نحو فجوة منبثقة فبتلعتنا فور وصولنا إليها، نقلنا إلى منزل جميل أنه ذاك المنزل، اقتربت مني امرأة حسناء جعلت ذاكرتي تنتعش، أنها ذات المرأة التي رأيتها وأدعت أنها أمي، وهذه توأمي ماريتا، أهمس في نفسي أنني أحلم بالتأكيد، اقتربت مني بوجل تبتسم ملامحها الحانية لمرآي، تنقلت عيناي بينهما، قطعت ماريتا الصمت السائد بإجابة السؤال الذي يدور في عقلي:

_إنها أمنا هيلين يا ماري!.

تبسمت بشكلٍ لا إرادي، لا أدري لماذا أشعر بالسرور لرؤياها؟، لطالما نكرت حقيقة صلتها بي، ولطالما أصررت على أن أمي العجوز المريضة دريانا، اقتربت مني وعانقتني، يا إلهي أنني أشعر بوجودها، أشعر بحرارة جسدها، أشتم رائحتها العطرة!، بكت كثيراً، وهي تستنشق رائحة وجودي، قبلتني كثيراً كما قبلتها وبكيت، بعد انتهاء وصلة الأشواق العطرة، أجلستني بجانبها، باغتهم بسؤالي:

_هل أنا أحلم؟.

_لا. (تجيب ماريتا وهي تهز رأسها باستنكار)

_أين أنا إذاً؟. وكيف أنتم معي رغم أنكم من عداد الأموات؟.

_نحن هنا لمساعدتكِ يا ماري؟!. (تجيب ماريتا بحزم)

_كيف!؟، وأنتم مجرد أموات لا حول لكم ولا قوة.

_هذا صحيح، لكن رغم ذلك تستطيع أرواحنا النقية تقديم العون. (أردفت هيلين)

_كيف ذلك؟، وكيف أنتم هنا الآن؟. (أسأل بحزم)

_إنها أرض الشياطين يا ماري، (صمتت قليلاً ثم اضافت ماريتا باقتضاب شديد:) استطاع (ساروخ) مساعدتنا!.

تتدخل هيلين بجملتها بعد أن حدجت ماريتا بنظرة عتب:

_هذا أمر عصيٌّ عليكِ فهمه يا ابنتي، لا تلقي بالاً للتفاصيل، دعينا نتحدث بالشيء الهام الذي جلبناكِ لأجله

_لا لن تتحدثوا عن شيء قبل أن أفهم كل شيء، أشعر أن الحلم والواقع والوهم والخيال جميعهم أصبحوا في حياتي سواء، يجب أن أفهم كل شيء، وليحصل هذا يجب أن أبدأ بالتفاصيل.

_لكن الأشياء التي تحصل لا يمكن لعقل بشري أن يصدقها؟!. (تقول ماريتا بعد أن حدجتها بنظرة ارتياب)

_سأصدق كل كلمة تقولونها أعدكم بذلك.

تومئ ماريتا لوالدتها، لكن هيلين تجيب بحدة:

_لا نستطيع سرد ما حصل بالتفصيل لا وقت لذلك، يجب أن نرحل قبل ظهور الفجر، استطاع ساروخ ابن ابليس الأكبر مساعدتنا لدخول الجزيرة بعد أن استطاع استحضار أرواحنا.

_كيف ذلك؟، تقولين إبليس أيّ تتحدثين عن ابن الشيطان؟!!. (أقاطعها بنبرة صوت تملؤها الريبة)

_لا تلقي بالاً للتفاصيل يا ماري لا وقت لدينا؟!. (تقول ماريتا بحزم)

_دنهش هو أقوى أولاد إبليس، وهو المتحكم بأرض الجزيرة و ربما حاكمتها، (وقبل أن أقاطعها بسؤالي، أردفت بحدة:) ستعلمين التفاصيل فيما بعد، المهم أن ظهر لكم إياكم تتبعه.

_وكيف سيظهر لنا؟ وكيف سأعلم أنه هو؟!!!.

_سيظهر لكم بهيئة رجل دجوجي اللون، يرتدي على رأسه عمامة، وفي يده الشمال يحمل صليباً (أومئ إيجاباً، ثم تضيف قائلة:) أن ظهر لكم اهربوا، سيظهر لكم فور ارتكاب أحدكم للخطيئة لذا الأهم إياكم والخطيئة، ستصلون ((لأرض النور)) وهناك ستجدون سيرينا وهي ستتكفل بما تبقى.

_وما هي الخطيئة بالتحديد التي تقصدين يا أماه؟!. (أسأل ببلاهة)

_ألم تمروا على قواعد الجزيرة؟!!!. (تجيب ماريتا سؤالي بآخر مشدوهة)

_أي قواعد هذه؟!. (أسأل بحدة)

_يبدو أن هيلانة فعلتها؟، لم يمروا على قواعد الجزيرة كي لا يتلافوا الخطيئة!. (تجيب هيلين بأسف)

_من هيلانة؟!. (أسأل ببلاهة)

_ماذا سنفعل يا أماه الآن؟؟!!!. (تسأل ماريتا بقلق)

تقول هيلين بنبرة تشوبها المرارة والقلق:

_لا وقت لدينا لفعل شيء فلنعد ماري الآن قبل أن يفوتنا الوقت وينتهي كل شيء بانتهائها بصحبتنا.

وبغمضة عين أعادوني حيث كنت، فوجدت الجميع كما تركتهم يغطون في نومٍ عميق، سرعان ما زحفت زرقة السماء، و انقشع الليل الدجوجي بهدوء، أطل وهج الصباح وملئت العصافير المكان بتغريدِها.

_قد مرت الليلة الأولى بسلام لا تشوبها شائبة. (باغتني دانيال بحركته التي أفزعتني، تنبه لفزعي، أَجلس مقعده ثم سألني:) ماري ما بكِ؟، هل هناك خطبٌ ما؟، متى استيقظتِ؟!.

رويت له تفاصيل ما حدث، جلس يحدق بي وينصت لي بكل جوارحه، ويقاطعني بين الفينة والأخرى يسأل عن بعض التفاصيل وعن ماريتا بالتحديد، حتى شعرت ببريق عينيه و لكأنه تمنى لو استطاع رؤياها أيضاً، لكن ما غير ملامحه تلك القواعد المبهمة!.

.....<<>>.....

أيقظني تغريد العصافير المتناغم وكأنها مقطوعة موسيقية يعزفها أمهر العازفين، وخيوط الشمس المتسللة من خلف حفنة من الغيوم القطنية الناصعة البياض، وعبير الزهور الفواحة، وخرير النهر الصافي، وجدت ماري جالسة وقد تكورت على نفسها غارقةً في شرودها السرمدي، انقبض صدري بعد أن روت لي تفاصيل ما حدث، وزحفت تلابيب الحيطة والحذر لعقلي بشكلٍ لا إرادي، فأصبح يتنبه لكل صغيرة وكبيرة تحدث و يدونهم في مخطوطة ويضعهم في المقدمة دوماً، لكن ما أربكني وشل تركيزي تلك القواعد التي ذكرت ماري أنهم تحدثوا عنها لتفادي الخطيئة، أين تلك القواعد؟!!.

استيقظت الجدة هانّا، وسرعان ما تبعها ماثيو وجورج، خرير النهر صوته ينعش الأذان، اقتربت منه، غرفت الماء بيدي وشربت، صرخت العجوز هانّا:

_لا تفعلها أيها الغريب، لا نعلم حتى الآن شيء عن غرابة هذه الجزيرة، ما شاهدناه في بدايتها يثبت أنها ملعونة.

_لم يعد لدينا منذ الأمس نقطة مياه ياجدتي، وهذه المياه شهية، طعمها أحلى من العسل، ورائحتها أطيب من المسك، وكأنها من أنهار الجنة. (أقول)

اقتربت ماري وببطء شديد غاصت قدماها في ماء النهر الذي ارعشتها برودته، غرفت الماء بيدها وبدأت بتذوقه، ابتسمت وهي تنظر لي قائلة:

_كدت أموت من العطش وجه الفجر، ولم أجرؤ على تذوق مياه النهر، المياه شهية الطعم يا جدتي، وكأنها مشروبٌ رائع المذاق

شربت المزيد حتى أرتوت، أقترب جورج وغرف الآخر بيده غرفة مياه وشرب، صاحت العجوز ضاحكة:

_حتى أنت أيها الطبيب، أين الحيطة والحذر التي كنت تحدثنا عنها منذ بداية الرحلة.

يجيبها جورج بتؤدة:

_ليس لدينا المزيد من الخيارات ياجدتي إما أن نموت عطشاً أو نشرب ونملئ قواريرنا الفارغة قبل إكمال مسيرتنا، من الممكن ألا نجد نهر مياهه عذبة تصلح للشرب كهذا النهر

بينما ماثيو غاص في المياه حتى يبتل رأسه، تصرخ الجدة هانّا ضاحكة:

_كعادته الغبي، الطمع من شيّمه.

أخرج ماثيو رأسه ونظر للجدة هانّا قائلاً بسخرية:

_ألا تريدين الاستحمام أيتها العجوز؟، أم أنكِ تخشين اصطكاك عظامكِ الهشة ببعضها من برودة المياه، وتكسرها كزجاج نافذتي الرثة. (وأطلق ضحكة عالية)

ما كان من الجدة هانّا إلا النظر إليه بازدراء، اقتربت من مياه النهر، وكما فعلنا غرفت المياه بيدها وشربت وعيناي تتفرس ملامحها التي ابتسمت لمذاق المياه، و شربت حتى ارتوت، ملأ كلٌ منا قارورته بمياه النهر العذبة، وغدونا نكمل مسيرنا بعد أن تناولنا آخر وجبات طعامنا، يباغتنا ماثيو قائلاً بضجر:

_لازلت أشعر بالجوع، لم تكفيني الوجبة الأخيرة.

_لا يوجد بيننا مرضعة أيها الطفل الصغير، كفاكَ بكاءً. (تقول الجدة هانّا بسخرية تتعمد استفزازه)

_هل تسمحين لي بتناولكِ أيتها العجوز، رغم عدم وجود كتلة لحم تكفي، لكنني سأكتفي ربما بالجلد المنكمش على العظم الهش. (ثم أضاف بإعياء:) مجرد الفكرة تشعرني بالإعياء الشديد.

وكزته العجوز هانّا بغيظ، مما جعله يهرول ضاحكاً، وجعلنا نضحك خلفه، فتبسمت العجوز هانّا، ثم اقتربت تهمس في أذني:

_أتدري أنني أعشق هذا الفتى وكأنه ولدٌ لي، لا تخبره بذلك، دع الأمر سراً بيننا (أومئ ضاحكاً، ثم أردفت بنبرة تشوبها بحة حزن:) ثم إنه يذكرني بأخي لاكي، يشبهه كثيراً بالملامح والطباع.

يقترب منا ماثيو محاولاً استراق السمع، ثم يباغتني قائلاً باستجداء:

_بماذا همست لك؟.

وكزته الجدة هانّا بعصاها، وأضافت قائلة:

_بشيء لا يعنيك أيها الفضولي.

_لم أظنك كذلك أيها الغريب، أتسخر مني بصحبة هانّا. (يقول ماثيو وملامحه تحاول ارتداء ثوب البؤس)

_هذا ما تستحقه أيها الغبي، رغم أنه لم يفعلها قط. (تقول الجدة هانّا)

تهمس لي ماري:

_ماذا قالت لكَ الجدة هانّا؟.

همست لها:

_لم أعلم أنكِ فضولية!.

وكزتني في كتفي، ثم نظرت لي نظرة استجداء، جعلتني أهمس لها على الفور بما قالته لي الجدة هانّا، مما جعلها تضحك كثيراً، باغتنا ماثيو قائلاً:

_يبدو أن العجوز هانّا قد أصابتكم بلعنة السرية التامة، بماذا تهمسان لبعضكما أيها الغريبان؟.

_كفاك تدخلاً بأمور الغير أيها الفضولي، ما شأنك بحديث عاشقان؟!. (تقول الجدة هانّا بعد أن وكزته بعصاها فجعلته يتأوه، ما أدهشني قربه الدائم منها وكأنه يتعمد الاقتراب ليتلذذ بلسعة عصا العجوز كما يسميها)

نظرت لماري أردد تلك الجملة التي أنعشت قلبي:

_ما شأنك بحديث عاشقان؟... ما شأنك بحديث عاشقان؟!!..

تبسمت ماري بخجل وعجلت بخطواتها لتسبقني.

_سكون الجزيرة مهيباً، أليس كذلك؟!. (أقول لتدارك الموقف)

تومئ الجدة هانّا، بينما يقول ماثيو شاخصاً بعينيه تجاهي:

_لقد انقبض قلبي لسؤالك يا صاح، لا داعي لدب الخوف والوجل في قلوبنا، فرعب الجزيرة يكفي، ونفاذ زوادتنا يكفي، وشعوري بالجوع القاتل يكفي أيضاً.

وكزته الجدة هانّا بعصاها بغيظ في منتصف ظهره فصاح متألماً، أردفت قائلة بعد أن قطبت وجهها غضباً:

_فلتكمل المسير أيها الجبان، تخيفك مجرد جملة، فما بالك أن وضع رأسك بين أنياب أحد الوحوش؟!، ما عساك أن تفعل؟!!.

يرد ماثيو بسخرية بينما ملامحه تعصر غيظاً:

_هل تعي ما ترددينه أيتها العجوز، ما عساني أن أفعل أمام وحشٍ كاسر طوله ثلاث أو أربعة أمتار على الأقل، ورأسي بين أنيابه أيضاً، أم أن الخرف قد تمكن من خلايا عقلكِ المهترئة، (ثم أكمل بسخرية مستفزة:) ولماذا نحن رافقناكِ أليس لأجل مواقف كالتي تذكرينها الآن أيتها العجوز الهشة الشجاعة. (وفرّ هارباً من وكزة عصاها بعد أن أطلق ضحكة جعلت الجدة هانّا تستشيط غضباً).

أردف جورج قائلاً، بينما رأسه يلتفت يمنى ويسرى:

_علينا توخي الحذر، فلتبقوا متيقظين، كما قال دانيال سكون الجزيرة مهيب، حتى أننا لا نسمع صوت العصافير ولا أرى أي منها على الأشجار.

أردف ماثيو بنبرة تشوبها بحة فزع:

_أرجوكم لا داعي لإخافتي.

أضافت ماري بهدوء بينما يغلف ملامحها القلق:

_ لنستمتع بجمال الجزيرة يا أصحاب ولندع الخوف إلى أن يحين وقته.

يقول ماثيو بمرح:

_أشاركِ الرأي.

مضى الوقت وهم غارقون بجمال الجزيرة الخلاب، بينما قلبي يتبع ذاك الشعور المفزع الذي يعبث بعقلي، فتحلق عيناي تبحث بين الأشجار عن تلك العيون التي شعرت أنها تراقبنا، مضيت في المقدمة والجميع يتبعوني، إلى أن وصلنا للحافة، وكأننا على حافة جبل لم نشعر بصعوده، مما جعلني أشهق لهول فكرة السقوط التي أوشكت على الحدوث، ارتميت أرضاً للخلف فوقف الجميع يشهقون ويتساءلون أين وصلنا؟.

انتصبت واقفاً اقترب بحذر من الحافة، ننظر وكأننا عينٌ واحدة فنجد المزيد من الضباب الذي تشكل على هيئة سحب مما خيل إلي أننا في أعلى قمة على أرض النار (جبل بازاردوزو) الذي رغبت بتسلقه كثيراً، مما جعلني أقرأ عنه المزيد وأشاهد المزيد من الصور لمن نجحوا بالوصول لقمته، هرولت عيناي للأعلى تتأكد من وجود السماء، كانت السماء زرقاء داكنة، وكانت السحب تحت أقدامنا، حاولت النظر للأسفل، نسمع صوت مياه تصب، وبصعوبة بالغة رأيت المياه تخرج من صلب الأرض التي تحت أقدامنا وتصب في عمق سحيق، مما جعلني أشهق أنفاسي وأتراجع بسرعة قائلاً:

_وصلنا إلى طريقٍ مسدودة.

_ربما علينا العودة والمحاولة في طريق أخرى. (أضاف جورج)

_هو كذلك فلنعد. (تقول الجدة هانّا)

أما ماثيو جلس أرضاً يقول بصوت غليظ كأنه هدير النهر في هيجانه :

_أشعر بجوع سحيق قد جعل في جوفي تجويف رهيب فارغ، أريد طعاماً أوشكت على الهلاك، الشمس تميل بأشعتها جانباً كادت أن تقرر الرحيل.

_و كأننا نرافق طفلاً في عمر السنة لا يفهم عدم تواجد الطعام عندما يغلبه الجوع!، ألا ترى أين نحن؟!!. (تعلق الجدة هانّا بصوت جهوري أجش)

_فلتهدأ قليلاً، ولنعد ونسلك طريقاً آخر علنا نجد شيء نستطيع تناوله. (أقول)

نكمل طريقنا واليأس زاحفاً إلينا راغباً بالانقضاض علينا فنسرع هرباً منه، وتساعدنا الطبيعة على التغلب عليه، ربما لبعض الوقت.

تسقط أشعة الشمس على الغلاف الجوي للأرض فتخترق بلورات الثلج الصغيرة الموجودة على الغلاف، فتصبح وكأنها منشور زجاجي يتحلل الضوء من خلاله إلى ألوان الطيف الضوئي السبعة، فيصبح توقيت الشفق الأحمر، انظر إلى ماثيو الذي يجر جسده جراً، والجدة هانّا التي غلبتها ملامح الجوع والإرهاق، يقول ماثيو بغضب جعل عروق رقبته تبرز وعضلاته تتصلب:

_لم أعد أستطيع التحمل أكثر، أشعر بجوع شديد، ولا أريد السير أكثر، أشعر بألم يقطع أوصال قدمي!. (وجلس أرضاً)

_فلتبقى هنا إذاً، ربما تمطر السماء طعاماً فيأتي رزقك إليك أيها الكسول. (تجيبه الجدة هانّا بسخرية)

احمر وجهه غيظاً، وانفجر غاضباً كالبركان، اقتربت منه اربت على كتفه وأهمس له كيّ يتمالك أعصابه، لكنه لم يستطع كتم جملته الذي صاح بها بغضبٍ هادر:

_كفاكِ سخرية مني أيتها العجوز!.

_فلتهدأ يا ماثيو، فلنقطع حفنات الأشجار الباسقة المترامية هذه، علنا نجد شيء نستطيع تناوله. (أردفت ماري لتنقذ الموقف وهي تشير إلى الأشجار الباسقة التي في نهاية الأرض العشبية التي نسير عليها)

أكمل ماثيو مسيره يسبقنا بخطوات، بينما ذبلت ملامح الجدة هانّا تنم عن شعورها بالإهانة، ربت على كتفها، فوجدت عيناها تحبس بضع القطرات من الدموع،

تبسمت لي تدعي الصلابة والشجاعة، ربتت على كتفي وسبقتني بخطوات، ما أن صارت بمحاذاة ماثيو حتى باغتها قائلاً بندم:

_أعذريني على وقاحتي يا جدتي.

_أعذرك، وهل لا يعذر المجنون على أفعاله؟!. (تقول الجدة هانّا تتعمد استفزازه لتتجرع لذة الانتصار على خصمها)

نضحك لجملتها كما يضحك ماثيو كثيراً وهو يردد:

_لقد تمكنتِ مني، أحبكِ أيتها العجوز.

_وأنا كذلك أيها الغبي. (تجيبه الجدة هانا بمرح، بعد أن انقشع عنها شعور الهزيمة وأصبحت تتلذذ بمذاق الانتصار)

اقتربت مني ماري تهمس لي :

_أشعر بالجوع كذلك؟!.

_أشعر بالحب كذلك. (أهمس لها بمرح)

_ألا تمل؟!. (تضيف ضاحكةً بصوتٍ مسموع وحمرة الشفق قد طبعت على وجنتيها)

_كيف يمل القلب من ساكنه؟، أرأيتِ داراً تمل من سكانها؟!. (أهمس لها)

_لأنها جدراناً صماء. (تقول بمرح)

_وكذلك القلب أصماً تجاه مصاعب الحياة، يحتضن ساكنه بين أحشائه ليستكين. (أهمس لها في أذنها وبعد أن أنهي جملتي أسترق من وجنتيها قبلة جعلتهما يشتعلان)

هرولت ماري مسرعة. (أباغتها بسؤالي ضاحكاً)

_أشبعتِ الآن؟.

_ويحك!. (تجيبني وهي تلوح يدها في الهواء تسير منكبة على وجهها)

أكملنا مسيرنا باعثين الحب والسعادة حيث مررنا، قطعنا حفنات الأشجار المترامية، فجأة سمعنا صوت طفل رضيع يبكي بأسى، تصرخ ماري بمرح:

_هناك آخرون على هذه الجزيرة!.

تبعنا الصوت الذي أصبح يتخلله صوت ضحك فتاتان، بحثنا كثيراً لكننا لم نعلم أين منبع الصوت؟!، تغيرت الأصوات وتحولت لصرخات ألم يتخلله صراخ أنثى تبكي، هرولنا في جهة واحدة لكننا لم نعثر على منبع الصوت، أصبحت أصوات الألم تعلو حتى اختفى أثر الصراخ الأنثوي، أصوات صراخ بكاء رجل يصرخ قهراً، أصوات صراخ تتداخل ويعلو صداها، يقترح ماثيو:

_ربما علينا البحث في جهات متفرقة؟.

_لا ربما هذه الأصوات مجرد وهم، ربما يريدون تشتيتنا لنبقى معاً. (يجيبه جورج)

تتشبث ماري في ذراعي، أردفت الجدة هانّا:

_و أنا من رأيك أيها الطبيب فلنبقى معاً.

يومئ ماثيو إيجاباً، تعترض ماري:

_لكن الأصوات تدل على وجود أشخاص يتعرضون للأذى وعلينا إنقاذهم؟؟!.

_ماري أنا مع ما قاله جورج!.

أكملنا المسير العشوائي متيقظين والأصوات تعلو مما ساعد الذعر بالتسلل إلى قلوبنا.

_الأصوات تعلو بشكلٍ مثير للريبة، وكأنها تريد جذب انتباهنا لتشتيتنا بالفعل. (أقول)

_لنبقى معاً. (يقول ماثيو وهو يتلفت يمنى ويسرى، بينما كفيه يعانقون كتف الجدة هانّا)

أكملنا المسير وكأننا نخطو خطوات واحدة، إلى أن وصلنا لجدار من الأعشاب الهشة الباسقة بشكل مثير للدهشة، اخترقناها وكأننا نقلنا لعالمٍ آخر، عالمٍ من الخيال، لاح لنا في الأفق قطع متفرقة من الجزر الصغيرة المعلقة بالهواء تكسوها الأعشاب والزهور المضيئة، تؤدي إليها فروع من غصون أشجار متفرقة ثبتت جذورها في الأرض، بينما تسلقت إليها غصونها العريضة عمداً وكأنها طرق تربط الجزر الصغيرة ببعضها البعض، وقفنا مشدوهين، جمال المنظر قد جذب انتباهنا.

_فاتا مورغانا!!!!!. (أقول وقد اتسعت حدقتا عيني من شدة الاندهاش)

_ماذا؟!. (يسأل ماثيو وعيناه قد قيدتهم الجزر المعلقة بالهواء)

_مظهرها يسلب العقل!. (تعلق ماري مشدوهة)

أومئ مبتسماً وأنا أقول:

_إنها ليست حقيقية مجرد وهم كالخدع البصرية.

_لكننا نراها بشكلٍ جيد؟!. (تسأل ماري باستنكار)

أردف جورج مدهوشاً مؤكداً كلامي يشرح لهم:

_تحدث هذه الظاهرة البصرية بسبب انكسار أشعة الضوء عند مرورها في طبقات متفاوتة في درجة الحرارة من الهواء، والتي تكون على شكل منفصل وغير متجانس، والتي تظهر خاصية انعكاس حراري، أي وجود طبقات من الهواء الساخن على تماس مباشر مع طبقة هواء باردة كثيفة وقريبة من سطح الأرض، وجود هذا التماس يؤدي إلى انكسار الأشعة الضوئية مما يؤدي إلى نشوء هذه الظاهرة بسبب تشكل ما يشبه العدسة، والتي تؤدي إلى ظهور الأشكال معلقة بالهواء، ظاهرة قد قرأت عنها عدة مرات وقد سلبت عقلي، فحفظتها عن ظهر قلب، لكنني لم أتوقع رؤيتها يوماً.

_أتقصد بما يسمونه السراب القطبي؟!. (تسأل ماري بدهشة)

أومئ، ثم أضيف:

_هو كذلك.

_أتقصدون كسراب الصحراء، عندما نرى بركة ماء فنهرول تجاهها ثم ((بم)) لا نجدها!!. (يقول ماثيو وقد غضن حاجبيه الكثيفين المتقوسين كشاربين، مما أضاف لملامحه لمسة بلاهة غير مقصودة)

_شيء يشبه ما تقوله يا ماثيو لحد كبير. (يجيبه جورج مبتسماً)

_إذاً لما هذا التعقيد أيها الغريب، ولما الشرح المكثف بطريقة مبهمة لم أفهم منها شيئاً؟!. (يضيف باستهزاء متعمد)

_أدهشنا ذكائك أيها الغبي؟. (تقول الجدة هانّا وهي تضحك بسخرية مستفزة)

رمقها ماثيو بنظرة مبهمة وسرعان ما أدار وجهه عنها، ثم عاد للنظر إليها ضاحكاً يقول:

_أنتِ لي في المرصاد أيتها العجوز، مهما بلغ شدة ذكائي تدعوني بالغبي لشدة غيرتكِ مني، (ثم يضيف باستفزاز متعمد ضاحكاً) بالله عليكِ ألا تغارين من

ريعان شبابي، و عضلاتي المفتولة، وقوة بنيتي، وتتمنين العودة لمثل عمري أيتها العجوز؟ فلتعترفِ لا داعي للحرج ملامح وجهكِ تشي بذلك.

_ويحك!. (أجابته الجدة هانّا باستنكار ضاحكة، مما جعلنا نغوص في نوبة ضحك استمرت لدقائق عدة)

أردفت الجدة هانّا بجدية:

_أتلاحظون اختفاء الأصوات؟!، وكأن هذا الجدار العشبي الهش قد عزلنا عنهم.

_و ربما هم استدرجونا إلى هنا، فأنتبهوا؟!. (أقول وأنا انظر حولنا بحذر، وقد انقبض صدري)

_لا يهم كل ما تفكرون به، الأهم أن هناك ثمارٌ على الأشجار يمكننا تناولها. (يعلق ماثيو مشدوهاً بثمار الأشجار وكأنه لا يرى غيرها)

_مجرد سراب يا ماثيو؟. (تقول ماري بنبرة خيبة آسفة)

_لا أظن!، سأهرول إليها وأثبت لكما حقيقتها.

هرول ماثيو بسرعة شديدة وكأنه يسابق الريح، وتبعناه ونحن ننادي عليه، خشية أن تكون هذه الظاهرة مجرد فخ للإيقاع بنا، وصل ماثيو قبلنا وهو يلوح لنا ويصرخ بمرح:

_إنها حقيقة، إنها موجودة فلتسرعوا و لتروا ما أرى!.

وصلنا، وقفنا مشدوهين بما نرى، نسحب أنفاساً متلاحقة، صدورنا تعلو وتنخفض، كانت الجزر موجودة بالفعل!، لم تكن وهماً أو سراباً، وكانت معلقة بالهواء تتدلى منها حبالاً عشبية، تكسوها الأعشاب وذات الزهور المضيئة، رغم أنها في ضوء النهار لا تنير لكنني حفظت شكلها جيداً، بينما كانت الأشجار المتسلقة بغصونها العريضة إليها تحمل ثماراً غريبة، بعضها أسود اللون شكلها

يشبه وجه القرد بأذنيه وملامح وجهه، والبعض الآخر بنفسجية اللون وشكلها يشبه قارورة المياه تغلفها قشور شائكة، أنها ليست كالتي تناولها ماثيو بداية وجودنا على الجزيرة، تحت الجزر نهر ينضح صوت خرير مياهه بشكل مهيب، أظنه يؤدي إلى البحر وينسكب به، أظننا نعود حيث نقطة البداية وكأننا كنا في جولة دائرية حول الجزيرة.

_ما اسم هذه الفاكهة يا ترى؟. شكلها غريب، هل مرت على أحدكم قبل الآن؟!. (تسأل ماري بريبة)

_لا داعي للريبة أنها لذيذة المذاق، و حلوة كالعسل والأهم أنها تشبعنا. (يعلق ماثيو وهو يلتقط من الثمار المتساقطة أرضاً (وجه القرد) ويهم بتناولها، ثم أردف قائلاً وهو يهمهم بمضغ لقمته) فلتقتربوا، ألم يهلككم الجوع، أنها لذيذة.

اقتربت والتقطت من فاكهة وجه القرد والتهمت لقمة، بينما عيني ماري والجدة هانّا وجورج تعلقوا بشفتي منتظرين الاجابة، أردفت مؤكداً:

_لم تؤذي ماثيو؟، وأنها لذيذة بالفعل، فلتقتربوا.

حملت لهم بعض الفاكهة وتوجهت إليهم بعد أن غسلتها من مياه النهر، فأكلوا بنهم، يعلق ماثيو بعد ملئ حقيبته التي على ظهره بالفواكه ذات الشكلين المختلفين:

_انظرا هناك المزيد من الطيور الملونة الغريبة، حجمها بحجم الصقور الكبيرة لكن شكلها وديع كحمائم السلام لا تدعو للفزع منها، تبدو كوجبة شهية، سأصطاد واحداً، سيكون لذيذاً وهو مشوي.

_ويحك يا غلام، يبدو أنك ستوقعنا في المتاعب. (تعلق الجدة هانّا)

تسلق ماثيو جذوع الأشجار بمهارة، يبدو وكأنه معتاد على فعلها، وبدأ في رحلة مطاردته لأحد الطيور، فبدأ بتسلق الجزيرة الأولى بهدوء، ما أن شعرت الطيور

به حتى بدأوا يجرون أمامه كبطات البحيرة الوديعة يهرولون بتثاقل، بقي واحد بينما طارت مجموعته، وبعد وقت قياسي استطاع ماثيو التقاطه فبدأ الطير ينعق كغراب مستنجداً بباقي مجموعته، بينما ماثيو يهرول عائداً إلينا، ثم نزل عن جذع الشجرة بمهارة كسابق صعوده، رفع الطير في وجوهنا ضاحكاً مسروراً بما فعل، لا أعلم كيف تحول شكل الطير بين يدي ماثيو من حمامة وديعة لطير من الطيور الجارحة؟!، لكن ذلك لم يفزع ماثيو الذي تناول خنجره المعلق على خاصرته وذبح الطير به، جمع بعض الأغصان الهشة وبدأ في إشعالها، جهز الطير للشواء وهو يضحك بسرور لحصوله على غنيمته، بينما نحن جلسنا نراقبه ومجموعة الطيور التي اصطفت على جذع قريب ترمقه بنظرات مبهمه كنظرات الصقور الثاقبة.

أنتهى ماثيو من شوي الطير، دعانا للمشاركة لكن لم يقترب أحدنا، جل ما أهمنا أسراب الطيور المتوافدة التي اصطفت على جذوع الأشجار حولنا تنعق كالغربان وتنظر إلينا بنظرات ثاقبة، أعدادها في تزايد، أوراق الأشجار تتساقط فوقنا كندف الثلج، بينما ماثيو لا يأبه لما يجري حوله، مستمتعاً بغنيمته، يأكل بنهم، وقفنا نحن الأربعة مذهولين، كادت ظهورنا أن تلتصق ببعضها، رؤوسنا للأعلى، نحملق بالطيور التي ملئت أغصان الأشجار حولنا.

_أظن أننا غدونا في مأزق!؟. (أقول)

_بالنسبة لي لست أظن أنا متأكدة أن هذا الأحمق جعلنا في مأزق!. (أردفت الجدة هانّا)

_أشكالهم تفزعني، وأصواتهم المرعبة توترني. (تضيف ماري وشفاهها ترتجف)

_علينا مغادرة هذا المكان بسرعة؛ (يقول جورج بحدة، ثم يضيف موجهاً دفة الحديث لماثيو)علينا مغادرة المكان يا ماثيو على الفور!.

_لم أنهي وجبة طعامي بعد؟.(يقول والطعام ملئ فمه)

_أنظر حولك لما فعلته أيها الغبي؟!. (أردفت الجدة هانّا وقد احتقن وجهها وتطاير الشرر من عينيها)

_ما بكِ أيتها العجوز لما أنتِ غاضبة مني على الدوام!. (يقول ماثيو ببلاهة بينما عينيه لا تغادر وجبته المشوية)

_لأنك غبي، لا تأبه لما تفعله، وليس لديك أدنى معنى للمسؤولية. (تجيبه الجدة هانّا بحنقٍ شديد)

_ماثيو أنظر للطيور فوق رأسك كيف اصطفت على جذوع الأشجار بشكل مهيب؟!. (أقول بخفوت)

_متى تجمعوا بهذا الشكل المفزع؟!. (يقول ماثيو بينما انتصبت قدماه فور رؤية الطيور المفزعة)

_إن لم تراهم، ألم تسمع أصواتهم المرعبة أيضاً أيها الغبي؟!. (أردفت الجدة هانّا بينما ملامحها تمتعض)

_فلنرحل بهدوء، لا تحدثوا جلبة.(أقول)

بدأنا بالانسحاب التكتيكي من المكان، وبدأنا الهرولة بشكلٍ تدريجي، لكن الطيور لم تحرك ساكناً ولازالت تحدق في ماثيو الذي يفكر بتناول حقيبته، صرخت الجدة هانّا تناديه بحنقٍ شديد:

_هيا يا ماثيو فلتسرع، دعك من الحقيبة الآن!.

تناول ماثيو حقيبته وفر هارباً، فتبعته الطيور كوابلٍ من السهام!، تركته يجري خلفنا حتى غادرنا منطقة الجزر المعلقة باختراق جدار أعشاب هشة طويلة تحجب ما بداخله عن ما بخارجه كالتي اخترقناها عند الدخول، فوصلنا لمنطقة رملية كصحراء عجفاء ترتمي في جنباتها أشجار نخيل متفرقة، وقبل أن يخترق ماثيو الجدار انقضت عليه الطيور بمناقيرها الحادة، سمعنا صوت ماثيو يصرخ،

هرولت بصحبة جورج نحوه بعد أن تناولت غصناً كان مرمي أرضاً ألوح به في الهواء، و اخترقنا جدار الأعشاب من جديد، بينما وقفت ماري بصحبة الجدة هانّا يسترقون النظر من بين الأعشاب الباسقة، ما أن اقتربت منهم حتى رحلوا سريعاً عن المكان، وتركوني مغلفاً بالدهشة، ما الذي جعلهم يرحلون بهذه السرعة إن كان بإمكانهم القضاء علينا جميعاً بمناقيرهم و مخالبهم الحادة؟!.

وجدت ماثيو مرمي أرضاً مضرجاً بدمائه، يصرخ من شدة الألم جذبته خارج جدار الأعشاب الهشة، أسرعت الجدة هانّا نحوه بعد أن اقتطعت قطعة قماش من ثيابها و بللتها بالمياه التي في قارورتها وبدأت بمسح الدماء عن وجهه وجسده المثقب بجروح سطحية.

_اختفت الطيور وكأنها لم تكن؟. (أقول بينما أتنفس الصعداء)

_كيف رحلت الطيور من مجرد اقترابك منها إن كان بإمكانهم القضاء علينا جميعاً؟!. (تسأل ماري وقد بدا على ملامحها الحيرة)

_لا أعلم هذا الأمر أدهشني أيضاً ما أن اقتربت منهم حتى رحلوا سريعاً!.

_ربما حدودهم خلف هذا الجدار. (تعلق الجدة هانّا وهي تقطب حاجبيها وكأنها تفكر بشيءٍ ما)

_ربما؟!. (أقول بخفوت وقد سرح عقلي بأفكارٍ شتى)

_و ربما أن ماثيو قد ارتكب الخطيئة؟. (أردف جورج بقول الحقيقة)

لم نستطع مغادرة المكان، فقد كان ماثيو مليئاً بالجروح السطحية، وكان يشعر بالجوع كذلك، باغتني قائلاً:

_فلتناولني حقيبتي، أنني أشعر بالجوع.

_ما سبب شعورك بالجوع الدائم؟!، فكما يبدو لي أنك نحيل الجسد لا يبدو عليك من الأشخاص الذين يكثرون من تناول الوجبات المتراكضة.

_لم أكن كذلك يوماً، لا أعلم ما السبب؟. (يجيبني بضجر)

_و أنا كذلك أشعر بالجوع الصارخ في جوف أمعائي. (أردفت ماري بحياء)

_و أنا كذلك أيضاً!. (أضافت الجدة هانّا بدهشة)

_و أنا أيضاً!!. (يقول جورج مدهوشاً)

_و أنا كذلك، يبدو أن الفاكهة التي تناولناها تفتح الشهية، لهذا نشعر بالجوع الشديد. (أقول)

_فلتعطني حقيبتي، لم أعد تحمل الأمر أكثر. (أردف ماثيو بضجر)

_ما بها، هل لازال لديك من لحم الطير المشوي بداخلها؟!. (أسأله بارتياب)

_لا، بل من تلك الفاكهة التي جمعتها قبل هجوم الطيور علينا.

هممت بجذب حقيبته من خلف جدار الأعشاب الهشة بسرعة خاطفة، وجدتها ثقيلة جداً، حملتها بتثاقل، استرقت النظر أبحث عن الطيور فأجدها اختفت بشكل مبهم، ناولته إياها، حملها بين يديه التي لازالت الدماء تسيل من جروحه، فتح سحابها بتثاقل، وجدتها مليئة بالفاكهة الشائكة، أخرج بضع حبات من الفاكهة وبدأ في تقشيرها ثم تناولها بشراهة، بينما خطوت بصحبة الجدة هانّا وماري وجورج نستكشف المكان الجديد.بعد أن أكملنا جولتنا السريعة في المكان، عدنا حيث يوجد ماثيو، وجدنا المزيد من قشور الفاكهة الشائكة التي تشبه القارورة مترامية على جنبيه، وحقيبته التي كانت مليئة بالفاكهة قد فرغت عن أخرها!، وقد غط في نوم عميق، جلست متصفحاً وجوههم المتعبة، قطبت حاجبي في قلق:

_و الآن ماذا؟. (أسأل)

_الصبر. (تجيب الجدة هانّا بخفوت)

بدأت الشمس مسيرة زحفها المعتادة، وألقت نفسها على رحاب الجبال تقتطع قسطاً من الراحة بثوب نومها الوردي، عاد ماثيو من رحلة ثباته، وكأنه شخصٌ آخر، نظر إلينا ببلاهة يسأل:

_من أنتم؟!!!!.

_قطاع طرق قد اختطفناك من عائلتك. (أجبته بسخرية ضاحكاً)

هرول ماثيو فزعاً فهرولت خلفه، ظننته كعادته يلقي مزحة تقطع الملل السائد، وقف بجانب نخلة متكوراً على نفسه وقد ارتعدت فرائصه، حاولت الاقتراب منه ففزع وهرول من جديد، هرولت خلفه وأنا أرمقه بنظرات تملئها الريبة، بينما لساني لا يكف عن مناداته، هرولت الجدة هانّا وماري وجورج خلفنا إلى أن أحكمت قبضتي حول جسده الذي يرتعش، فبدأ بنوبة بكاء أفزعتني، حاولت تهدئته فزاد من حدة نحيبه وأجهش بالبكاء وهو يردد (أرجوك يا سيدي لا تؤذني)، اقتربت منه الجدة هانّا تحاول تهدئته، فجلس أرضاً وركن في أحضانها كطفلٍ رضيع.

_ما به؟!، ما الذي حصل له؟، ما الذي غير حاله؟!!. (تسأل الجدة هانّا بنبرة تشوبها المرارة بينما تربت على كتفه بحنان)

أهز كلتا كتفي وأنا أردد:

_لا أعلم؟!.

بينما ماري تتلفت حولنا بفزع، سرعان ما أدركت ماهية فزعها، هرول التوتر إلي وسرعان ما تملكني، وقفت أرشق الأفق بنظرات خاطفة، كنت أبحث عن أحدهم.

غفت الشمس، وأسدل الليل نقابه المظلم، مر الوقت بصمتٍ كئيب، لم يخلو من همهمات ماثيو التي تشي بنزعة البلاهة التي احتلته فغدا كأبلهٍ لا يعي شيئاً.

فجأة رياحٌ هوجاء عصفت في المكان، لاح لنا في الأفق بفعل ضوء القمر رجلٌ يرتدي حلة سوداء يتجه نحونا ببطئ، تهمس ماري في أذني فزعة، بينما أحكمت قبضتها حول عضدي:

_ربما هو. ((دنهش))

_فلنرى إذاً ماذا يريد منا هذا أيضاً؟.

_من القادم، أيعقل وجود بشر آخرون على أرض الجزيرة؟. (تسأل الجدة هانّا بخفوت، بينما ماثيو قد هدأ في أحضانها يرتعش بحدة)

_جن!. (أجيبها بخفوت)

_ماذا تقول أيها الغريب، هل ترى أن الوقت مناسب للسخرية؟!!. (تقول الجدة هانّا بنبرة صارمة)

أدركت ضرورة أخبارها بما حصل، فرويت لها سريعاً وباختصار شديد ما حدث لماري هذا الصباح، لم تقاطعني أبداً، ولم تبدي ملامحها علامات الدهشة أو الخوف، وكأننا أعتدنا على غرابة هذه الجزيرة ومفاجأتها، طلبت منهم تولي أمره دون تدخل أحدهم، فأذعنوا لأمري دون نقاش.

يقطع جورج الهدوء السائد بسخريته ضاحكاً:

_بات الأمر مضحكاً يا دانيال، عندما نعود إلى الديار إياك أن تخبر أحدهم بما حصل معنا وألا سنغدو سخرية الجميع يا صاح، (ثم أضاف ضاحكاً بشدة:) أذاً جن هذه المرة، لنرى ما يوجد بجعبة هذه الجزيرة بعد؟.

وصل دنهش إلينا، كان حضوره مهيباً، يدب الفزع في القلوب، وثقت رباطة جأشي، وأنا أحاول تبين ملامحه خلف عتمة بشرته الكالحة التي زادت بعتمة الليل الباهتة بوجود وميض القمر الذي أخفته السحب الرمادية، كان يرتدي عمامة غريبة فوق رأسها، وجلباباً أسود اللون، وفي يده اليسرى يحمل صليباً، قال بصوتٍ واهن يشبه فحيح الثعبان:

_أتبعوني. (وسار أمامنا)

_إلى أين تريد منا أن نتبعكَ يا هذا؟. (أجبته بنبرة صارمة)

وبحركة خاطفة صار أمامي، واضعاً جبهته المرعبة على جبهتي، تحدق عيناه المخيفة في عيني، صرخت ماري بفزع، وابتعدت عني، حافظت على رباطة جأشي مردداً في نفسي (أنا لا أهابك لا أهابك) جحظت عيناه المرعبة وكأنه علم بما حدثت نفسي، ثم زمجر في وجهي بغضب بعد أن أحكم قبضته حول عنقي:

_أتدري من أنا يا هذا؟.

_و أيا ما تكون، لماذا سنتبعك، وإلى أين؟.!! (أجابه جورج بصرامة)

أحكم قبضته الاخرى حول عنق جورج مردداً:

_أنا (دنهش) أيها الأحمق، أقوى جني ممكن أن تراه عيناك.

أردفت بحزم:

_و أن يكن؟، ماذا تريد منا؟.

رماني بصحبة جورج أرضاً بحدة، حتى شعرت أن كل عظمة في جسدي قد تحطمت، أسرعت ماري نحوي تصرخ:

_أنه هو!، هو من اصطحبني في تلك الليلة إلى ذاك الكهف المرعب، فلنهرب بسرعة؟.

أجبتها هامساً بصوتٍ متقطع تشوبه نبرة الألم:

_كيف ذلك؟، أنظري إلى ماثيو كيف يتكور في أحضان الجدة هانّا كطفلٍ رضيع، وإن لم يكن ماثيو كذلك كيف ستهرول العجوز هانّا، والشيء الأهم الذي قد فاتكِ أنه جني، لا يمكن لبشري قدرة الهروب من جني يا ماري.

امتعضت ملامح ماري، بينما جسدها الذي التصق بي يرتعد بحدة، ألقت سؤالها الأخير بصوتٍ واهن تتغلغل به نبرة الخوف:

_ماذا سنفعل إذاً؟!!.

أشتعل دنهش غيظاً، زمجر بحدة:

_أحدكم خالف القواعد، و أرتكب الخطيئة، وهو هذا. (مشيراً بسبابته السوداء وظفره الطويل كمخالب الحيوانات المفترسة إلى ماثيو)

تكور ماثيو في حجر الجدة هانّا على نفسه أكثر وهو يرتعد، وبحركة خاطفة انتشله من أحضانها ورفعه من عنقه بقبضته عن الأرض حتى كاد يقضي عليه، وقفنا مذهولين نحدق ببعضنا البعض.

فجأة ظهر جني آخر من صلب الأرض دفعه فطرحه أرضاً، صرخ دنهش بحنقٍ شديد:

_ما الذي أتى بك أيها الأحمق؟.

_لن أسمح لك بإيذائهم، و سأساعدهم بقتل هيلانة أفهمت؟.

_(ساروخ) لا علاقة لك بالأمر، لا تخالف قواعد الجن لأجل بشريين.

_وعندما قتلتم أحدنا ألم تخالفوا قواعد الجن، عندما أتبعت بشريين ألم تخالف قواعد الجن؟، أنت منبوذ من عالمنا يا دنهش منذ زمن.

سأله بسخرية:

_أتريد أن تنبذ مثلي؟، ومن أجل ماذا؟ من أجل بشريين لا يستحقون!، جلّ ما يهمهم التخلص منا وإيذائنا.

_كما فعل ابانوب بكم عندما خلف عهده وصرت عبداً لهيلانة لأجل اتباع شجعٍ غبي، أنسيت أنه يحق لنا الانتقام ممن يؤذي عالمنا؟.

_ممن يؤذي عالمنا يا ساروخ وليس من بعضنا البعض، البشر هم ألد أعدائنا.

_وأنت خالفت القواعد بصحبة هيلانة يا دنهش، وأذيتمونا، ألا ترى مدى قوتي أيها الأحمق، لقد خارت قواك وأصبحت ضعيفاً عن ذي قبل، وقد منحني أبانا إبليس إياها للتخلص منك!.

_أنت تكذب يا ساروخ؟.

بحركة خاطفة أحاط ساروخ بقبضته عنق دنهش، مزمجراً في وجهه بصوتٍ يشبه حفيف الأشجار عندما تراقصها الرياح الهوجاء:

_ألا تشعر بقوة قبضتي (زاد من حدتها) والآن ألا تشعر بها؟.

_سأقتلك يا ساروخ، سأقتلك.

_هيا فلتهربوا، اتبعوا الفتى ماثيو هو سيوصلكم إلى وجهتكم الصحيحة؟.

_ماثيو الذي سيقودنا ألا ترى حاله؟!. (أسأله ببلاهة)

صرخ بحنقٍ شديد:

_ اتبعوه بسرعة هو من سيوصلكم إلى (مدينة النور).

زمجر دنهش بحدة:

_لن يصلوا إلى سيرينا أعدك بذلك.

_لا سلطة لكَ عليهم، أنسيت أنهم أنقياء؟.

_لكن أحدهم أرتكب الخطيئة أيها الأحمق، وذبح أحد طيور الجن وتناوله بشجع.

وجه ساروخ وجهه الذي لم اتبين ملامحه نحونا قائلاً بحدة:

_لا تجزعوا مما سيقودكم إليه!، ستكونون بمأمن في أرض النور، هيا هرولوا سريعاً خلفه.

ردد طلاسم غريبة بصوت مرعب كرعد ضرب الأرض فتردد صداه في المكان، وقف ماثيو ينظر نحونا بملامح جامدة وكأنه لا يرانا، ثم هرول بسرعة وتبعناه.

تسرب دنهش من بين يدي ساروخ وكأن الأرض ابتلعته ثم تكورت خلفه، وفجأة ظهر أمامنا يعترض طريقنا، انشقت الأرض من تحت قدميه وخرج نصف جسد ساروخ الذي أحكم قبضتيه حول جسده وجذبه تحت الأرض وهو يردد:

_إياكم التوقف أسرعوا خلف ماثيو.

بينما دنهش يؤكد بغضبٍ هادر عدم وصولنا لأرض النور، تكورت الأرض خلفهم وانغلقت تلك الفجوة التي التهمتهم وكأن شيئاً لم يكن.

هرول ماثيو أمامنا وكأنه يسابق الريح، والمدهش أن العجوز هانّا كانت تهرول بمدى سرعته، لازالت ماري تحكم قبضتها في قبضتي، هرولنا خلفهم بسرعة فائقة، حتى وصلنا إلى حافة الجبل من جديد، التي أخبرتكم أنها تشبه قمة (جبل

بازاردوزو) وقفنا عند الحافة المظلمة مذهولين، رمى ماثيو نفسه في الوادي دون تردد أو أدنى تفكير وسط الظلمة التي تشوبها سحب الضباب الرمادية الواضحة بفعل ضوء القمر، واختفى خلفهم!، مما جعلنا نشهق أنفاسنا عدة مرات، رجعت للخلف عدة خطوات، وضعت كفيّ على رأسي ثم مسحت عرق وجهي بهما، بدأت ماري تجهش في البكاء وهي تردد:

_لا.. لا.. لاااااااااا.

أربت على كتفها، ثم أعانقها أحاول تهدئتها، ران علينا صمتٌ كئيب.

_ما الذي حصل، أين ماثيو، ما كان مصيره خلف هذه السحب؟!. (تسأل الجدة هانّا بنبرة تشوبها المرارة، بينما عيناها تزاحم سحب الضباب بحثاً عنه)

أردف جورج بصرامة:

_ والآن ماذا؟، ما علينا فعله الآن؟.

أجيبهما بحنقٍ شديد:

_لا أعلم... لا أعلم، كفاكم أسئلة لا أجوبة لها.

_أنا خائفة كثيراً. (تقول ماري بفزع وقد ارتعدت فرائصها)

_فلتهدؤوا قليلاً، (ثم أضيف بنبرة صارمة:) فلنقفز خلفه.

_ماذا تقول يا دانيال؟، هل أصابك الجنون أنت الآخر؟!!. (أردفت ماري بهلع وهي تسترق نظرة خاطفة نحو سحب الضباب، ثم تشهق أنفاسها بتوتر لتخيل الموقف)

_يبدو هذا ما علينا فعله، ألم تسمعوا ما قاله ذاك الجني؟، أكد على تتبعنا لماثيو. (أردفت الجدة هانّا بتأكيد)

أضاف جورج بغضب:

_أنه مجرد جني أبله، لا يأبه لأمرنا، ولعله لا يدرك مدى خطورة سقوطنا في الوادي فهو جني يخترق المسافات بحركة خاطفة.

فجأة سمعنا صوت نباح كلاب يعلو في المكان بشكلٍ مخيف، و بومضة عين ظهروا أمامنا وأحاطوا بنا من كل جانب، صرخت ماري بهلع وتشبثت بكلتا يديها بكتفي، كانت كلاب سوداء اللون، حجمها يقارب علو المتر ونصف، تمتلك أنياب حادة تقطر لعاباً مقزز، وملامح مريعة للغاية، وقفت تحدق بنا بعيناها الحمراوان بشراسة، ثم بدأت تخطو نحونا ببطئ شديد وهي تزمجر بغضب، صرخت الجدة هانّا:

_الوادي خلفنا، والكلاب أمامنا لا مناص لنا من اختيار أحدهم، الموت يحيط بنا من كل جانب، فلنجرب فعلها.

ورمت نفسها في الوادي، صرخت ماري من جديد وهي تجهش بالبكاء بصوتٍ يرق له الحجر الصلب، تردد:

_لا أريد الموت، لا أريد الموت يا دانيال.

دفنت وجهها في صدري، لا تريد رؤية ما يحدث، تلفت حولي ثم إلى جورج الذي يتلفت حوله بعجز هو الآخر، أفكر بحلٍ ما.

.....<<>>.....

مر الوقت ببطئ مميت كدت أفقد عقلي بين ثوانيه الزاحفة، الوادي خلفنا والكلاب الشرسة بشكلها المفزع أمامنا، وماثيو وهانّا ربما أصبحوا في عداد الأموات، نظرت إلى دانيال وأنا أجهش في البكاء أتصفح وجهه وألتمس مدى ثبات عزيمته، وجدته ثابتاً كالطود، يتلفت بثبات يبحث عن حلٍ لإنقاذنا، ارتطمت

حروفي ببعضها البعض وبدأت أهذي بما يعتري جوفي بصوتِ مريضٍ يلفظ أنفاسه الأخيرة على فراش الموت يدلي بوصيته:

_أحببتك كما لم أحب أحد، شئتكَ بين جنبات نفسي زوجاً وحبيباً وعائلتي الجديدة وعالمي الذي طالما حلمت به، لقبتكَ بفارسي المنتظر سراً وأعطيتك صك ملكية قلبي، فوشى قلبي لروحي بمالكه الجديد فصرت كليّ، رميت في جعبتك ندبات الألم التي تثو في أعماق روحي المهترئة حتى أثقلت كاهلك بها، كبحت جماح شوقي لعناقك آلاف المرات كم أندم عليها الآن وكم أتطلع شوقاً لها في لحظة الوداع.

_لو تدرين ماذا فعلت كلماتكِ بي، لن يكون هنالكَ وداع، ستنجبين لي ثلاثة عشر طفلاً، وثلاثة عشر طفلة، جميعهم بلون عينيكِ المذهلتين، عديني بذلك؟!.

لاح شبح ابتسامة ساخرة على شفتيّ المرتعشتين، عانقني بحرارة، زمجرت الكلاب بحدة، دفنت وجهي في صدره شعرت بها كادت تنقض علينا، فحملني وهرول بي إلى أعماق الوادي وأنا أصرخ بالوداع الذي جاء على حين بغتة.

.....<<>>.....

_لقد استطاعوا الفرار يا مولاتي.

طالعته هيلانة بازدراء، ثم أردفت بغضبٍ هادر:

_ويحك، كيف حدث ذلك؟!.

أجابها دنهش باقتضاب:

_لقد حررهم أخي ساروخ.

سألته بحنقٍ شديد:

_ومنذ متى يقوى ساروخ على قدراتك؟.

أجابها بنبرة يشوبها الغضب والكم الهائل من المرارة:

_لقد تم نبذي، و وهبه أبي بعض قدراتي التي سلبتها مني أرض الجحيم تلقائياً بحكم نبذي.

أردفت بصرامة:

_أغرب عن وجهي لا تعد حتى تجدهم.

عم سكون مهيب، وقد أحنى دنهش رأسه وكأنه يفكر بشيئاً ما، أردفت هيلانة بحنق:

_وهل هناك أخبار سيئة تخفيها عني أيضاً؟.

أجابها بصوتٍ واهن:

_أظنهم قصدوا أرض النور.

_ويحكِ يا سيرينا، ويحك أيها المغفل، أسرع فلتجدهم قبل أن يبلغوها.

-أمركِ مولاتي هيلانة. (أحنى رأسه احتراماً لها ثم سار برعونة يتخبط بثورة نيران غضبه)

غدت هيلانة تتخبط في شرها تستشيط غيظاً بينما تردد في نفسها:

_كان عليّ ألا أثق بـ ابانوب مجدداً، ويحه قد اعتاد الإطاحة بوعوده، سأحرقك يا ابانوب هذه المرة.

طلبت من الحرس استدعاء ابانوب على الفور، وصل إليها متخبطاً بخطواته، أحنى رأسه لها باحترام، ثم أردف بمكر:

_أمركِ مولاتي هيلانة.

_قد وصل رسولك النقي وبحوزته الصندوق، لكنهم فروا هرباً من دنهش بمساعدة اللعين ساروخ، جد لي حلاً قبل أن تطأ أقدامهم أرض النور، وإلا سيكون عقابك عسيراً يا ابانوب.

قطب ابانوب حاجبيه كبح بهما جماح غضبه، ثم أردف باضطراب:

_لا دعوة لي بذلك يا مولاتي صدقيني!.

استفزتها كلماته فكزّت على أسنانها، ثم قالت بحنق شديد:

_لا دعوة لك بذلك... لا دعوة لك بذلك... لنرى إذاً؟!.

امتعضت ملامح ابانوب، ثم ألقى سؤاله بهدوء:

_كيف لي أن أجدهم فكما تعلمين الأنقياء محجوبون عنا تماماً على أرض الجزيرة.

أجابته بعنفوان:

_بينهم واحدٌ يدعى ماثيو قد ارتكب خطيئة على أرض الجزيرة، (طالعته بازدراء ثم أردفت بغضب هادر:) أغرب عن وجهي وجدهم بسرعة، كل ما يحدث بسببك أيها الحثالة.

خرج ابانوب من القصر يشهق أنفاسه و يزفرها بغضبٍ جامح، تعثر بحجر فسقط أرضاً، لكم الجسد الذي تسكنه روحه الشيطانية قائلاً بحنقٍ شديد:

_ويحك أيها الكهل العجوز، عندما انتهي منك سأحرقك.

عاد حيث يقيم، قيّد جسد العجوز الذي يسكنه، ثم حلقت روحه في سماء الجزيرة يبحث عن مجموعة دانيال.

.....<<>>.....

أمدتني ماري بمفتاح النجاة، ما أعاد رباطة جأشي حرارة وطأة كلماتها التي أنعشت جمود عقلي، وشدت بها وثاق جموح قلبي، فغدا مغواراً حديدياً لا يهاب الارتطام بصلابة الفزع والهلع، حملتها بين ذراعي، بعد أن عانقتها بحرارة، واندفعت نحو طوق النجاة، احتوتنا السحب كما يحتوي حضن الأم رضيعها، وحلقت بنا للمدى البعيد، تنحنحت الشمس تنذر باستيقاظها، فحلقت العصافير تزقزق مرحبةً بها، وهرعت الطيور الملونة تسابق السحب التي تحملنا بمرح، أهمس لماري:

_هل رأيتِ لن يكون هنالكَ وداع، وستنجبين لي ستة وعشرون طفلاً كما وعدتني.

ضحكت ماري بقهقهة مسموعة جعلت عيناها المذهلتين تدمع، ثم أضافت:

_شيء لا يصدقه عقل، من سيصدق أننا امتطينا سحابة وسابقنا بها الرياح، وحاولت أن تغلبنا الطيور ففشلت.

_سيدعونكِ بالمجنونة بلا ريب، إياكِ أن تخبري أحد وإلا سأضطر لزيارتك في مصح الأمراض العقلية.

وكزتني في كتفي بمرح، ثم وضعت رأسها على كتفي وهي تلف كلتا يديها حول جسدي، نظرنا لأسفلنا نتمتع بالطبيعة الخلابة، خففت السحب من سرعة تحليقها، ثم أنزلتنا بكل هدوء، وسرعان ما تلاشت وكأنها لم تكن، تهللت أسارير الجدة هانّا لمرآنا، أردفت ضاحكة:

_شيء يدعو للجنون، كيف كانت رحلتكم؟!.

_هل باستطاعتي أن أدعوا هذه السحب ببساط علي بابا الخرافي. (أردفت ماري ضاحكة)

_يمكنكِ ذلك، لكن فيما بيننا، للحفاظ على سمعتك كفتاة عاقلة. (اجيبها ضاحكاً)

_أين الطبيب؟. (تسأل الجدة هانّا)

أجيبها بنبرة هادئة ممزوجة بالقلق:

_لازال هناك، أخشى أن يغلبه الخوف ولا يفعلها؟.

نظرت حولي تتفرس عيناي المكان، وضعتنا السحب بين مرتفعات جبلية شتى تحيطنا الصخور من كل مكان، الأرض افترشت بساطاً أخضر يحبس الأنفاس، المدهش أننا بجانب بحيرة تتلقى مياهها من رحم سفح الجبل في الأعلى تصب بها مشكلة شلالاً منظره يلامس الروح، مياهها رائقة تثلج القلب بعذوبتها، وبجانبها أعشابٌ يلمع نداها بنور الشمس، والمثير للدهشة أكثر وجود بستان يمتد للأفق البعيد بانتظام يحوي أشجار الفواكه المتنوعة، لكن هذه المرة تحمل ثماراً نعلمها منها: (التفاح والكمثرى والبرقوق دومستيكا والدامسون)المفضلة لدي، باغتتني ماري قائلة بإعجاب شديد:

_يا لروعة هذا المكان ؟.

_كيف نبتت هذه الفواكه، ومن قام بزراعتها، تبدو منظمة بأيدي فلاح ماهر؟. (أسأل بدهشة)

_لازلت تدهش مما تراه على أرض هذه الجزيرة العجيبة يا دانيال (تجيب ماري بمرح، ثم أردفت إجابتها بسؤال:) هل يعقل أننا وصلنا أرض النور؟!.

_ربما؟!. (أجيبها بصوتٍ واهن)

بينما تفرست عيناي ماثيو المتكور على نفسه يرتعد، ثم بنظرة خاطفة تصفحت وجه الجدة هانّا المرهق وعيناها الحزينتين كيف اتخذتا من ملامحه مقعداً و برحتا حيث يمكث لا تفارقانه، تسأل ماري بينما عيناها تعانق الثمار وهم في أحضان والدتهم:

_ريما باستطاعتنا تناول بعض ثمار الفاكهة الشهية؟، أشعر بجوع أكاد أن أقع مغشياً عليّ من شدته.

_يمكنكم ذلك، فمنذ وصولي قدمت لي السحب البعض منها وهي تهمس لي بفحيح نسماتها الرقيقة بأن أتناولهم، كدت أن أقع مغشياً علي لشدة الجوع (صمتت برهة شاردة، ثم أردفت قائلة بعد أن شهقت أنفاسها وزفرتها بحدة:) قد تناولت العديد منها وأطعمت ماثيو كذلك لعله يشفى مما ألت إليه حاله. (تجيبها الجدة هانّا وعيناها لا تفارق ماثيو)

اقتربت منها أسألها بنبرة تشوبها المرارة:

_ما الذي يمكننا فعله لأجله؟.

تجيبني بأسى:

_ليتني أعلم؟!.

جلست على أحدى الصخور أتلفت وقد أحكم القلق براثنه في تفكيري، بينما عيناي تعانق السحب البعيدة التي تلتف حول قمة الجبل تبحث عن جورج، باغتتني ماري قائلة بعد أن جلست بجانبي:

_لقد تأخر جورج.

_كثيراً، أخشى عليه من أذى تلك الكلاب المتوحشة.

أردفت الجدة هانّا برقة بينما يدها تربت على كتفي بحنان:

_الطبيب يملك قلباً مغواراً، سيكون بخير، لا تقلق يا ولدي، (ابتسمت لها أربت على يدها، أضافت:) فلتتناولا بعض الثمار قبل أن يتمكن منكما الجوع.

أومئ، تناولنا المزيد والمزيد من ثمار الفواكه، ثم جمعت العديد منها حتى ملئت حقائبنا، باغتتني ماري:

_لماذا تجمعها في حقائبنا بينما نمكث تحتها و يمكننا تناولها طازجة متى شئنا؟!.

_لأجل طارئ خفيّ، هذه الجزيرة مليئة بالمفاجآت ويجب علينا الاستعداد لها دائماً.

_يا لكَ من حذق. (أردفت ماري بمرح)

تأخر جورج وقد ألتهمني القلق عن آخري، جمعنا العديد من العيدان الهشة المترامية، وبعض الأخشاب من الأشجار الميتة قد قمت بتكسيرها بأمر من الجدة هانّا، فقد شارف الليل على الوصول.

خيم علينا ليلٌ دجوجي، قمت بإشعال النار بجانب البحيرة، استلقى ماثيو جانباً وغط في نوم عميق، الجدة هانّا أسندت ظهرها على شجرة عملاقة وقد شردت عيناها في الظلمة الحالكة، أنا متكوراً على نفسي أضع رأسي على ركبتي أتأمل النار تجلس ماري بجانبي وقد غرقت الأخرى بين ثنايا اللهب المتراقص، ننتظر عودة جورج.

.....<<>>.....

بعد أن رمى دانيال وماري أنفسهم اختفت الكلاب الشرسة وكأنها لم تكن، غدوت وحيداً أتلفت بهلع، لم أدري ما علي فعله؟، وضعتني الحياة أمام خياران لا مناص لي من اختيار أحدهما، أن أرمي نفسي من قمة الجبل ورائهم ليلتهمني الموت وأنتهي، أو أن أبقى وحيداً تائهاً في جزيرة غامضة لا أعلم عن طريق النجاة من شرها شيئاً!، جلست طويلاً متكوراً على نفسي أرثي أصدقائي بدموع الوداع

وأفكر، وفي النهاية قد قررت اختيار الخيار الثاني، وغدوت أخطو باحثاً إما عن هلاكي أو نجاتي.

.....<<>>.....

_لما تبكين يا وجد؟.

_أنني أخشى عليك يا أبتي، حالتك الصحية قد تدهورت كثيراً.

_لا تقلقي يا وجد، الموت لا بد منه أينما كنا.

أضفت مسرعة برجاء:

_لنبحث عن نبتة الحياة من جديد يا أبتي.

أجابني بسخرية تشوبها المرارة:

_أنها مجرد أقاويل يا ابنتي لا وجود لمثل هذه النبتة في الكون.

_لكن الكتاب يقول أنها موجودة يا أبتي.

_ويح هذا الكتاب يا وجد، وويح الفضول البشري كيف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك.

أحكمت كفي حول كفه، بعد أن كفكفت دموعي :

_أأنت من يتفوه بهذا الكلام يا أبتي، (ثم أردفت باسمة) أين روح المغامرة يا أبتي؟؟.

أجابني بغضبٍ هادر:

_ويحي يا وجد قد سقت بكِ إلى الهلاك يا ابنتي سامحيني، نهايتي قد شارفت يا وجد.

وضعت كفي على فمه أسكته، وأنا أرجوه:

_أرجوك لا تتفوه بمثل هذا الكلام يا أبتي، سنعود سوياً ونخبر العالم عن مغامرتنا هذه.

أجابني بيأس بعد أن انسابت على خديه بضع قطرات من الدموع الحارة:

_ألم تيأسي بعد يا ابنتي لن يكون هناك عودة!، انتهت حياتنا منذ أن وطأة أقدامنا أرض الجزيرة يا وجد.

ربت على يده بينما شفاهي ترجوه:

_أرجوك يا أبتي لا تيأس، سننجو بكل تأكيد.

وقفت فزعة أتلفت يمنى ويسرى باقتضاب، سأل والدي المطروح أرضاً بفزع:

_ما بكِ يا وجد؟

أجبته:

_هنالك خلف الأعشاب الباسقة صوت (ثم بدأت بالصراخ) هل من أحد هنا؟.

(يقول أحدهم من خلف الأعشاب:)

_أنا هنا، أين أنتِ يا صاحبة الصوت الرقيق؟.

_أنا هنا، من أنت أيها الغريب؟!.

_لا أستطيع رؤيتك؟! أين أنتِ؟ أدعى جورج.

_أنا هنا أيها الشاب خلف جدار الأعشاب الباسقة.

أردف بغضب جامح:

_ويح هذه الجزيرة وأعشابها.

اقترب منا، كان رجلاً عريض المنكبين ذو وجه دائري، أبيض اللون، يعلو وجنتيه حمرة جعلته جذاباً، باغتنا قائلاً بدهشة:

_هل أنتما بشريان، أم من ماذا خلقتم؟، أرهقتني مفاجآت الجزيرة.

جحظت عيناي تنظر إليه، باغته قائلةً بسخرية:

_و مما قد نكون قد خلقنا أيها الأبله، أننا بشريان كما ترى؟ (جحظت عيناه نحويّ، يتفحصني من رأسي إلى أخمص قدمي، باغته بسخرية مستفزة:) تبدو أبلهاً يا هذا؟.

ضحك كثيراً ثم أردف بتؤدة:

_أعذريني لقد رأيت من عجائب هذه الجزيرة أكثر مما يدعو للجنون، أدعى جورج.

أجبته بسخرية:

_لقد أخبرتنا منذ قليل.

تجاهل سخريتي، غرق والدي بنوبة سعال كادت تقضي عليه، اقترب منه يتعامل معه بحذر، ثم سأل بوجل:

_ما الذي أتى بكما إلى هنا؟.

أجابه والدي:

_الفضول الأحمق أيها الشاب.

باغته بسؤالي:

_ما الذي أتى بك أنت إلى هنا؟.

نظر إلي، ثم تبسم ضاحكاً وهو يقول:

_شخص أحمق (طالعته بغضب فأردف مبرراً وقد تغيرت نبرة صوته:) أقصد صديقي الأحمق، أنها قصة طويلة، لنرى ما حالك أيها السيد أولاً.

أسأله برجاء:

_هل أنت طبيب؟.

_نعم، لكنني طبيب نفسي.

أردفت بخيبة:

_طبيب نفسي!

أضاف بثقة:

_لكنني أفيّ بالغرض.

تناول حقيبته التي كان يحملها بيده وأخرج منها بعض الأعشاب، وبدأ يعدد فائدة كل واحدة منها.

.....<<>>.....

مرت تسعة ليال من الانتظار المميت لعودة جورج العقيمة، تملكنا اليأس من نجاته كما تملكنا الحزن على فقدانه، وكنت أكثرهم ألماً، ضميري ينهشني وعقلي يلومني مردداً في جوف رأسي:

_أنتَ السبب، أنتَ من ساقه نحو الهلاك، كنتَ صديقه الأفضل كما كان صديقك الوحيد، أيّ قلب تملك يا دانيال؟!.

غدت حالتي النفسية صفر، كنت أتمنى أن أنام واستيقظ لأجد نفسي بين فكيّ تلك الكلاب التي نهشت جسد صديقي، لكن ماري والجدة هانّا كانوا لي عوناً و حاولوا مراراً كبح جماح يأسي، يرجون أن أسوقهما إلى درب النجاة، سخر الأمل مني، أحاطني اليأس من كل جانب، لم يعد لي رغبة بالحياة فالذنب يتآكلني، مضت أيام عدة أخرى، نهش اليأس ما تبقى من إشراق ماري، كانت عيونها زاخرة بالمزيد من الدمع، بينما الجدة هانّا تجلس بجانب ماثيو محبطة، تطعمه تارة، وتتلفت نحو قمة الجبل والسحب تبحث عن جورج تارة أخرى، بينما تكرس جلّ وقتها تقنعني بأن نكمل طريقنا لأجل ماري، نعم ماري؟!!!، إلى أن صرخت في وجهي صوتاً أعادني للواقع تقول بحنق شديد:

_إن كان الذنب ينهشك لأجل جورج فما باله لا يوقظك لترى حال ماري وما سيؤول إليه مصيرها، ألا تخشى عليها من الأذى.

لذا غدونا نفكر كيف نكمل طريقنا، أنه اليوم الخامس عشر، قد كان كسائر الأيام بطيئاً كئيباً، يحمل بين طياته لمسة يأس، حتى اقترب المساء، فجأة.....

صوت قد هز الأرض برمتها من تحت أقدامنا واختفى، استيقظ ماثيو فزعاً ووقف منتصباً ووقفت الجدة هانّا بجانبه بينما أنا وقفت منتصباً بصحبة ماري التي تشبثت بكتفي، هرولت عيناي يميناً وشمالاً، لم يتبين لي شيء، تقدمت بخطوات للأمام وإذا بي أشعر بأنني دست على شيء لا أعلم ما هو ربما مجرد حجر، فجأة عاد الصوت بحدة أكبر، تقدمت منا أطياف لم نتبين ملامحهم تتراقص حولنا ثم تختفي، ثم تعاود الظهور ببطئ واحداً تلو الآخر، ماري كعادتها تشبثت بذراعي وكادت تخترقه، بينما الجدة هانّا تحكم قبضتها حول قبضة ماثيو،

أما أنا حملت حقيبتي ووضعتها على ظهري ثم حملت حقائبهم، كدت أضحك لوهلة رغم الرعب الذي يخيم على الأجواء، الجميع ترتعد فرائصه بينما أنا أحمل الحقائب وكأنني أهيئ نفسي لركوب باص الرحلة المدرسية، بعد وقت طويل مع مصارعة رعب الأطياف، تقدمت منا ثم حملتنا وهرولت بنا بسرعة الضوء وأكثر.

بعد برهة زمنية وجدنا أنفسنا وسط مدينة حديثة الطراز كتلك التي نراها في الأفلام الخيالية، البياض الناصع يحيطنا من كل صوب، سكناها بشرٌ مثلنا وجميعهم يرتدون ثياباً ناصعة البياض، المدهش أن أهل هذه الجزيرة يقيمون في حجرات زجاجية مقسمة تحوي أسرة بيضاء يقيم كل واحد منهم بمفرده، والمدهش أكثر أن أحدهم لا يعرف الآخر ولا يكلمه وكأنهم بكم، والمثير للريبة أنهم يتصرفون وكأنهم مصابون بالخدر، وما أدهشني أكثر أن الجدة هانّا تعرفت على أكثرهم!، البعض منهم أخوة لكن لا يعلم أحدهم الآخر، وأضافت الجدة هانّا أن البعض منهم كان شاباً عندما فقد وها قد تقدم به العمر، ومن بين الجموع تعرفت على أخ ماثيو الذي أصبح في منتصف عمره، أما بالنسبة لماثيو فقد غدى واحداً منهم ولم يتعرف على أخيه، كما أنه لازال على حاله لم يتعرف علينا أيضاً، وكأنه فقد الذاكرة بتاتاً، علقت الجدة هانّا:

_قال دنهش أن الطير الذي تناوله ماثيو هو السبب؟.

أومئ إيجاباً:

_لكن هل يعقل أن جميع هؤلاء قد ارتكبوا الخطيئة كما ارتكبها ماثيو بذبح طير الجن وتناوله؟. (أقول وأنا أحدجها بنظرة ارتياب)

_إذاً هذه هي أرض النور، لكن ما الذي يحصل هنا؟، ومن الذي قد جمعهم هنا؟، ولماذا قتل البعض منهم بوحشية كما أخبرنا ماثيو عن أولئك البحارة الذين كانوا بصحبة أخيه، بينما بقي هؤلاء؟. (تسأل ماري شاخصة عينيها في المكان)

_الأهم ما علينا فعله الآن لشفائهم مما هم فيه؟. (أسأل)

جلست جانباً بصحبة ماري والجدة هانّا نراقب ما يحدث بدهشة، أهل هذه المدينة يتصرفون كرجال آليون، يخرجون من حجراتهم الزجاجية يتجهون نحو منضدة كبيرة جداً بيضاء اللون مستطيلة الشكل، يوجد حولها كرسي لكل فرد موجود، يتناولون الطعام والفاكهة بطريقة متساوية وكأنه وجبات مخصصة لكل فرد منهم، ثم يعود كلٌ منهم إلى حجرته الزجاجية من جديد، يستلقي على سريره ويغدو في ثبات عميق، وماثيو كان يتصرف مثلهم تماماً!، وجد له كرسي حول مائدة الطعام، وحجرة كأنها خصصت له مسبقاً.

_من صنع هذا المكان؟!، ولماذا يجمع هؤلاء البشر هنا؟، ولماذا يتصرفون بهذه الغرابة؟، أيعقل أن الطير المشوي هو السبب؟، هل يعقل أن جميعهم تناولوا ذات الطيور؟، أيعقل أنهم قد قضوا حياتهم بهذا الشكل؟.(أسأل الجدة هانّا)

_هذا على ما يبدو؟. (تومئ بأسى وهي تعمق نظراتها المبللة بالدموع نحوهم)

مضى وقت طويل، يبدو أن شمس هذا المكان لا تغرب أبداً، أشعر أننا قد مكثنا في هذا المكان لأيام عديدة، كنا ننام ثم ننتهي من نومنا نعاود الجلوس ثم نتناول من الفاكهة التي جمعتها وكادت تنفذ، لم تسمح لنا الجدة هانّا بتناول طعامهم أو شرابهم أو المساس به أبداً، رغم أنني كنت أخبرها بأن حالهم أفضل وسيكون حالنا كذلك أن أصبحنا مثلهم، أن طال بنا الحال كذلك فمصيرنا الجنون بالتأكيد، لكنها كانت تزودني بجرعات الصبر، تجولنا في المكان الذي لا حاجة للتجول فيه فأوله يبين آخره، شمس لا تغيب أبداً في مكان بيضوي أبيض اللون، في محيطه حجرات زجاجية متراصة بجانب بعضها البعض، تتوسطه مائدة الطعام لا شيء سوى ذلك، لا باب خروج ولا منفذ يبين ما بخارجه، أجلس وماري والجدة هانّا في الوسط قريبون من مائدة الطعام، بعد المزيد من الصبر شعرت بملل قاتل يجتاحني، هرولت نحو الحجرات الزجاجية أصرخ بحنق شديد بسكانها، أكلمهم لكن لا يجيبني أحدهم حتى أنهم لم يلتفتوا إلي وكأنني غير مرئي ولا صوتي مسموع بالنسبة إليهم!، دخلت إلى حجرة ماثيو وماري تتبعني، أحكمت قبضتي على كتفه وبدأت هزه بعنف وأنا أرجوه أن يجيبني، لكن ماثيو لم يحرك عيناه باتجاهي أبداً، خرجت من حجرته وبدأت بالصراخ لعل من صنع

هذا المكان يخرج من مخبئه ويفهمني ما الذي يحصل؟، لكن لا مجيب!. عاودت الجلوس في مكاني أبكي بعجز، جلست ماري بجانبي تربت على كتفي وتزودني بجرعات الصبر، لا مكان للصبر ولا فائدة من عدم الصبر، عجز كامل وكأنني مشلول الجسد طريح الفراش ينتظر الموت، لا الموت بآتٍ إليه وليس لديه أملٌ بالشفاء، مر وقت طويل بصبر مميت آخر، تهرول عيناي في المكان ثم تستقر عند هانّا العجوز التي تتحلى بجرعة صبر وشجاعة لم توجد لدي، باغتها قائلاً بمرح:

_أتعلمين كنتِ على حق، أنتِ أكثر شجاعة مني أيتها العجوز.

_أتدعوني بالعجوز أنت الآخر أيها الغريب!، يبدو أن غباء ماثيو معدٍ، (تجيبني بمرح، ثم تضحك عند جملتها الأخيرة، أبادلها الضحكة بمثلها وتشاركنا ماري، ثم أردفت بأسى وقد فرت دمعة هاربة من عينيها:)لازلت أدعوه بالغبي حتى بات غبياً بالفعل، لعليّ من سقت له القدر بذلك.

ربت على كتفها بينما احتضنتها ماري وهي تردد:

_سيغدو بحالٍ أفضل.

مر وقت طويل بهدوءٍ مميت، فتحت حقيبتي وأخرجت منها الصندوق الخشبي، حاولت فتحه من جديد، أحاول كثيراً لا فائدة، أتأمل النقوش التي عليه، يتملكني الغضب من جديد، أمسك الصندوق وأرميه بعيداً فيصدر صوتاً وكأن أحدهم يتألم، يجلس أهل المكان من مقعدهم، يوجهون أنظارهم باتجاهي بشكلٍ مفزع، ثم يخرجون من حجراتهم يتوجهون نحو الصندوق، تتشبث ماري بذراعي، بينما تهرول عينيّ الجدة هانّا بينهم، اقترب من الصندوق واحمله من جديد قبل أن يصلوا إليه، يقفون حولنا يرمقوننا بنظرات مبهمة، أكلمهم، أسألهم ما هذا المكان لا يجيبون!، تقترب منهم الجدة هانّا تسألهم عن حالهم لا يجيبون!، أسأل الجدة هانّا:

_هل باستطاعتكِ تفسير ما يحصل؟!، أكاد أن أصاب بالجنون.

تهز رأسها نفياً، أصرخ بهم من جديد:

_لا وقت لدي أرجوكم ساعدوني يجب أن أنقذ ماري.

لا يتحرك لأحدهم جفن، بعد وقت طويل من النظرات المبهمة، يقتربون منا يحكمون قبضاتهم حول سواعدنا، يسوقوننا نحو جانب أحد جدران المكان و يدفعوننا نحوه!، لكنه لم يكن جداراً فقد اخترقناه بسهولة، ووجدنا أنفسنا في مكان مظلم لم نعد نستطيع أن نرى ما داخل الدائرة البيضاء، ولم يعد بوسعنا اختراق الجدار ذاته للعودة إلى داخلها، ولا زالت ماري متشبثة بذراعي، ناديت الجدة هانّا فأجابتني على فورها:

_أنا هنا أيها الغريب!.

حررت ماري ذراعي وهي تسأل:

_أين نحن؟!، وماذا الآن؟؟.

فجأة أشعر بيدٍ تحكم قبضتها حول ساعدي، و تسوقني لا أعلم إلى أين؟!.

_إلى أين يا ماري؟.

تجيب ماري مشدوهة:

_أنت التي تمسك ذراعي و تسوقني أنا من يجب أن يسأل؟!.

يباغتنا صوت الجدة هانّا:

_إلى أين تأخذني أيها الغريب؟!.

يفزعني سؤالها، أصرخ وأنا أحاول تحرير يدي من اليد التي تمسكها بأحكام:

_ظننتكِ من يمسك يدي ويسوقني في الظلمة؟!.

_ماذا؟؟!، وكذلك ظننتك؟!. (تقول ماري بفزع)

_أين أنت أيها الغريب؟!. (تسأل الجدة هانّا بصوت يمتعض خوفاً)

_لا أعلم؟!. (أجيبها بفزع وأنا أردد أتركني يا هذا، من هنا؟!، من أنت؟، لكن لا يجيبني أحد!.)

.....<<>>.....

تملكني اليأس عدة مرات أطاح ببراثنه بهمة سعيي نحو النجاة، لكنني سرعان ما استطعت التملص منه وإكمال مسيري، لازال الحزن يطوقني على أصدقائي، ولازلت أبكي فقدانهم، مع مرور الأيام الكئيبة غدت حالتي متخبطة، تارة أستسلم للفشل وأجلس منتظراً الموت، وتارة أخرى أصارع الموت فأطرحه أرضاً عدة مرات وأرفع يدي للحياة صارخاً بلذة الفوز، متحدياً العقبات بنزال آخر.

لم أكن من الأشخاص المستهترين بالوقت يوماً، الحياة بالنسبة لي قيّمة، كل ثانية تمر هي بمثابة غنيمة يجب ألا تمر سدى، لذا بدأت بجمع الأعشاب، منها قد مرت علي قبل الآن، ومنها لم أعرف لها قيمة أبداً، لكنني احتفظت بها بجيب حقيبتي الخارجي، علّي أعود لدياري يوماً وأعلم ما فوائدها وما أضرارها، لعلي أخرج من هذه الجزيرة المبهمة بكنز المعرفة.

سمعت صوت أحدهم يتمتم، تبعت مصدر الصوت الذي بدا لي بعيداً، اقتربت منه بشدة لكنني لم أستطيع تمييز مصدره، فقد غدى الصوت يخرج من كل مكان، لكنني لم افهم من الحديث شيئاً رغم اقتربي من مصدر الصوت، الصدى الموجود جعلني أتوه عن فهم الحديث، خطر لي ربما تكون تلك الأشباح، أو ربما أولئك الجن، قررت الابتعاد بعد أن تيقنت في قرارة نفسي أن الصوت هو مجرد فخ للإيقاع بالناجي الأخير على أرض الجزيرة حتى الآن، رغم أن مسألة القضاء علي من قبلهم لا تحتاج لنصب فخ لي، ألا أنني أظنهم يحبون التسلية بضحاياهم، قررت الهرب، لكن ما أوقفني صوت أنثوي رقيق، تبين لي فيما بعد أن مصدره

خلف الأعشاب الهشة الباسقة التي حجبت بيننا، لكن السؤال ما الذي جعل الأصوات من خلف هذه الأعشاب تعطي صدى دوي يصم الأذان؟!.

اخترقت جدار الأعشاب الهشة الباسقة لأجد أجمل وجه قد عرفته البشرية قد سلب عقلي، حسناء صاحبة الوجه الطفولي بملامحه البريئة، تعلوه عينان قد أسرت قلبي بجمالهما و لونهم البحري البراق، رفعت عن وجنتها خصلة تدلت من شعرها الطويل جداً ذو اللون الأشقر وهي تحدثني، كان بصحبتها رجل عجوز قد طرحه المرض أرضاً، فتحت حقيبتي أبحث له عن بعض الأعشاب تساعده على التحسن وأنا أعدد فوائد كل منها على حدى، بعد أن وجدت ما يفي بالغرض خطوت مسرعاً أبحث عن عيدان لإشعال نار، سألتني الفتاة بصوتها الذي وقع في أذناي وصولاً إلى قلبي فغشاه:

_ما الذي تود فعله يا هذا؟!.

_أدعى جورج (اقتربت منها باسماً أهمس لها:) كما أخبرتكِ سابقاً.

وبسرعة خاطفة وضعت خنجرها على رقبتي وهي تصرخ في وجهي بغضب هادر:

_إياك ان تفكر بالاقتراب منى دون أن تترك مدى بيننا أيها الأحمق.

_أعتذر، لم أقصد الإساءة، أردت أن تطمئني لي، حاولت أن أبدو لطيفاً، عذراً أن أخفتكِ.

شدت من قبضتها التي أحاطت عنقي، ثم أردفت بثقة:

_وجد لا تخاف أيها الأحمق.

سألتها برقة باسماً:

_إذاً اسمكِ وجد أيتها الشجاعة!.

طلب منها العجوز إفلاتِ ففعلت، أضفت بتؤدة:

_أود جمع بعض العيدان لإشعال النار، لدي إناء أود أعداد بعض الأعشاب لهذا العجوز، (ثم أضفت بنبرة سخرية مستفزة:)أتسمحين لي؟.

_أعذرها أيها الطبيب جورج أنها في حالة متخبطة، أدعى السيد مايكل، وهذه ابنتي الوحيدة وجد.

_لا مشكلة، سأعد لكَ أعشاباً تساعدك على الشفاء.

_أشكرك.

قمت بإعداد بعض الأعشاب التي ساعدت العجوز فيما بعد بالتحسن، روى لي سبب مجيئه، كما رويت له سبب وجودي الآن بجانبه، رويت له تفاصيل رحلتنا مما جعل قلبه ينقبض، فهو وابنته لم يمروا بما مررنا به، بكيت فقدان أصدقائي، أجهشت ببكاء عميق وكأنني للتو قد استوعبت فقد فكرة فقدانهم الكاملة، مرت عدة أيام أخرى، أصبح العجوز في صحة جيدة، قررنا إكمال المسير، سرنا بخطى مبعثرة يائسين مهزومين، جل ما أخشاه أن أفقد هذه العائلة وأعُد وحيداً من جديد، وصلنا إلى اتجاهات متفرقة، أسأل:

_في أي الاتجاهات تشاء المسير سيد مايكل؟!.

باغتتنا وجد قائلة باستجداء:

_فلتره الخريطة يا أبتي لعلنا نجد طريق نبتة الحياة؟.

أسأل بدهشة:

_ما هي نبتة الحياة؟!.

أردف السيد مايكل بسخرية:

_لا تلقي بالاً، أنه مجرد كتاب لعيّن، خربش به أحدهم بعض الرسومات اللعينة بين طياته، ليتبعها أبله مثلي.

_أبتي فلتريه إياه علنا نجد ضالتنا؟.

_وما نفعها يا ابنتي، أننا نقضي ما تبقى لنا من أيام وربما ساعات، ألم تسمعي ما قاله الطبيب جورج عن وجود الجن و الأشباح على أرض الجزيرة، يبدو أنهم من حجبوا عنا طريق النجاة.

تحكم وجد قبضتها حول عضد أبيها وهي تتلفت حولها، ثم أردفت بغيظ:

_عله يسخر منا يا أبتي؟!، يبدو أن له غاية ما؟؟!.

استشطت غضباً، صرخت في وجهها بحنق شديد:

_ولما أسخر منكِ؟!، وما الغاية التي تتحدثين عنها؟!!، هل من معرفة سابقة تربطني بكِ بثأر قديم، أم تري أننا في إحدى الشركات العالمية نتقدم لذات الوظيفة وعلى أحدنا أن يفوز بها لذلك أخوض معكِ معركة نفسية أدمركِ بها، (ثم أكملت بنبرة ساخرة:) أننا يا جميلتي على أرض جزيرة ملعونة سكانها مجرد جن و اشباح مخيفة، لا وجود لبشريين آخرين غيرنا.

طرحت حقيبتها أرضاً، ثم أجابت تصرخ في وجهي:

_تريد اخافتنا فحسب.

أسألها بذات اللهجة:

_ولما أفعل ذلك؟!، هذه الجزيرة اللعينة سلبتني أصدقائي، كل ما رويته لكم حقيقة.

أردفت وجد بشراسة:

_ولماذا لم نرى من هذه الحقيقة شيئاً؟، أشك أن كان لك أصدقاء، كما أرى أنك طبيب مغرور أبله فضولي.

طرحت حقيبتي أرضاً أبحث لها عن دليل صدقي تلك الصورة التي جمعتني بماري ودانيال قبل صعودنا للطائرة، بحثت داخل حقيبتي كثيراً طرحت كل ما بها أرضاً بغضب، ثم بدأت بإفراغ جيب حقيبتي الخارجي، اقترب مني الاثنان مشدوهين وعيونهم شاخصة نحو النباتات التي أخرجتها.

_هل من شيء غريب؟!، أتشعران بشيء غريب؟!، أم تريان شيء لا أراه؟!.(سألتهم وأنا التلفت حولنا)

باغتني صوت وجد الضاحك:

_أنها ذات العشبة يا أبتي، أليس كذلك؟!.

يومئ السيد مايكل ضاحكاً، ثم يلقي سؤاله:

_من أين لك بهذه العشبة أيها الطبيب؟.

أسأل ببلاهة:

_عن أي عشبة تتحدثان

أشارت وجد إلى عشبة، ثم أردفت مشدوهة:

_هذه!.

_قد وجدتها في الوادي أسفل الجزر المعلقة التي حدثتكم عنها، لكنني لم أعلم لها فائدة.

_أبتي فلنذهب إلى هناك لنحضر المزيد منها. (تقول وجد التي لازالت مذهولة)

_هل تعلمون عن هذه النبتة شيئاً؟!، هل تستطيع إنقاذنا من لعنة هذه الجزيرة!؟.
(أسأل ببلاهة، وعيناي تتفحص النبتة التي أذهلتهم)

_تعال و أنظر أيها الطبيب.

توجه السيد مايكل نحو حقائبهم، أخرج من الحقيبة كتاب قديم قد عصفت به سنين طوال، نظرت مطولاً إلى عنوانه الذي بلغتنا (جزيرة الموت، غموض لا نهاية له) أصرخ مدهوشاً:

_إنه كتاب العجوز هانّا!.

_ماذا تقصد؟. (تسأل وجد، بينما يديها لازالت تفرق نبتة الحياة عن سواها وكأنها تحفظها عن ظهر قلب)

_لقد حدثتنا العجوز عن هذا الكتاب قبل الآن!. (بدأت بتقليب الصفحات إلى أن وصلت لصفحة نقش عليها الصندوق الذي بحوزة دانيال، أشرت عليه بسبابتي وأنا أضيف:) هذا الصندوق هو الذي كان بصحبة صديقي دانيال.

باغتتنا وجد قائلة:

_هل هذا هو صديقك دانيال وصديقته ماري، يبدو بأنها الصورة التي كنت تبحث عنها أيها الطبيب!.

توجهت إليها تناولت الصورة وأنا أومئ مبتسماً وقد فاضت عيناي بالدموع لمرآهم، باغتنا السيد مايكل قائلاً:

_لكن ما يقلقني الآن تلك القواعد التي تحدثت عنها ولم يمر أي منا عليها، ولما لم يتحدث الكتاب عنها؟!.

.....<<>>.....

_أرجوك دانيال ساعدني، أشعر أن عظامي تتحطم.

لا أعلم كيف وجدت نفسي مرمي أرضاً وبجانبي ماري التي تتأوه من الألم، والعجوز هانّا منكبة على وجهها، اقترب منها زاحفاً ببطئ شديد أشعر بألم يحتل سائر جسدي، أحاول إيقاظها، لكنها لا تستجيب، يباغتني صوت أحدهم يتكلم بهدوء:

_لا تقلق أيها الشاب ستكون يقظة وتستمع لحديثنا، لكنها لا تستطيع تبادل الحديث معنا لكي لا تقاطعنا. (بحركة خفية وكأن أحدهم يُجلس الجدة هانا على كرسي، شكلها يوحي انها يقظة، أنظر لها فتومئ لي برأسها بحركة تعني (لا تقلق) تكمل صاحبة الصوت حديثها:) أظنك المختار لهذا العام أيها الشاب؟.

تهرول ماري إلي وتتشبث بي من جديد، أتلفت حولي، لأجد صاحبة الصوت، تباغتني قائلة:

_أنا هنا أيها الشاب.

نقترب منها حسناء شقراء ناصعة البياض، ترتدي ثياباً بيضاء شأنها كشأن ساكني ذاك المكان الغريب، تجلس بوقار على كرسي ملكي مخملي أحمر اللون يعلو مسنده تاج ذهبي اللون فوق منصة رخامية وضع عليها فرو ناصع البياض، وبجانبها طاولة دائرية، وضع عليها فرو أبيض اللون، شكلها يبهج النفس ويبعث الطمأنينة.

_من أنتِ؟!. (أسألها متعجباً)

تضحك بنعومة، ثم تجيب:

_أنا أراقبكم مذ كنتم ضائعين في البحر أيها الشاب، مذ دخلتم الجزيرة علمت أن ابانوب قد أرسلكم لتكون رسوله النقي ناقل الصندوق لهيلانة.

أجفل، أسأل:

_وكيف علمتي أن ابانوب من أرسلنا إلى هنا؟.

_لا تجزع أيها الشاب، مشكلتك أنك فضولي ومتسرع أيضاً، وشهيتك مفتوحة لكل جديد، تتناول الأحداث بنهم، غير مكترث لما تتناوله، يسهل الإيقاع بك، لكن الشيء الوحيد الذي أعجبني بك، أنك شجاع مستعد للتضحية بحياتك لتنقذ محبوبتك، وبالتالي أنك صبرت ولم تقترب من طعام ساكني أرض النور.

_لكنني كنت لأفعل لولا وجود الجدة هانّا، يؤسفني قول أنني لست من تنتظرونه، أنا لا أملك صبراً.

_أعلم ذلك، لكنك تملك شجاعة قلبٍ حديدي نقي السريرة وهذا ما نبحث عنه منذ أعوام، تلك الشجاعة التي أحكمت على عدم صبرك.

_ماذا تقصدين بقولكِ هذا؟!.

_بوابة الشيطان تفتح كل خمسة أعوام مرة واحدة، ولا تفتح سوى للأنقياء.

_لا أعلم مقصدكِ حتى الآن!؟.

_فلتصبر قليلاً أيها الشاب!.

_لماذا تتحفظين على هؤلاء البشر على أرض الجزيرة؟!، ولماذا قتل الكثير منهم بينما بقي الأخرون أحياء لا يعون شيئاً مما حولهم، وما علاقتكِ بـ ابانوب. (تسأل ماري برعونة)

تضحك كثيراً بصوتٍ زلزل الأرض وأفزعنا، ثم تضيف:

_على رسلكِ يا ابنة ابانوب.

زادت ماري من حدة تشبثها بذراعي، أشعر بارتجاف أوصالها، أربت على يدها، وأعيد السؤال الذي طرحته مرة ثانية، تضحك من جديد، ثم تجيب بهدوء مريح بعض الشيء:

_كن صبوراً يا هذا، ستدرك الإجابات التي تبحث عنها في وقتها، لا تكثروا من الأسئلة، دعوني أخبركم بما يهمكم معرفته، لم يتبقى لدينا الكثير من الوقت، فبوابة الشيطان لا تفتح إلا قبيل الفجر كل خمسة أعوام كما أخبرتك، ولم يتبقى لذاك التوقيت سوى بضع ساعات.

نومئ إيجاباً، ثم تكمل:

_أدعى سيرينا إحدى أميرات الجن، توفي جسدي الذي قتل بخنجر مسموم منذ سنين طويلة، وما تراه الآن ما هو سوى روحي النقية، لدي أخت تدعى هيلانة ملكة عرش العالم السفلي هي من قتلتني لتوقظ روح الشر بقتل الأنقياء.

أقاطعها قائلاً:

_هيلانة هي تلك المرأة التي ذكرها ساروخ و دنهش!.

_نعم هي، أنا من أرسلت لكما ساروخ لينقذكما من بطش دنهش، (دعتنا للاقتراب منها، وطلبت منا النظر على جدار بجانبها أبيض اللون، سرعان ما انبثقت منه فجوة، تراقصت الأطياف تريني جميع ما ترويه على مسمعي) سأبدأ لكما القصة بي....

زادت هيلانة من حدة طغيانها وعصيانها، فقررت القضاء على الشر بالتخلص منها، لكنها كانت حذقة، علمت بما أنوي فعله بصحبة ساروخ لهذا كادت لي المكائد وتخلصت من ساروخ لتضعف قوايّ، ثم بعد زمن طويل من الحروب الطاحنة بيننا استطاعت خداع أحد الأنقياء، و حرضته على قتلي وقتلته بعدي لارتكابه خطيئة جعلت لها سلطة عليه، جعلتني مجرد روح وتستطيع القول أنني مجرد طيف لهذا لم أعد أستطيع القضاء على هيلانة وشرها، لازالت تجند المزيد

من الأشرار من العالم السفلي، والمزيد من الأشرار من العالم الفوقي ليساعدوها، حالمين بملكوتٍ يشبه ملكوت النمرود، لكنهم رغم كل ما توصلوا له من قوة وسلطان وتعويذات شريرة لم يستطيعوا قتل واحدٍ من الأنقياء ما لم يخطئ، لهذا لازالوا يقومون باختلاق الحروب والأمراض المعدية لتحصد أرواح الأنقياء و تغربلهم وليبرز عصيان الأشرار ويسهل التعرف عليهم لاختيارهم.

_هل يعقل لبشري ألا يخطئ، جميع البشر قد جبلوا على الخطيئة أيتها الحسناء؟!. (أسألها بعد أن حدجتها بنظرة ارتياب)

_الخطيئة التي نتكلم عنها خارج حدود الجزيرة هي إتباع السحر وأعوانه وأهله لنيل مبتغى دنيوي أيها الشاب، والخطيئة التي نتكلم عنها داخل الجزيرة هي إزهاق روح بريئة، كذبح ماثيو للطائر وتناوله، في الحقيقة قد حجبت عني قواعد الجزيرة، كما أنها حجبت عنكم، فالقواعد على أرض الشياطين تطبق على البشر فقط، دعنا نتمنى أن تكتمل مهمتكم دون ارتكاب خطيئة، لنكمل ما بدأناه، ليس لدينا المزيد من الوقت، أنظرا للفجوة بتمعن.

أومئ إيجاباً، عادت الأطياف تتراقص في الفجوة المنبثقة وسرعان ما عادت الصور المتحركة التي تتحدث عن الحقيقة، نشاهدها وكأننا نتابع فيلم على شاشة تلفازي التي في المنزل، أردفت بتؤدة:

_لنبدأ بالقصة منذ البداية...

خلق ابانوب وشب في منزل والده أحد أعوان هيلانة الذي اتخذته كمساعد أول لها، وقد ورث ابانوب عنه ذلك وأصبح أحد أعوانها الذين تجبروا وطغوا، رزق بأبنتيه ماري وماريتا، لم يسعده ما أهدى الإله له، فزاد من حدة عصيانه كي يرزق بمولود ذكر، فساعدته هيلانة بالحصول على مراده بأن يستطيع ابانوب تحديد المواليد في بطون أمهاتهم، فصارت تقصده النساء من جميع جوانب الأرض لتحديد مولودها، انصلح حال ابانوب مع فتياته الجميلات بعد سنة من ولادتهم فتعلق بهم، لم تعد زوجته تستطيع الحمل بدون سبب يذكر مما أغضب ابانوب، فبات يعامل زوجته أسوء معاملة، تشمل التعذيب الجسدي والنفسي

بمساعدة أعوانه من العالم السفلي، فغدت هيلين كالمجنونة، هربت من جبروت زوجها إلى حب شاب من العالم السفلي يدعى بايور، وكانت علاقتها تتوطد مع ذاك الشاب كلما زاد ابانوب من حدة تعذيبها، فغدت هيلين تحمل جنيناً في أحشائها لكنه لم يكن ولد ابانوب بل ولد بايور، لم يكن ابانوب على علم بذلك فسره خبر حمل هيلين وحدد نوع مولوده ذكر، أهتم ابانوب لحال هيلين و اعتنى بها، كانت هيلين تعاني من اضطرابات نفسية شديدة، وازدادت حالتها عند قرب ولادتها، أنجبت هيلين الذكر الذي كان ابانوب يحلم به، وبعد أربعة أشهر من ولادته وشى أحدهم من سكان العالم السفلي بحقيقة جو أبن بايور لابانوب الذي أشتعل غضباً، فأخذ فتياته ووضع كل منهم في مكان، لكن المهم أنه وضع بصحبة إحدى فتياته صندوقاً يحوي طلاسم توصل لها ابانوب بمساعدة أعوانه من العالم السفلي تزيد من جبروت مالك عرش العالم السفلي، وذاك الخنجر الذي قتلتني به هيلانة والقادر على قتلها، والفتاة هذه هي أنتِ!. (وهي تنظر نحو ماري)

_وما الذي حصل لهيلين وجو بعد ذلك؟، وما الذي حصل لابانوب؟.(تسأل ماري بهدوء بينما عيناها غاصت بدموع لها معان شتى)

_سأجيبكِ، قبل أن يخرج ابانوب بكما، حضرّ أعوانه من الجن لمساعدته بقتل بايور مقابل ذاك الصندوق الذي ظنوا أنه يحتوي نهاية هيلانة الذي يحلم جميعهم بقتلها وتسلق عرشها، وبالفعل قد أرغموا بايور على فصل رأس طفله عن جسده بيديه مقابل أن يتركوه حياً، لكن الأشرار كعادتهم لا يحفظون عهداً، وفيما بعد قُتل بايور وهيلين بأبشع طريقة قد شهدتها البشرية، في هذه الأثناء ذهب والدكما بكما كلٌ إلى مصيرها، ربما كان خائفاً من الفشل ولهذا أخذ احتياطاته اللازمة.

ثم عاد سريعاً ليكمل ما بدأه، قطع جسد بايور وهيلين بعد أن كتب عليه ابانوب بعض طلاسم نهاية هيلانة، كان من المفترض أن ينهي الأمر على الفور، لكن جوشوا حارس منزله اختفى ومعه المخطوطة التي سرقها من حجرة ابانوب، وبعد المزيد من البحث المطول الذي دام لعامان وجده، وقبل أن يشي لأعوانه بمكان الصندوق وإكمال طلاسم نهاية هيلانة، علم أحدهم بنية ابانوب السوداء بقتل جميع من شاركه، بعد التخلص من هيلانة وتسلق عرشها، ليكمل مسير

حلمه نحو سلطان النمرود، فوشى لهيلانة بما يحاك لها من مكائد، فجاءت إليهم على حين بغتة وسلبت أرواحهم الشريرة، وللمرة الأولى يسلب شرير روحاً شريرة، وقتلتهم جميعاً، أنزلت هيلانة على أبنتي ابانوب لعنة بعدم أن ينبض حب متبادل في حياتهم تحت وثاق الزواج، وأن حصل وهذا أمر لا بد منه بين البشر فمصيرهم الموت بأسوأ طريقة، بغية الحصول على الصندوق بعد أن علمت أن ابانوب عادت روحه تجوب رحاب الأرض بمساعدة أعوانه، كانت تظن أنه عاد ليحفظ ابنتيه من شرها، لهذا زادت من حدة لعنتها أن تطال من بادلهم الحب كذلك، ومازالت حتى الآن تبحث عن الصندوق.

_لهذا إذاً ماريتا ماتت في ظروف غامضة؟!، ولهذا تموت كل امرأة أود الزواج منها؟!.

_للأسف أن نصيباً وافراً من اللعنة قد أصابك، لكنها لم تستطيع قتلك حتى الآن لنقاء سريرتك، لو حافظت ماريتا على نقاء سريرتها لما تغلبت عليها هيلانة.

_تقصدين أن ماريتا لم تكن نقية السريرة؟!. (أسألها مشدوهاً)

_نعم، لقد استطاعت هيلانة قتل ماريتا التي ارتكبت خطيئة وأصرت عليها.

_لكن ماريتا كانت طيبة جداً ،ولا أظنها قد ارتكبت خطيئة في يومٍ ما؟!.

_كان ابانوب يظهر لماريتا على أنه جنيّ يمكنه تحقيق الامنيات كذاك الجني الذي خرج لعلي بابا، والمسكينة قد أمنت بكلامه دون ريب، وقد أخبرته بحبها لك، فبدأ ينسج حولها الأقاويل والقصص والحقائق الوهمية عنك، وأنكَ لا تحبها، لهذا طلبت منه أن يجعل قلبك ملكاً لها وحدها، فأدلى لها بطلاسم علمها كيفية تطبيقها.

_أتودين أخباري أن ماريتا كانت تربطني بها بسحر!. (أجفل لما سمعته غير مصدق)

_المسكينة وقعت في مصيدة شر ابانوب الذي أدلى لها بطلاسم تقضي على هيلانة، جعلها مجرد ضحية، و مجرد فدوة علها تنجح ليعود أقوى مما كان، كانت هشة برقتها وطيبتها ولم تكمل الطلاسم وإلا قد قضت عليها هيلانة لأن ماريتا لم تعد نقية بارتكابها خطيئة اللجوء للسحر، حاول طلب العفو مرة أخرى، لكن هيلانة لم تعفو عنه لأنها لم تنل مبتغاها، فقد كان مبتغاها الصندوق الذي رفض ابانوب محاولة تسليمها إياه قبل عقد اتفاق يرضي الطرفين، لكن هيلانة رفضت المُساوَمة، ودامت الحرب بينهم لسنوات، إلى أن توصلوا لحل يرضي الطرفين، أن يعود كل شيء كما كان بعد تسليم الصندوق بطريقة يجدها ابانوب.

وطلبت مني إمعان النظر عبر الفجوة، فوجدت ماريتا في حجرة الفندق الذي كانت تقيم به قبل زفافنا بأيام تكتب على قميص يخصني، فجأة بدأت ماريتا بالصراخ وقول كلمات غير مفهومة، وفيما بعد قلبت عيناها إلى الأعلى وأحتل سائر عينيها وهجاً أبيض، زادت من حدة صراخها بصوتٍ يمزق حنجرتها ألماً، ثم بدأ جلدها بالانكماش كما تلاشى لحمها إلى أن التصق جلدها بعظمها وتحولت لهيكل عظمي يغطيه جلدٌ بشري، صرخت آخر صرخة كان لابد أن يسمعها الأنس والجن من حدتها، لكن لشر هيلانة وابانوب لم يسمعها القائمين في الفندق حتى، ثم سقطت أرضاً، واختفت الفجوة.

_ما الذي حصل معها؟، لماذا تلجأ ماريتا للسحر رغم علمها بحبي لها!؟. (أسألها بأسى وعيناي قد اقتحمتها بركة دموع ملتهبة)

_النفس البشرية جبلت على الطمع أيها الشاب، والمسكينة لم تكن تعلم خطورة ما تفعله، رغم إدراكها لحجم الخطأ!، ألا أن كان لابانوب تأثير قوي عليها.

_ولماذا لم تستطع هيلانة إيجاد الصندوق رغم جبروتها؟.(أسأل بحنق)

_لأن الصندوق وضع بين يدي الأنقياء، و ما لم أخبرك به أن هيلانة وأعوانها من الأشرار لا يستطيعون استراق النظر لما يخفيه الأنقياء، كما ليس لهم سلطة عليهم، لهذا تصنع لهم المكائد بحروبٍ جائرة كي يحصد بعضهم بعضاً.

_ألهذا السبب تحتفظين بهؤلاء البشر، راغبةً بإيجاد الصندوق. (أسألها باستهجان)

_ليس ما يهمني الصندوق أيها الشاب، بل القضاء على الشر، سأخبرك بشيء مهم قد سبق وأخبرتك به، الصندوق يهم هيلانة للطلاسم التي توصل لها ابانوب وأعوانه، والتي تستطيع بها تملك العالم السفلي والتحكم بالعالم العلوي، والخنجر الذي يستطيع نقيّ القضاء عليها به للأبد.

_ولماذا لم يطبق ابانوب الطلاسم و يكن الأقوى، فهو استطاع الحصول على ودي، كما استطاع أن يسوق الصندوق إلى منزلي، وهو يعلم كيف يفتح الصندوق وكيف تطبق المخطوطات التي بداخله والتي تحتوي الطلاسم التي يبحث الجميع عنها. (أسأل بحدة فقد طغى على خلايا عقلي لمسة البلاهة)

_بعد أن قتلته هيلانة فهو بالنسبة للأنس غير موجود، وهذا لن يرضي ابانوب، لهذا يريد أن تعانق روحه جسد شاب فتيّ، و ليتخلص من جسد العجوز الذي يسكنه فأنه هش جداً، وبدون هيلانة لن ينجح في ذلك، لهذا يتحايل عليها ويقدم التضحيات لتقبل، وعندها يستطيع إكمال الطلاسم والتغلب على هيلانة، ويجلس على عرشها وكأنه النمرود. هذا ما يخطط له، لا يعلم أن فشل ستقضي هيلانة على جميع من يعترض طريقها وسيغدو العالم برمته تحت أمرتها.

_لهذا هيلانة لا تثق به. (تقول ماري بازدراء)

_ تماماً.

_ولماذا لم يحضر الصندوق بنفسه؟.(أسأل باستنكار)

_كما أخبرتك أيها الشاب الصندوق لا يراه إلا الأنقياء، ولا يستطيع حمله ونقله سوى الأنقياء.

_كيف ذلك وهو صندوق يخص ابانوب قد وضعه بنفسه بصحبة ابنته!؟.

_لأن ساروخ كان حارس الصندوق سابقاً بأمر من ابانوب، لكن بعد قتله صديقه بايور استطاع لاحقاً إخفاء الصندوق عن أعين الأشرار بتعويذة ألقاها عليه، فلم يعد باستطاعتهم لا رؤيته ولا نقله، ودفع ثمن ذلك الكثير من قواه فأصبح هشاً، اختفى لأعوام كثيرة والآن عاد في التوقيت المناسب لمساعدتنا بعد أن وهبه أباه بعض قوى أخاه دنهش الذي تم نبذه.

_ولماذا أنا بالتحديد؟.(أسأل بحدة)

_لأنك نقي السرير تحب بصدق وتخلص لمن تحب، سأشرح لك أكثر (أنظرا للفجوة) أن نقله نقي لهذه الجزيرة وارتكب خطيئة واحدة يختفي الصندوق على الفور، وأنت شاب حذر، وحبك لماري جعلك أكثر حذراً، لهذا أكد لك ابانوب الحذر من الخطيئة على أرض الجزيرة، حاولت هيلانة وابانوب كثيراً الوصول إليه لكن محاولاتهم تكللت بالفشل على مدار السنوات الماضية، كنت المختار منذ عهد ماريتا لكن شر ابانوب وأنانيته لم تتحمل الانتظار أكثر ففشل غير آبه بمصير ابنته (وانبثقت من الفجوة صورٌ عدة لأشخاص يحملون ذات الصندوق والكثير منهم كانت نهايته مأساوية)

_و لماذا الجني ساروخ يساعدكِ؟!. (أسأل باستنكار)

_هو يساعدنا جميعاً، فجميع أنقياء البشر يحتاجونه.

_ومنذ متى يأبه جني لحال البشر؟!. (تسأل ماري باستهجان)

_لأنه أولاً كان زوجي و لازال يعشقني و يبتغي الوصول إلي بعد أن تعانق روحي جسدي، وذلك للأسف لن يحصل أبداً، هو يظن أن ذلك سيحدث عندما تنتهي لعنة هيلانة التي ألقتها عليّ، واللعنة لن تنتهي ما لم تمت هيلانة وتحبس روحها في جمجمة بإحدى المقابر تحت الرمال، ثانياً لأجل صديقه بايور الذي تم قتله بوحشية على يد ابانوب، ثالثاً يود قتل هيلانة لأجل ألا تصل لمبتغاها وتسيطر على عالمنا، هل تود معرفة شيئاً آخر.

_ما حال الذي اختفوا على أرض الجزيرة ؟، وما قصة هذه الجزيرة الغامضة؟.(أسأل بحدة)

_هذه الجزيرة أنشأتها هيلانة لتضع عرشها فوق الماء، إنكَ في أرض الشياطين، هنا لجميع الشياطين سلطة إلا على الأنقياء لا يستطيعون المساس بهم، أما من يرتكب الخطيئة من البشر فأنا هنا لأجل إنقاذهم والاحتفاظ بهم في أرض النور، حتى تنتهي لعنة هيلانة فيعودوا إلى إكمال حياتهم حيث يشاؤون، إن استطعت ذلك، فالكثيرون قضوا نحبهم قبل أن أستطع إنقاذهم.

_إذاً حراس الجزيرة ليسوا أشباح بل شياطين؟؟!!. (أسأل وقد بدا على ملامحي الفزع)

_لا تجزع إنهم هنا وهناك، إنهم في كل مكان، لكن ليس بإمكانك رؤيتهم إلا على أرض الجزيرة هنا!!.

_ما دمتي جنية لماذا لا تُعيديهم إلى الساحل ليكملوا حياتهم هناك إذاً؟؟! (تسأل ماري باستهجان)

_ لا عودة من أرض هذه الجزيرة ما دامت هيلانة تملكها!.

_لكن أحدهم قد عاد يوماً!؟. (أقول باستنكار)

_لم يعد إلا من لم يطأ أرض هذه الجزيرة.

_لكن أخ ماثيو قد عاد يوماً. (أقول باستنكار)

_أنا من شئت عودته لكي يدب الفزع بكل من سمع عن هذه الجزيرة ولا يجرؤ أحدهم على الاقتراب منها حرصاً على حياة الأنقياء، وكان ثمن ذلك يعتبر خطيئة قد اقترفتها بقواعد هذه الجزيرة قد شوهت قسماً من روحي النقية، فعقابي ليس كعقاب البشر، لهذا استطاعت هيلانة تحريض أحد الأنقياء على قتلي وقد نجح لارتكابي خطيئة بقوانين أرض الشياطين بما في ذلك خسرت قوتي، وأنا صاحبة

ذاك الصوت الذي كان يرعب أهل الساحل بعد أن يفقد أحدهم على أرض الجزيرة، لكن ذلك للأسف لم يردعهم بل زاد من حدة فضولهم وغدوا يتوافدون بكثرة ليكتشفوا ما يرعب العالم على أرض الجزيرة، فضولهم أودى بهم لهذه الحالة.

_ولماذا حالهم كذلك لا يعون شيئاً؟. (تسأل ماري وهي تتجول في المكان، ثم تقف بجانب الجدة هانّا تحدق بجمود ملامحها)

_لأن المسألة باختصار لو أنهم بكامل وعيهم ربما يخطئون، فالخطيئة فطرة قد جبل البشر عليها، ومن الطبيعي عند العجز الكامل أن يتحول الطيّب إلى شرير، والشخص الصالح لشخصٍ سيئ ليدافع عن غريزة البقاء، لذلك من عجزهم سيصرون على الخطأ وعندها فمصيرهم الموت حتماً ،وبالتأكيد أن كانوا بوعيهم سيحاولون مغادرة الجزيرة عندها ستصيبهم لعنة الخطيئة وعندها فمصيرهم الموت أيضاً لا محالة ،لهذا أحافظ على نقائهم في هذا المكان بعد أن أفقدهم وعيهم بتناولهم لفاكهة القوارير ،وكل خمسة أعوام أرسل أحدهم عله يكن شجاعاً ويستطيع قتل هيلانة رغم افتقادنا للخنجر المطلوب لكن لم يكن لدينا سوى المحاولة.

_تلك الفاكهة الشائكة التي تشبه شكل القارورة؟! (تسأل ماري مشدوهة)

تومئ سيرينا وهي تردد:

_هي تلك؟؟؟

_لماذا لم يقتل ماثيو بعد ارتكابه الخطيئة إذاً؟!. (أسأل)

_لأنه محاط بأنقياء مثلكم، لولا وجودكم بجانبه دوماً لكان في عداد الأموات.

_وهل تعلمين أن الصندوق الذي يحتوي الخنجر بحوزتي؟. (أسألها بارتياب)

_قد علمت منذ البداية أيها الشاب، لهذا عندما رآه أهل تلك البقعة البيضاء ساقوك إلي، وأنت أول من يراني منهم.

_وما المطلوب مني الآن؟.

_أن تعطيني الصندوق، لأفتحه لك وأخرج ذاك الخنجر الذي ستذهبان به و تقتلا هيلانة.

أنا الآن متأكد أنني في كابوس، سأصحو منه قريباً، أنظر حولي وأكلمها بسخرية:

_تلقين مزحة أليس كذلك؟.

_أنت جئت إلى هنا لإنقاذ ماري أليس كذلك؟ (أومئ إيجاباً، تكمل بجدية حادة:) لكن ما لا تعلمه أيها المختار أنه يجب عليك إنقاذ نفسك قبل إنقاذ ملايين الأنقياء، وإلا ستبقى أسير هذه الجزيرة إلى أن تقتلك خطيئة لا بد منها، ما تعلمه أن ابانوب قد بعث بكما إلى هذه الجزيرة لتنقذ ماري، لكن ما لا تعلمه إنه لا يعبئ بأمرك ولا أمر ماري، جل ما يهمه إنقاذ روحه الشريرة.

_كيف ذلك؟.

_ابانوب يعلم أن هيلانة تسكن هذه الجزيرة، وهو هنا الآن.

_هو هنا؟. (أسألها بغضب)

_نعم هو هنا، وهو يعلم بأمر بوابة الشيطان التي نصبت هيلانة عرشها خلفها، وقد علم أن هذه البوابة لا تفتح سوى للأنقياء كل خمسة أعوام، ويعلم أن الصندوق لا يستطيع نقله سوى الأنقياء، وعلم بنقاء سريرتك وحبك الكامن لابنته ماريتا فساقك نحو ماري وساعدك للتقرب منها بعد أن فشلت محاولاته بنقي آخر، وذلك بموت مربية ماري، ومساعدة أعوانه من العالم السفلي بدب الرعب والخوف في جوف ماري لأبعادها عن منزلها، لكنه وجد في ماري شجاعة أذهلته لهذا أحرق المنزل الذي تربت به لتعلم بوجود الصندوق ويسوقهم إليك،

لتقع في غرامها وتسعى في إنقاذ حياتها بنقية سريرتك وشجاعتك الغير معتادة، تلك الشجاعة التي اختبرها برؤياك للحقيقة والتحكم في أعصابك بعد كل حادثة، الأمر باختصار مدبر منذ البداية.

_كيف علمتِ بكل هذا؟ (تسأل ماري وعيناها غارقة ببركان دموع قد أنفجر)

_سأجيبك بمنطق البشر، لأن ابانوب قد سكن جسد الجوز جوشوا بعد أن طال الفناء جسد العجوز الذي كان يسكنه ، فلا سلطة لروح ابانوب سوى على أجساد العجائز الأشرار، ثم جاء للجزيرة على أنه رسولاً لهيلانة يبشرها بأنه سيرسل الصندوق مقابل السماح لروحه الشريرة بمعانقة جسد بشري لشابٍ فتي، و ليعود كما كان أحد أعوانها المقربين، ظن أنه يستطيع خداع هيلانة بجسد عجوز كهل، ثم عليك ألا تنسى أنني جنية أستطيع معرفة مثل هذه الأمور ببساطة.

أسأل بحدة:

_إذاً العجوز جوشوا الذي قابلناه كان السيد ابانوب؟!!!.

_لا. قد كان العجوز جوشوا بالفعل، بعد رحيلكم جائه ابانوب وسيطر على جسده، وساقه إلى أرض الجزيرة بعون أصحابه الذين هم على أرض الشياطين هنا.

_ما الذي حدث بعد ذلك؟. (أسأل)

_ما أن وطأة قدميه أرض الجزيرة حتى أرسلت هيلانة دنهش لجلبه إليها، في البداية وقع بين يدي حراسي وساقوه إليّ، لكن وهم في طريقهم إليّ باغتهم دنهش وخلصه من بين أيديهم.

_كيف استطعتِ التكهن بكل هذا؟. (أسألها بنبرة تشوبها الريبة)

_كما أخبرتك جسد العجوز جوشوا الذي تسكنه روح ابانوب قد وقع في البداية بين يدي حراسي، عندها فرّت روح ابانوب بعيداً عن جوشوا محلقة في سماء

الجزيرة، في هذه الأثناء قام حراسي باستجوابه وعلموا منه كل ما يدور وما يخطط له ابانوب، عندما وصل دنهش عادت روح ابانوب لمعانقة جسد جوشوا، هل من شيء آخر تودون معرفته؟.

_ملخص الحديث أن ابانوب بعث بنا للهلاك كي ينقذ نفسه (تومئ إيجاباً) ويتوجب علي قتل هيلانة لأنجو أنا وماري وملايين الأنقياء (تومئ إيجاباً مرة أخرى، أباغتها بسؤالي) وماذا سيكون مصيركِ حينها؟.

_إن نالت هيلانة مبتغاها سأبقى لمحاربتها علّ القدر يرسل لي شجاعاً آخر، مع العلم أن المهمة ستصبح أصعب بكثير وسيكون ثمن المحاولة غالياً وسيدفع ثمنه ملايين الأنقياء، لكن أن قتلت هيلانة سأنتهي أنا أيضاً.

_ماذا؟.

_ستنتهي مهمتي حينها أيها الشاب، سيسود النقاء وينتصر الخير على الشر.

سألتها وملامح الدهشة بادية على وجهي:

_ألا يحزنكِ ذلك؟.

أردفت بتؤدة:

_لا، فلكل منا مهمته في هذا الكون أيها الشاب سواء في حياته أو حياة الأخرين، ومهمتي تنتهي عند انتصار الخير؛ فكرا في الأمر سريعاً لم يتبقى لدينا سوى ساعة واحدة لحسم الأمر، وأن فاتنا التوقيت سننتظر خمس سنوات أخرى، وأود لفت انتباهك لشيء مهم، مهمتك خطيرة جداً أيها الشاب، سأدعك تفكر بصحبة ماري والشجاعة هانّا فكلاكما يهمه الأمر.

غادرت سيرينا المكان فجأة، بل الأصح لقد اختفت، وكأن الأرض ابتلعتها، وتركتني غارقاً بحيرتي، صرخت قائلاً:

_الذي يحصل لا يصدقه عقل بشري بل يؤكد لي أن ما أراه وأعيشه مجرد كابوس، سأصحو منه عندما يغادرني الجاثوم. {متلازمة الجنية العجوز} الذي يجثو على صدري.

خرجت الجدة هانّا عن صمتها وتكلمت:

_يجب عليكما فعلها أنتم أملنا الوحيد.

أهز رأسي باستنكار وأنا أردد:

_أخشى الفشل!.

_يكن لنا شرف المحاولة. (تقول ماري)

_أتؤمنين بحقيقة الأمر يا ماري، أشعر أنني في كابوس قد بات يزعجني بشكل مبغض، أشعر برغبة جامحة بالصراخ.(أقول بحنق)

اقتربت مني ماري تربت على كتفي قائلة:

_فلتهدأ يا دانيال، كل ما حدث منذ البداية خارج عن الطبيعة، ليس بوسعنا التراجع الآن، لنكمل ما بدأناه.

صرخت بحنق أفزعها:

_لقد دفعت ثمن هذا صديق عمري، أتفهمين هذا يا ماري؟.

تدخلت الجدة هانّا بكلمات كانت بمثابة رباط شد وثاق غضبي:

_فلتهدأ أيها الغريب، أنت أملنا الوحيد، لا تنسى ذلك.

أجلس أرضاً أفكر ملياً في الأمر، ثم أبلغهم قراري.

_لقد انتهيت، لديه المزيد منها يا أبتي!. (تقول وجد بعد أن فرقت النباتات عن بعضها البعض)

جلس العجوز أرضاً لازال المرض يحكم براثنه حول جسده الهزيل، اقتربت منه وجد تبكي حاله، أمسكت بنبتة الحياة وتوجهت بها إليه، ثم باغتهما قائلاً:

_أنني لا أعلم عن هذه العشبة شيئاً، هل تفيد في حالتك؟!.

تجيب وجد باستجداء:

_أنها تدعى عشبة الحياة، أي أنها قادرة على الشفاء من أي مرض كان.

_أتقصدين أنها قادرة على شفاء أيّ مرض، أيّ مرض؟!!؟.

يومئ السيد مايكل كثيراً، أردف بسعادة:

_أذاً من هذه العشبة قد صنع ذلك العقار الذي ساعد بشفاء ماري.

نظر لي الاثنان ببلاهة، أردفت:

_هل تعلم كيف يمكن تناولها؟!.

ناولتني وجد الكتاب بعد أن فتحت على تلك الصفحة التي تشرح عن نبتة الحياة، قد رسم في أسفل الصفحة صورة يد تسحق الأعشاب، ثم صورة أخرى لمريض طريح الفراش يتناولها، ثم صورة لذاك المريض وهو يقف على قدميه يستعرض شجاعة عضديه، أباغتهما قائلاً:

_أذاً علينا سحق الأعشاب، ثم يتناولها المريض. (أنظر لوجد التي تنظر لي باستجداء، ثم أضيف لحديثي ما جعلها تبتسم:) لنفعلها أذاً.

سحقت الأعشاب، اقتربت من السيد مايكل مترددا، أومئ لي بفعلها لكنني ترددت أكثر خوفاً عليه، أخذ مسحوق النباتات من يدي ثم بدأ بتناولها، نظرت إليه متمنياً بين جنبات نفسي ألا تكون سامة وأن يَصدق الكتاب، ثم غط السيد مايكل في نوم عميق جعلني أتحسس نبضه بين الفينة والأخرى خوفاً عليه، مرت ثلاث ساعات أخرى لم يحصل بها شيئاً يذكر، لكن ما أدهشنا عند أستيقظ السيد مايكل وهو في أتم نشاطه وصحته، حتى بشرة وجهه قد صغرت عشرون عاماً فغدى كشاب في أوائل ربيعه، سرت وجد لما آلت إليه حال أبيها، عانقتني بقوة وهي تقبل وجنتي بشدة، مما جعلني أغوص بنوبة خجلها بعد أن ابتعدت عني، وأراقب حمرة الشفق التي طبعت على وجنتيها ضاحكاً، عبثت بخصلات شعرها بحياء، نظرت لها كما لم أنظر لأنثى سواها، قد شغفت وجدي، سرت حرارة في أنحاء جسدي، أطاحت بالجبل الجليدي القابع في شمالي، فغدى يخفق بقوة، ابتسمت لها، لململت خصلات شعرها المبعثرة وهمت بالمسير في المقدمة على عجل.

تابعنا المسير لنعود حيث الجزر المعلقة لنجمع المزيد من نبتة الحياة.

.....<<>>.....

_ليس هنالك حلٌ آخر، سنذهب!.

تومئ ماري كثيراً، بينما تقول الجدة هانّا بنبرة تشوبها المرارة مع بقايا الأمل التي ترسو في القاع:

_لا تنسى أيها الغريب الأمر لم يعد يخص ماري فقط، الأمر يخص جميع أنقياء البشرية، يخص هؤلاء المحتجزون هنا منذ أعوام، يخصني ويخصك أيضاً.

أومئ إيجاباً و أعزم على الأمر بإصرار كبير، أنادي سيرينا فتحضر حالاً، أبلغها قرارنا، وقد سرها كثيراً، أدليت لها بالصندوق. بدأت تتلو عليه طلاسم بلغة لا أفهم لها معنى ففتح الصندوق على الفور، اختلسنا النظر إلى داخله، لا يوجد به سوى مخطوطات عتيقة صفراء اللون قد عصف بها الزمان، بالنسبة لي لا قيمة لها، وخنجر فضي اللون مرصع بماسات حمراء لامعة، وصورة

تجمع السيد ابانوب بوجهه الحقيقي، والسيدة هيلين وماري وماريتا و جو الصغير، تناولتها سيرينا من الصندوق وأعطتها لماري، عانقت عينيّ ماري الصورة كثيراً، نظرت للمرة الأولى لعائلتها المبتسمة، نظرت لعينيّ شقيقتها الضاحكة، حدقت في عيني جو البريئتان، امتعضت ملامحها وهي تنظر لابانوب، بينما تقاذفت دموعها وهي تنظر لوالدتها هيلين، همست تهذي:

_هل يعقل أنهم عائلتي؟، هل يعقل أني عشت حياتي الفائتة بوهم الوحدة واليُتم؟!.

ربتُ على كتفها لتهدأ فعانقتني بقوة وهي تنفجر باكية:

_قد التقيتهم، كانوا هم، لم أكن أحلم؟!.

أخرجت سيرينا الخنجر تأملته وقد اغرورقت عيناها بالدموع، بعد وقت تأمل مؤلم لا يحصى، أعطتني إياه وقالت:

_يجب أن تغرز الخنجر في قلبها غير ذلك لن يجدي نفعاً.

_كيف سنذهب إليها؟.

_عندما تدخل بوابة الشيطان، ستعلم كيف السبيل إليها.

_هل بإمكاني مرافقتهم؟؟ (تسأل الجدة هانّا)

_لا يمكنكِ ذلك فبوابة الشيطان لا تستقبل إلا شخصان من الأنقياء، (ثم توجه دفة حديثها إلي) لا تنسى أيها الشاب بعد عبوركما البوابة الأولى يجب أن تبحثا عن البوابة التالية، وأود لفت انتباهكم لأمرٍ هام إياكم والخطيئة حتى وصولكم أرض هيلانة، خطيئة واحدة ستتيح للأشباح فرصة الفتك بكم.

_كيف نتحاشى الخطيئة أيتها الحسناء؟ (أسأل)

_إياكما أن تجزعا أن اشتمت هيلانة رائحة الخوف فمن السهل عليها إيقاعكم في الخطيئة لتقضي عليكما. (نومئ، ثم تضيف قائلة:)

سأحرق المخطوطات الأصلية وسأستبدلها بمخطوطات تشبهها تماماً، هذا سيعطيكم وقت إضافي، عليك أن تخبر حراس مملكة هيلانة أنكما أتيتما لها بالصندوق الذي أرسله لها ابانوب هذا الأمر سيختصر عليكما الكثير من الصعاب التي واجهها الذين سبقوكم وقضي عليهم منذ بداية المهمة، ليسوقونكم لعرش هيلانة فوراً، لكن إياكم والتهاون إن اكتشفت هيلانة أمر الخدعة هذه، ستقتلكما من فورها وستصب جم غضبها على الأنقياء، عليكما أن تكونا سريعي البديهة بقلبٍ حديدي، ستجدان أثناء رحلتكما قرب كهف هيلانة جمجمة لا تشبه الجماجم البشرية، أحتفظ بها لتحبس روحها بها، ثم قم بدفنها بعمق تحت سطح الأرض.

أومئ إيجاباً من جديد، أشعر بحماس غير معتاد، جهزنا متاعنا بمساعدة سيرينا وأولهم الصندوق للبدء بتلك المغامرة كما اسميتها، وضعت حقيبتي على ظهري وبدأنا خطواتنا الأولى قبل حلول الفجر فإن البوابة الرئيسة لوادي الشيطان لا تفتح إلا قبيل الفجر بلحظات، أوصلتنا سيرينا إلى وسط الجزيرة على بقعة مرتفعة بشكلٍ مهيب، وطلبت منا الانتظار إلى أن تفتح بوابة الشيطان وتركتنا وحيدان وغادرت، وما أن غادرت سيرينا المكان حتى وجدنا أنفسنا نقف أمام بوابة مهيبة ليست قضبان حديدية كما تخيلت، وليست صخرة حجرية ستفتح، وليست فجوة تنبثق من العدم كما ظننت، بل كانت ألسنة نار ملتهبة تشتعل في جميع أركان الجزيرة لكنها لا تلتهم منها شيئاً، سرعان ما خطر لي حديث بعضهم أنه رأى النار تشتعل في الجزيرة دون أن تلتهم ألسنة اللهب منها شيئاً، ليت باستطاعتي أخبارهم أنها بوابة الشيطان، فجأة انبثقت من وسط النيران فجوة كبيرة حمراء شكلها المفزع جعل ماري تتشبث بذراعي وتلتصق بي، سرعان ما خرج منها كائن شكله مريب، وجهه كالح الظلمة عيناه الحمراوان يتطاير منهما ألسنة النار المشتعلة، له قرنان كقرني الثور، بين فكيه أسنانٌ سوداء حادة الأطراف، زمجر في وجوهنا بغضب وبحركة خاطفة أمسك بنا ونقلنا إلى مكانٍ آخر واختفى، الظلمة الحالكة اجبرتنا على استخدام المصباح الذي أعطتنا إياه سيرينا لنرى طريقنا، لنجد أنفسنا في منزل قديم جداً، قد عبثت به رياح الزمان

حتى دمرت أكثر ما فيه، تتدلى من سقفه خفافيش قد ملأته بشكل مفزع، بينما شباك العنكبوت الكبيرة قد أخذت مكاناً لها في كل زاوية من زوايا المنزل بشكل مهيب، أنني ألمح ظلالاً تتحرك بسرعة, ربما أنني أتخيل!، أسأل ماري لأتأكد تومئ برأسها إيجاباً وأنا أرى شفاهها ترتجف، اقترب منها وأعانقها وأنا أربت على كتفها لتهدأ، تنبس من بين شفتيها المرتعشتين قائلة:

_أنني خائفة، دانيال أرجوك أبقى بجانبي (أومئ بصمت، تبعد وجهها عن كتفي تحكم عيناها اللامعة بعيني وتقول:) عدني بذلك.

ابتسم وأنا أردد:

_أعدكِ بذلك.

فجأة تتسلل إلينا أصوات بعيدة وكأنها تتسلل خلسة، ثم تعلو إلى أن تدك الأرض دكاً، صوت طفل رضيع يبكي، صوت صراخ امرأة تتألم، أصوات كلاب تعلو شيئاً فشيئاً، تتشبث ماري بذراعي بينما ارتجف رغماً عني، رغم أنني ظننت نفسي قد تجاوزت هذا الأمر ولم تعد ترهبني لا أصواتهم ولا أشكالهم، فجأة وأنا في أوج خوفي ورعبي أقلب المصباح يميناً ويساراً علني أجد البوابة التالية، فأجد امرأة معلقة في سقف المكان ترتدي ثوباً أبيض وينهال شعرها الأسود فيغطي جوانب وجهها المرعب تحدق بي بعينيها ذات اللون الأبيض، أصرخ بصحبة ماري رغماً عني، تتوجه نحونا، أحكم قبضتي حول كف ماري ونحاول الفرار منها قبل أن تصل إلينا، لكنها تمسك قدمي وتسحبني، بينما يصدر مني صوت قد ملئ المكان.

_لازال موضوع قواعد الجزيرة يشغلني، علينا إيجادها بعد إتمام مهمة البحث عن نبتة الحياة لعل بين جنبات القواعد نجد رمز خلاصنا من لعنة هذه الجزيرة.

_أؤيدك الرأي سيد مايكل.

_يبدو عليك الندم أيها الطبيب. (أقول)

يجيبني بنبرة تنزف حزناً:

_لم تصيبي يا وجد، بل يبدو علي الأسى، فقدان أصدقائي لم يكن بالأمر الهين.

أومئ، ثم أضيف بنبرة تشوبها المرارة:

_لم يكن لي أصدقاء قبل الآن البتة.

يسألني مشدوهاً:

_أيعقل ذلك؟؟.

أردف أبي بعد أن رماني بنظرة ندم خاطفة:

_أبنة رجل مجنون مثلي لا يعقل أن يكون لها أصدقاء.

أقترب منه، أردفت بنبرة اعتذار:

_أعذرني يا أبتي لم أقصد ذلك.

ربت على يدي، ثم أردف بصوتٍ واهن:

_لقد أبتعد عني الجميع عندما بدأت تترعرع فكرة الذهاب للجزيرة، كما أبعدوا عن ابنتي وجد أطفالهم خشية أن تمس عقولهم بأفكار أبيها المجنونة، إلى أن غدونا وحيدين أيها الطبيب.

أومئ الطبيب رأسه، بينما يديه تمسك بالعصا التي تعمل على تقليب الحطب المشتعل كي لا تنطفئ النار التي تنير المكان حولنا، ألقيت سؤالي لأغير مسار الحديث:

_متى سنصل وجهتنا أيها الطبيب؟؟.

_ربما غداً أن أسرعنا المسير.

باغته بسخرية:

_أين تلك الوحوش والجن الذين حدثتنا عنهم أيها الطبيب؟!!.

أجابني بسخرية معتمدة:

_ربما في طريقهم إلينا، ربما هم خلفكِ الآن؟؟.

تلفت وجهي بسرعة، أبحث بعيني عنهم، أصابني الذعر من الظلمة الحالكة، التصقت بأبي وأنا أرمي الطبيب بنظرات متوعدة، فأنكب على وجهه ضاحكاً، جعلنا نضحك لضحكه، نظرت إليه بعمق، نظرت إليه كما لم أنظر لأحد قبل الآن البتة، هرول قلبي يخفق بقوة لنظرته وبسمته المعتادة، تلك البسمة التي جعلتني أقع في مصيدة قلبه بسهولة.

نثرت الشمس أشعتها بعبثية، وكز أحدهم كتفي برقة، نظرت إليه فوجدته الطبيب جورج يستقبلني بابتسامته الرائعة، أبعد عن وجهي خصلات شعري المبعثرة ليباغتني بصوتٍ يشي بالإعجاب:

_كيف للشمس أن تسكن السماء والأرض في الوقت ذاته.

تبسمت، قاطبة حاجبي في خجل، لملمت خصلات شعري المبعثر، بحثت عيناي عن غصن ناعم، علم مرادي غاب لبرهة ثم عاد حاملاً بيده غصناً، اقترب من شعري أراد أن يعقصه به، تناولت الغصن من يديه بخجل لأكمل المهمة بنفسي، باغتني قائلاً بينما عيناه ترشقني بنظرة إعجاب:

_شعركِ جميل جداً، لم أرى بجماله يوماً، طوله مذهل، وتموجه أكثر من رائع، بينما كثافته تزيده جمالاً. (اشتعلت وجنتاي خجلاً، أردف:) لكن ألا يضايقكِ.

هززت رأسي نفياً وأنا أقول:

_بل أحبه كثيراً لهذا هو لا يضايقني ولو بدا لكَ ذلك. (باغته بسؤال أغير مجرى الحديث:) أين أبتي؟؟

_لقد ذهب في جولة سريعة حول المكان، (أردف قائلاً بمرح بينما عيناه لازالت معلقة بيدي التي مازالت تلملم خصلات شعري المبعثرة بجهد بالغ لعقصهم بالغصن:) كان بمقدوري فعلها رغم أنني لم أجرب فعلها قبل الآن البتة.

حدجته بنظرة ارتياب مبتسمة بسخرية، أضاف قائلاً في حرج:

_ألم تصدقيني؟؟.

هززت رأسي نفياً، ثم أردفت باستنكار:

_لا علاقة لي بذلك، فالأمر لا يعنيني.

رشقني بنظرة ملؤها الريبة، ثم أردف بينما عيناه تتصفح ملامحي، وتترقب ردة فعلي:

_لكنه يعنيني بشدة يا وجدي.

ران علينا صمت مطبق، كانت تشي العيون بما يخفيه القلب بصمت، قطع الصمت السائد صوت أبي الذي عاد لتوه:

_هيا لنكمل المسير.

أظن قد أغمي علي لأنني صحوت بعد وقت وجدت نفسي مرمي أرضاً، في مكانٍ لم أتبين له ملامح، وبجانبي ماري ومصباحنا الذي كاد أن تنفذ طاقته، أذكر سريعاً ما حصل، يعيد عقلي كر شريط الرعب الذي جعلني مرمي أرضاً، اقترب من ماري لأطمئن عن سلامتها، وجهها يعانق الرمال متجمدة في مكانها دون حراك، تلحفتني نوبة فزع عليها، أهزها من كتفها وأنا أردد اسمها ،تباغتني قائلة بصوت واهن:

_لا تقلق أنا بخير.

أتنفس الصعداء، ثم أهب واقفاً وقد عزمت على العودة من حيث أتينا، باغتها قائلاً بصرامة:

_لقد قررت، علينا العودة من حيث أتينا، كان علينا أن نكن أكثر وعياً.

تقف ماري بجهد بالغ، تقترب مني وهي تحكم قبضتها حول المصباح الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة:

_قبل أن تقرر يجب أن لا تنسى مصيرنا الحتمي، وألا تنسى نظرة الحزن في عيني ماثيو والجدة هانّا وعشرات المساكين الذين فقدوا أهلهم وأصحابهم بسبب هيلانة وشرها، عليكَ أن تفكر بملايين الأنقياء الذين ستتوقف حياتهم بانتظار انتهاء لعنة هيلانة. (تقف على مقربة شديدة مني لدرجة أنني أتنفس أنفاسها تكمل بحزم رقيق يشبهها:) يجب أن تريهم قلبك الحديدي، يجب أن لا تشتم هيلانة رائحة الخوف من النقي الشجاع الذي جاء لقتلها، ستنهي شرها وشر من تبعها وستنقذ كل من تأذى منها أيها المختار أنا أثق بك.

كلمات ماري جعلت قوة عجيبة تتسلل إلى جوفي وتجعلني أكثر صلابة، أعزم في نفسي على الأمر من جديد، أصرخ بكل ما أوتيت من قوة:

_لم تعد ترهبني اشكالكم ولا أصواتكم هاتوا أقسى ما عندكم، ويحكم.

فجأة تعثرت قدمي بشيء ما أرغم ماري على إيقاع المصباح من يدها، ولم أعد أشعر إلا وأنني انزلقت في سرداب عميق بصحبة ماري التي تعانقني، ظلمة حالكة، أصواتٌ مرعبة تضج في المكان، صراخ بكاء، صوت أحدهم يتألم، جسد ماري يرتجف وللحقيقة جسدي أيضاً، أحاول التمسك بأي شيء ألا أن الأرض ملساء لا يوجد ما يعثر طريقنا، وبعد وقت طويل من الظلمة الحالكة أضاء وهج بسيط بدأ يعلو شيئاً فشيئاً، كما بدأت سرعتنا تخف شيئاً فشيئاً، وكأنني أرتاد القطار العام الذي يسرع طوال طريقه وقبل وصوله المحطة التي يقصدها يخفف

من سرعته، أشعر بأن أحدهم يمسك بي من الخلف، فجأة هالة نور سطعت وحجبت عنا الرؤية سقطنا منكبين على وجوهنا أرضاً فوق رمال ناعمة تشبه رمال البحر، وبعد برهة من الوقت حاولت استيعاب ما حصل.

_هل أنا أحلم؟ هل أنا أتخيل؟ هل ما حصل قد حصل فعلاً؟!!.

أسأل ماري التي تتأوه من ألم السقوط، أرفع رأسي ببطء أصدم، أننا وسط صحراء!، أتلفت حولي بسرعة لا شيء سوى رمال صفراء قد غطت المكان بأسره.

_أين السرداب؟؟ وأين البوابات؟؟؟ لا أعلم ما الذي يحصل، كما لا أعلم أين نحن الآن؟؟ كيف سنعود من حيث أتينا الآن؟. (أسأل ماري مجدداً)

وعندما تكللت الإجابة بصدمة ماري من رؤية الصحراء الشاسعة أجيب عنها (لا أعلم) وقد قلتها خائباً، بدأت أهرول يميناً ويساراً لا شيء سوى أنني أدور في ذات النقطة، الشمس حارقة، تملكني العطش خلعت حقيبتي من على ظهري فتحت سحابها بتثاقل، جسدي بأسره يؤلمني لا يهم، المهم الآن أين نحن؟؟، وما علينا فعله الآن؟؟، زوادتنا قليلة جداً وبالكاد ستكفينا حتى المساء، شربت القليل من الماء ثم أعطيتها لماري ارتشفت بضع قطرات و أعادتها لي، وضعت حبل قارورة المياه في عنقي، أعدت حزم حقيبتي على ظهري

_علينا أن نبحث عن البوابة التالية بأسرع ما يمكن. (أقول بحزم)

تومئ ماري، أمد ناحيتها يدي فتتشبث بها كطفل صغير مع ابتسامة تزين وجهها مدتني بالأمل، بدأنا المشي بدون وجهة، نمشي فقط ونتعثر بالرمال الكثيفة التي تعيق حركتنا...

_أشعر إنها مع تقدمنا تزداد كثافة وعمقاً (أقول)

تومئ ماري بصمت، عند العصر جلسنا لنستريح وقد غمرت الرمال نصفنا الجالس، نزعت حقيبتي من على ظهري ورميتها بجانبي، أحرر مطرة المياه من عنقي أدلي بها لماري، تشرب كثيراً، تعيدها لي وهي تقول:

_أعذرني لا أشعر بالارتواء، الجو شديد الحر، يبدو أن زوادتنا ستنفذ، يجب أن نجد حلاً، لم أغامر كل هذه المغامرة كي أموت في صحراء شاسعة في النهاية. (تقول جملتها الأخيرة ضاحكة بمرح)

ارتشف القليل من الماء، أحكم غطاء قارورة المياه وأضع رباطها حول عنقي من جديد...

_يا للسخرية لم يخبرنا أحدهم أن ما خلف بوابة الشيطان مجرد صحراء سنموت فيها جوعاً وعطشاً و ستدفننا رمالها. (أجيبها باستهزاء ضاحكاً)

تناولنا القليل من الطعام ونحن نفكر بحل، وضعت الحقيبة أرضاً، ووضعت رأسي عليها، غمرت رمال الصحراء الحقيبة، استلقيت على الرمال لأكتسب القليل من الراحة قبل العزم على المضي قدماً علني أجد حلاً قبل حلول المساء، غمرت الرمال سائر جسدي، استلقت ماري بجهتي اليسرى واضعةً رأسها على صدري مكان قلبي حيث يقيم حبها، أشعر بقربها بالسكون والراحة كيفما كنت وأينما أكون يكفيني قربها من هذا العالم البائس، أتأمل السماء الصافية، تعبث كفي برمال الصحراء، فجأة شيء قاسي أمسكته يدي، أحاول نزعه من تحت الأرض بجهدٍ قليل، فأجدها مجرد جمجمة لإنسان!، أجزع أفزع، تنظر ماري للجمجمة تشهق أنفاسها، أجلس بينما عيناي تعانقها، أقول باستسلام:

_علها لشخصٍ غبي مثلي كما قال جورج ووصفني، يصدق الأساطير ويؤمن بكلام المشعوذين (أرميها أرضاً، أقول وأنا أحزم حقيبتي على ظهري) يبدو أنني من سيكون سبب هلاكِكِ هذه المرة (أنظر إليها من جديد أكمل برجاء:) أعذريني ماري لم أقصد إيذائك كل ما وددت فعله إنقاذكِ.

تمسك بيدي وهي تربت بالأخرى عليها، تدعي الصلابة رغم أنني أشعر بهشاشتها ترتجف كعصفورٍ أستيقظ على هطول أمطارٍ غزيرة جعلته غير قادرٍ على الطيران فطرحته ميتاً بدون ذنبٍ يذكر، تباغتني برقة:

_لم يكن ذنبك، أنني أثق بك، دانيال إياك أن تخيب ظني، كنت أحلم بك منذ زمن طويل أيها المختار، انتظرتك أعواماً عجاف جعلت قلبي أرضاً قاحلة، آن أوان السنابل الخضراء أيها الفارس.

_وإن لم أستطع أكمال المهمة بنجاح ، هل سيخيب ظنكِ بي؟. (أسألها وقلبي قد عانق شفتيها منتظراً الإجابة)

تقترب مني تحكم قبضتيها حول وسطي تدفن وجهها في صدري ثم تضع أذنها على قلبي، تشهق نفسها ببطئ ثم تزفره براحة تدفئ بها قلبي وهي تردد قائلة:

_حاشاك أن تخيب ظني، أنت فارسي الذي انتظرته ولن تكون سوى ذلك.

أحكم قبضتي حول جسدها بقوة لدرجة أنني خشيت أن تتكسر ضلوعها، فأرخيتهما قليلاً، تهمس مخاطبةً قلبي:

_هيا بنا إذاً.

نحاول المشي بجهد مكثف وسط رمال الصحراء التي كادت تخفي أقدامنا، أفكر علنا لو تقدمنا أكثر فستغمرنا رمال الصحراء، أفزع من الفكرة أقف وسط الصحراء عاجزاً ماذا سأفعل؟، أنظر لماري التي تدعي الصلابة وتقول:

_هيا أيها المختار.

أضحك، أعانقها من جديد فتضحك ضحكة تغمرني سروراً ،وجدنا صخرة مستوية مرتفعة عن الرمال جلسنا عليها ننتظر حلول المساء الذي شارف على الوصول، ما يقلقنا أن مصباحنا قد نفذت طاقته.

_أفكر هل يعقل وجود عقارب أو ثعابين؟، أو أيّ من الحيوانات المؤذية في هذه الصحراء؟) .تسأل(

_ربما!. (أجيب)

تفزع تجلس في جحري بينما يديها تطوق عنقي وهي تسأل:

_هل أنت جاد؟؟!!.

أومئ راغباً بأفزاعها لتبقى على قربها مني، ثم أضحك بسرور وأنا أشاهد ملامحها التي تدعي الصلابة طوال الوقت تلتفت بفزع، بينما تتفرس عيناها الظلمة التي تتسلل إلينا. فجأة صوتٌ يتردد صداه في كل مكان أفزعنا ((إنهم هنا في كل مكان...إنهم يأتون ليلاً لا تجزع)) أقف بشكل لا إرادي وأنا أحكم قبضتي حول جسد ماري، أتلفت علني أجد أحدهم، علني أجد آدمي آخر في هذه الصحراء الشاسعة لنستمد منه الأمل بالبقاء، اختفى الصوت ولا زلت أتلفت، وبعد طول انتظار لا أعلم كيف استسلم جسد ماري وعقلها للنوم وسط جلبة التفكير والخوف والفزع التي سحقتنا؟!، غفت على قدمي متكورة لتبقى بجانبي، جلست أتأملها طويلاً ويدي تراقص خصلات شعرها، ولا أعلم كيف غلبني النعاس؟ فغفوت جالساً. صحوت بعد وقت وجدت الظلمة تغطي المكان، يبارزها ضوء القمر ليفرض وجوده عنوة وينتصر في النهاية دوماً، أشعر بأن عظامي قد تكسرت، وأسفل ظهري قد أصابه الشلل، وجدت ماري لا تزال نائمة بسلام، أيقظتها بقبلة مباغتة طبعتها على وجنتها ففتحت ستارة أجفانها كملاكٍ تو استيقاظه تبتسم.

_كانت أمنيتي أن أرى ملاكاً يستيقظ من نومه لأرى أن كان جميلاً في كل حالاته. (أقول مبتسماً)

_وكيف وجدته؟؟. (تسأل مبتسمة ابتسامة لاحت بضوء القمر)

_رائع كما عهدته قبل نومه. (أجيب)

_ماذا تنوي أن تفعل الآن. (تغير مجرى الحديث كعادتها)

حزمت حقيبتي على ظهري من جديد بعد أن ارتشفت ماري آخر قطرة ماء كانت بحوزتنا، مما أصابنا بالهلع وبدأت غريزة البقاء تصارع خوفنا، وتستنزف ما تبقى من إشراقة أرواحنا.

_لا بد أن نكمل المسير وإلا سنموت صباحاً من العطش. (أقول)

_لكن كيف الظلام في كل مكان، والرمال غدت أعمق.

_لا خيار آخر لدينا.

أذعنت لأوامري تومئ، غدونا نسير يميناً ويساراً حائرين علنا نجد أولئك الحراس الذين أخبرتنا عنهم سيرينا، لكن لا يوجد أحد!، وأي حراس سيكونون في مكان كهذا؟؟؟، في مكان مظلم خالٍ من لون الحياة ومتاعها، ولا يسمع به غير صوت الرياح التي تزمجر برمال الصحراء الناعمة، جلست أرضاً وقد أحاطتني هالة يأسٍ، بدأت روح الفزع تصرخ بحنقٍ شديد وكأن الصوت يصدر من شاةٍ تذبح:

_هل يوجد أحد؟؟، هل يوجد من يسمعني؟؟، أنا دانيال قد بعثني ابانوب رسولاً لهيلانة وبحوزتي الصندوق الذي تبحث عنه، هل يسمعني أحد؟.

.....<<>>.....

قد نثرت الشمس ثوبها الوردي على سفح الجبل تنذر بالرحيل، يباغتنا الطبيب جورج قائلاً بحنق:

_قد ضللنا الطريق.

_ليس بالوقت المناسب للسخرية أيها الطبيب. (أقول)

_لكنني لا أسخر، هل بإمكانك تتبع الخريطه سيد مايكل.

_طريقة رسمها مبهمة لم أفهم منها شيئاً.

_أين نحن أذاً؟؟؟ (أسأل)

يجيبني الطبيب جورج بسخرية:

_لازلنا على أرض الجزيرة بالطبع، لكن في بقعة لم أمر عليها قبل الآن البتة.

_أنظرا هناك ماذا يوجد؟؟ جُحر كبير غريب الشكل (أقول)

_هل يعقل وجود حيوان كبير يسكنه؟. (يسأل الطبيب جورج بفزع)

_فلنرى ماذا يوجد بداخله؟. (يقول أبتي)

_هل أنت جاد يا أبتي؟. (أقول مشدوهة مما سمعت)

_ليست بالفكرة الصائبة، فلنبتعد عن المكان. (أردف الطبيب جورج بصرامة)

وما أن استدرنا راغبين بالرحيل حتى سمعنا صوت رقيق يصدر من داخل الجُحر، التفت الطبيب جورج منادياً:

_هل يوجد أحد هنا؟؟؟.

ما كان من صوته إلا الصدى الذي تردد داخل الجُحر، رغم ابتعادنا عنه عدة أمتار، مما جعلنا ننظر لبعضنا البعض مشدوهين، أعدت النداء مرة أخرى لكن ما كان منه سوى الصدى، باغتنا أبتي قائلاً:

_سأدخل و استطلع الأمر.

ورحل مسرعاً قبل أن أعترض، غاب لوهلة كادت تقتلني خوفاً عليه، ثم خرج يصرخ بمرح:

_تعالى وانظرا.

تبعناه مسرعين، كان جُحر صخري عميق، قد حفر بشكل غريب، نقشت على جدرانه الصخرية أشياء مبهمة, ربما رسومات غريبة، باغتني جورج:

_وربما كلمات بلغة مبهمة.

أكمل أبي مسيره تبعناه مشدوهين مما نرى، كلما ازددنا تعمق ازدادت الكلمات، وفي نهاية الجُحر وجدنا كلمات قد نقشت على الجدار حديثاً بلغتنا المعروفة

_يبدو أن أحدهم قام بترجمة اللغة المبهمة باختصار شديد.

باغتنا جورج مشدوهاً:

_يبدو ذلك، أنها قواعد الجزيرة.

بدأت القراءة بصوت مسموع:

إياك والخطيئة على أرضنا أيها البشري، كل خطيئة ترتكبها ستسمح لنا بالمقابل لها بالسيطرة على جزء منك، إلا أن انتهكت حرمة الجزيرة وساكنيها عندها يحق لنا القصاص كما يحلو لنا، وإياك أن تتخطى حدود مالكيها فهناك نهايتك الحتمية. (صمت لبرهة ثم أردفت:) لم أفهم من القواعد شيئاً.

أضاف جورج وعقله شارد وكأنه يتذكر:

_كما حدث لماثيو، انتهك حرمة الجزيرة بذبح طائر من ساكني الجزيرة والتهامه (صمت قليلاً، ثم أردف يسأل(هل هذا هو قصاصهم أن يسلب عقله؟!!.

فجأة صدر صوت زئير أفزعنا وجعلنا نهرول لنخرج من الجُحر وقلوبنا تنتفض بينما أجسادنا ترتعش!.

.....<<>>.....

وما كان من صوتي سوى الصدى الذي تردد عبر المدى الواسع في هذه الصحراء، أضاف للأجواء الموحشة لمسة مقلقة، اكملنا المسير دون وجهة، أتبع حدسي، فجأة جحظت عيناي لرؤية جبل عظيم، العجيب أنني لم أره منذ قليل, ولا أظن أننا قطعنا مسافة شاسعة حتى وصلنا إليه، وكأنه نبع من الأرض فجأة، نظرت إليه من الأسفل حتى الأعلى، لا شيء غريب أو مميز به غير أنه جبل ترابي تلفه الحشائش الخضراء الرطبة وسط صحراء رملية شاسعة خالية من نفحات الحياة تماماً، عندما وصلت بنظري إلى قمته لمحت ظلالاً تتحرك في أسفله عادت عيناي تهرول بسرعة إليها فلم أجدها.

_من أين نبع هذا الجبل، وكأن الأرض لتوها قد لفظته؟!. (تسأل ماري مشدوهة)

لا أجيب، فلا جواب بجعبتي، أعدت محاولة النداء مرة أخرى بحنقٍ شديد:

_أنا دانيال رسول ابانوب وبحوزتي الصندوق الذي يخص هيلانة، هل يوجد أحد يسمعني؟.

ألمح من جديد ظلالاً تتحرك بحذر، ألتفت إليها سريعاً فلم أجد شيء علني أتخيل.

_هل رأيت كما أرى؟!،هناك ظلالاً تتحرك. (تسأل ماري بجزع)

_إذاً أنني لا أتخيل!!.

أطرح حقيبتي أرضاً أخرج الخنجر وأضعه على خاصرتي اليسرى ثم أخفيه تحت قميصي الأسود، أخرج الصندوق وأرفعه بكلتا يدي فوق رأسي، وأصرخ من جديد بأعلى صوت لدي:

_لقد ضقت ذرعاً، هيلانة أنا هنا هي أظهري لي، أين أنتِ؟؟ هل يوجد من يسمع صوتي؟؟.

ثم لم يلبث أن أشعر بوجود طيف يتحرك أنظر حولي بل هم أثنان بل ثلاثة بل عشرة بل المزيد والمزيد من الأطياف الذين أحاطوا بنا من كل جانب، أرمي الصندوق فوق الرمال وأضع قدمي عليه، تصرخ ماري بفزع شديد، وتدفن وجهها في صدري بينما تطوق يديها جسدي الهزيل، أحكم قبضتي اليسرى حول جسدها، بينما اليمنى تعانق الخنجر بثبات، بدأوا يتحركون نحونا صانعين بأقدامها صوتاً على الأرض، وجلبة رمال هائلة، ضيقت فتحة عيناي علني أرى ملامحهم، لم أرى أجساداً بل عيون تتطاير منها النيران الملتهبة، عيون مألوفة بالنسبة لي، كأولئك الذين التقيتهم عندما دخلت الجزيرة، إذاً هؤلاء حراس هيلانة، العجيب أنني لا أشعر بالخوف تجاههم ولا حتى شعور القلق ينتابني، صرخت بهم بصرامة:

_أين هيلانة؟؟، أين من تظن نفسها بارئة اللعنات؟؟، قولوا لها أن رسول ابانوب يود لقائها فوراً وبحوزته الصندوق الذي تبحث عنه.

ظهرت أجساد الأطياف، هم كما توقعتهم أولئك الحراس الذين التقيتهم في أول الجزيرة، إنهم جن!، كانوا كثيرون العدد، لا أرى رؤوساً من أعلى قامتي! لا أرى سوى المزيد من الأقدام التي تشبه أقدام القرود، أعداد هائلة أظنهم يتخطون الألف، رفعت أنظاري لأرى وجوههم وأفسر ملامحهم تجاه جرأتي، فأجدهم وكأنهم حشدٌ هائل من الوحوش الحانقين على شيءٍ ما، تغلفهم هالة غضبٍ مشتعلة، سؤال راودني سريعاً (أن استطعت قتل هيلانة، كيف سأستطيع الفرار من هؤلاء الجن؟؟!) سؤال لم يخطر في بالي قبل الآن، المدهش أنه لم يرعبني أيضاً، وكأن شجاعة الكون أجمع قد شبت في جوفي، ربما شعور الصراع بين الوجود واللاوجود هو السبب، في وسط هذا الصراع تشعر بأنك تخطيت كل شيء، تصل لنقطة أنه لم يعد يهمك شيء، ولا يفزعك شيء، ولا يقلقك شيء، وبعد هذا الشعور تشعر براحة لم يسبق لك التنعم بها غير آبه بما حصل وسيحصل.

التفتوا جميعاً ناحية الجبل ومشوا كلهم بحشدٍ منظم تجاه الشمال دون أن يلقوا أيّ كلمة أو حركة، حملت الصندوق وتبعناهم بصمت، ماري تهمس لي بين الفينة والأخرى بمدى خوفها، في طريقي وجدت تلك الجمجمة التي أخبرتني عنها سيرينا، وضعتها في حقيبتي ثم أحكمت إغلاقها بسرعة، ألتفوا حول الجبل إلى أن وصلوا إلى صخرة كبيرة، بدأوا يهمهمون عندها بلغة غريبة، لا يهم المهم والمدهش أن الصخرة ارتفعت للأعلى بشكلٍ مهيب، وكأن أحدهم حملها بكف يده ورماها بعيداً، اصطفوا على جانبي الفجوة المنبثقة من الجبل نظروا إلينا وهم يشيرون لنا بالدخول.

دخلت الكهف بخطى واثقة لا أهاب شيئاً، ماري تحاول الثبات لكن مع كل محاولة قنطاراً من الفشل، كان طريقاً طويلاً لنصل لداخله، مليئاً بالمشاعل الذين يبعثون نوراً خافتاً للغاية يفصل بينهم مسافة تقارب المتر، عناكب قد نسجت شباكها، خفافيش تملئ سقف المكان، فجأة تحلق فوق رؤوسنا وتزيد من شدة فزع ماري التي تردد:

_قد كنت هنا، هذا هو المكان الذي أتوا بي إليه في ذاك اليوم!!.

وصلنا أخيراً إلى داخل الكهف، حيث كانت هيلانة بانتظارنا.

.....<<>>.....

_لا يوجد شيء، ما كان مصدر الصوت يا ترى؟!!. (يسأل السيد مايكل مستفسراً)

_لنرحل عن هذا المكان المرعب يا أبتي. (تجيبه وجد التي لازالت ترتجف بحدة)

_لكننا لم نجد ما كنا نرجو إيجاده بين القواعد. (أقول بخيبة)

_تقصد سبيل النجاة أيها الطبيب؟؟. (يسأل السيد مايكل بخيبة)

_كما أرى لا يوجد سبيل نجاة من هذه الجزيرة، كما لم يعد أحدهم في السابق لن نعود أيضاً. (تقول وجد التي شرعت في نوبة بكاء غزيرة)

ربت على كتفها برقة، ثم أردفت:

_سيكون هنالك مخرج صدقيني سنعود سوياً، (صمت قليلاً ثم أردفت:) لنكمل طريقنا نحو هدفنا الأول. (نبتة الحياة)

أجابت بحنق شديد:

_وما فائدتها؟؟، لما سنتناول مثل هذه العشبة اللعينة، لما نعقد مع الحياة سنوات إضافية من الضياع والتيه في هذه الجزيرة الموحشة!.

ربت على كتفها بينما عيناي تتبع السيد مايكل الذي يتلفت فزعاً، باغتنا قائلاً بهلع:

_أتسمعون كما أسمع؟!.

وقفت بصحبة وجد نتلفت حول الصوت الذي يزأر بخفة، تناول السيد مايكل من حقيبته خنجره، باغته:

_لكن الصوت لا يدعو للفزع سيد مايكل، على هذه الجزيرة يوجد ما هو أشد رعباً من صوت كهذا؟!.

انغمست وجد في نوبة بكاء جامحة وهي تردد:

_أنني فزعة.

_لا تقلقي ستغدو الأمور على ما يرام. (أجيبها ويدي تربت على كتفها)

فجأة ظهر لنا وحش على ما يبدو من مظهره من فئة الديناصورات، شهقت أنفاساً متلاحقة، تشبثت وجد بي وأخفت وجهها بعضدي، شهر السيد مايكل خنجره، وقف الوحش ينظر إلينا ببلاهة بينما يعلو زئيره الغريب، ويسيل اللعاب المقزز من فكيه، هرول الوحش تجاه السيد مايكل ثم انحرف ليبتعد عنه، فشهر السيد مايكل خنجره بيد مرتعشة، وتبعه وسرعان ما طعنه بساقه، فحمله الوحش من ثيابه وهرول به بعيداً عن أنظارنا بعد أن أطلق زئيراً هز الأرض التي تحت أقدامنا، غرقت وجد بنوبة صراخ هستيرية وهي تنادي أبتي، بينما وقفت مذهولاً مما حصل ألكم جبهتي.

.....<<>>.....

كانت تجلس على كرسي كبير، يحيطها الظلام رغم وجود مشعلين ألا أنهم كالسابقين يبعثون نوراً خافتاً للغاية، بالكاد يبرز ملامح الوجود، شموع ضئيلة متناثرة هنا وهناك، جماجم بشرية تغطي جدران الكهف، تفصلها عن بعضها البعض كلمات أظن أنها بذات اللغة المبهمة، صليب باللون الأحمر قد رسم بالدماء، لعبٌ مشوهة تملئ جوانب الأرضية، اقترب لأتبين ملامحها، بدأ الكيان يتضح شيئاً فشيئاً، فأجدها عجوزاً شمطاء كأولئك الذين شاهدتهم في أفلام الرعب الشهيرة، شكلها مرعب للغاية، لم تكن بشرية رغم أن الكيان والهيئة التشريحية تشبه الإنس، لكنني أؤكد لكم لم تكن كذلك، أمعن النظر إلى الوجه الذي كان يغلفه الظلام، اقتربت من مجال الرؤية، وبدأت تحتله ظلال المشاعل المتراقصة، دهشت مما رأيت، فملامحها ليست ملامح بشر، وجسدها ليس جسد بشر، لم تكن كتلتها التشريحية تشبه الإناث البشرية بشيء، ولا تعطي شبهاً لشقيقتها الحسناء سيرينا، ما هذا الشيء؟؟، أنه الشيطان على عرشه!؟ الأهم ألا أجزع بحضرتها، ألقي التحية، فلا تردها بمثلها، أضيف قائلاً:

_أنا رسول ابانوب، قد أرسل لكِ هذا الصندوق معي مقابل الإبقاء على حياة أبنته ماري.

أجابت بصوتٍ يشبه فحيح الثعبان:

_وأخيراً قد أستسلم ابانوب لجبروت هيلانة، من أنت أيها الشاب؟، وما الجرأة التي جعلت نقياً مثلك يكن رسول ابانوب ويتخطى مصاعب بوابة الشيطان للقائي؟، ومن هذه الحسناء التي بصحبتك؟.

_أنني دانيال من طالتني لعنتك التي نزلت على عائلة ابانوب، فلنقل أنني أحد المتضررين، ولذا قد جئت إليكِ بالصندوق مقابل إزالة اللعنة.

_ومن تكن يا هذا لتطالك لعنتي؟!.

_أنني أحب ماري كما أحببت شقيقتها ماريتا أبنتيّ ابانوب.

_تقصد أنك عشيق ماريتا التي قتلك حبها (وأطلقت ضحكة مرعبة هزت الأرجاء، ثم أضافت:) يا لغبائك ألا تدري أن ابانوب ساقك حتى ماري أيضاً لتكن أنت الطعم ليتخلص من اللعنة ويعد إلى سابق عهده.

_ماذا تقصدين؟! (تسأل ماري بحنق شديد)

_أقصد أن ابانوب أرسلكما قرباناً لي بصحبة الصندوق كي أعفوا عنه، أنتِ ابنته ماري أليس كذلك؟.

_ما الاتفاق الذي ابرمتماه سوياً؟. (تسأل ماري بحدة)

_بفضل المخطوطة والخنجر سيكون باستطاعتي أن أسلب جسدكِ أيتها الحسناء، أما بالنسبة لروحكِ هي التي ستمكنني من السيطرة على الأنقياء وبذلك يكن العالم بأسره تحت إمرتي. (وأطلقت ضحكة هزت المشاعل التي على الجدران حتى كادت أن تطفئها)

تنسل يدي إلى الخنجر أحكم قبضتي عليه دون إخراجه، أجيبها بهدوءٍ تام:

_ليس الأمر كما تظنين يا هيلانة، ما نحن سوى رسولان نقيّان لا يمكنكِ قتلنا أن لم نخطئ، ونحن حتى الآن لم نرتكب خطيئة واحدة.

_ومن قال أنني أريد قتلك أيها الشاب؟!.

_إذاً ما الذي تنوين فعله بي يا هيلانة؟!. (أسألها بحدة مشدوهاً)

تخرج من قوقعتها بهدوء تتجه نحوي تقف خلف ظهري، تتشبث ماري بذراعي، أحكم قبضتي حول الخنجر، تجيبني هامسةً في أذني وأذن ماري بفحيحها المفزع:

_لا أحتاج لخطيئتكما أنتما الآن في أرضي وهذا يعد خطيئة، وهذا ما لم تبح لكما به أرضي، بعد أداء الطلاسم الموجودة في هذا الصندوق سأملك الأرض العلوية والسفلية برمتها، وبروح حسنائك هذه سيمكنني السيطرة على الأنقياء، لكن الذي لا يعلمه أحد حتى آنذاك لا يمكنني التحكم بمصيرهم، وهكذا سيظلون على تمردهم، و يحاربونني أملين بالقضاء عليّ، لهذا سأزوجك أحدى بناتي من نسل الاشرار، وعندها ستنجبون نسلاً مختلطاً بين الأشرار و الأنقياء، وهكذا سيكون لنسلك شرف التحكم وأن شاءوا التخلص من جميع الأنقياء بضربة واحدة.

اتسعت عيناي دهشة لما سمعت، لكن سرعان ما استعدت رباطة جأشي، همست لماري أن تبتعد عني، وما أن ابتعدت سحبت الخنجر وبحركة خاطفة استدرت نحوها و غرزت الخنجر في جسدها، لكن حركتي هذه لم تنتهي إلا بأتساع عيني، نظرت إلى هيلانة غير مصدق لقد أصبحت خلفها، مررت بها كأنني أمر بالهواء، التفت إليها فأجدها تنظر إلي بسخرية، نظرة قد هزت كياني، نظرت حولي غير مصدق إلى أن استقرت عيناي عند الكرسي الكبير، أسرعت نحو المشعل ورميته نحوها لكنه مر بها دون أن يمسها بأذى، هنا تحولت نظرة هيلانة إلى نظرة غضبٍ مشتعلة بالنيران الفتاكة، نظرت نحو المشعل فأطفأته بطرفة عين، بدأت أفكر بعجزٍ غير عالم ما أفعل؟، ارتفعت هيلانة عن الأرض حتى وصلت إلى سقف الكهف، ثم تحولت العجوز هيلانة إلى عجوزتين وثلاثة وأربعة وعشرة ومئة حتى ملئت المكان بأسره و احاطوني من جميع جوانبي، وبدأوا يضحكون بصوتٍ واحد هز الأرض من تحت قدمي، بل أشعر بأنه هز الجبل بأسره وكاد أن يصبح مهاداً، تساقطت الرمال وبعض الحجارة الصغيرة من

سقفه فوق رأسي، تملكني الفزع لما رأته عيناي، وبحركة خاطفة عادت العجوز شخصٌ واحد، أحكمت قبضتها المخيفة غارزة أظافرها في عنقي، وقالت بغضبٍ هادر:

_إذاً أنت رسول سيرينا، لست رسول ابانوب يا هذا، والكذب يعتبر خطيئة، وعلى أرضي يعتبر خطيئة فاحشة، لم تعد من الأنقياء، ولم يعد لي حاجة بك.

.....<<>>.....

خيم علينا ليلٌ عاتٍ، لازلنا مكاننا نجلس أرضاً متكورين على أنفسنا مذهولين، صمت مهيب يحيطنا، فجأة أصوات تدك الأرض دكا أفزعتنا، صرخت وجد بهستيرية، وقفت أعانقها و أربت على كتفها، بينما عيناي تتفحص المكان حولنا مستعيناً بضوء القمر، فجأة ظهر لنا دنهش!، قد عرفته على الفور، وقعت وجد أرضاً مغشياً عليها لرؤياه، طلب منا تتبعه فأذعنت لأمره دون نقاش، حملت وجد على يدي وتبعته بصمت أتأمل ملامح وجد، و أهيئ نفسي للحظات الأخيرة، لاحت في المكان أطياف عدة، ثم بدأت تزيد أكثر فأكثر، حتى غدى المكان مضيئاً، شعرت بدوار شديد لم أشعر بشيء بعده، إلى أن صحوت في مكان يوجد به مشعل باهت الضوء بالكاد أرى أمامي، وجدت وجد بجانبي، قد غطت خصلات شعرها وجهها بالكامل، همست لها فتحركت، ثم فتحت عينيها ببطئ، ثم سرعان ما تشبثت بساعدي تنظر حولها بفزع، صدرها يعلو وينخفض، تشهق أنفاساً متلاحقة متوترة وكأنها كانت تسابق الرياح، همست لي بفزع:

_أين نحن؟؟.

هززت رأسي نفياً، ثم أردفت:

_لا أعلم، لكننا بالتأكيد محجوزون.

أردفت بشفاه مرتعشة:

_من هو ذاك الذي ظهر لنا؟.

_أ تصدقيني أن أجبتك

أومأت برأسها، فأردفت:

_أنه ذاك الجني الذي أخبرتكم عنه.

غرقت في نوبة صراخ وهي تردد:

_يكفي... يكفي.. يكفي.. لم يعد بمقدوري تحمل المزيد، أريد أبي، أريده.. أرجوك يا جورج أعده لي.

نظرت إليها بعجز، عانقتها بقوة وأنا أربت على كتفيها لتهدأ، مر وقت كان كافياً لتهدأ، توجهت نحو المشعل ووجد لازالت متشبثة بي، حملته بقبضتي نظرت حولنا، كنا بمثابة كهف صغير جداً، تغلقه صخرة كبيرة، حاولت أبعادها بكل ما أوتيت من قوة، لكنني لم أفلح بنفض الرمال عنها حتى، وضع لنا جانباً الكثير من الفاكهة والمياه، جلست من جديد ووجد بجانبي، أفكر بما هو آتٍ.

مر وقت طويل ربما أيام عدة ولم يتغير شيء، نفذت بعض الفاكهة وبعضها الآخر قد تعفن ولم تعد تصلح للأكل، تمكن منا اليأس، ولم يعد لدينا أمل بالنجاة، ثرثرنا كثيراً عن أيامنا الماضية، ضحكنا وبكينا، أحكم الود براثنه حول قلبي، بت أتنفسها، أفصحت لها عن أمنيتي بمعرفتها سابقاً عدة مرات، تلك الأمنية التي كانت تسبب لها الضحك والبكاء في ذات الوقت، اعترفت لها بحبها الذي وقع في قلبي منذ أول لقاء، بالتأكيد أنه ليس بالوقت المناسب لأي شيء، لكن لا يمكنني فعل أي شيء سواه.

.....<<>>.....

فجأة ظهرت ماريتا وقفت بجانب ماري، وبدأتَ تمشيان وكأنهما شخصٌ واحد إلى أن اندمجت أحداهما بالأخرى، أخرجتَ من حقيبتي تلك الدمية التي سقطت

من تلك الطفلة الصغيرة في منزل ابانوب أتذكرونها؟!، تناولتا الخنجر الذي سقط من يدي أرضاً و بدأتا تتلوان طلاسم بلغة لا أفهمها وبدأت بالترديد خلفهما، مما جعل يد هيلانة تحترق وتشتعل ناراً، كان يعلو صوتهما ويعلو صوتي خلفها، وهيلانة تزيد من حدة صوتها المرعب، كانت ترجع بخطواتها التي تدك الأرض للوراء، أعطوني اللعبة الصغيرة والخنجر وهما يكملان تلاوة الطلاسم وأكمل خلفهما بينما هيلانة غارقة بنوبة ألمها، توجهت نحوها مهرولاً ولازلت أتلو الطلاسم خلفهما، وقبل أن أسل الخنجر في قلبها، فجأة ظهر العجوز جوشوا الذي علمت على الفور أنه ابانوب مدافعاً عن هيلانة، توقفت الفتاتان عن إدلاء الطلاسم وتفرقتا عن بعضيهما من جديد، أستطيع تمييزهما عن بعضهما من ملابسهم فقط، ماري ببطالها الأسود وتيشيرت وردي اللون، بينما ماريتا لازالت ترتدي ثوب الزفاف الأبيض، وقفت كلٌ منهما تحدق بالأخرى، بينما وقفت هيلانة وهي تزمجر بغضب في وجه ابانوب:

_أذاً أنت من عبث بعقولهم لأداء الطلاسم، أكنت تود قتلي أيها الغبي؟، للمرة الثانية تود التخلص مني! (أحكمت قبضتها حول عنق ابانوب ورفعت جسده عن الأرض، وأكملت وهي تزمجر بغضبٍ هادر:) ألا تعلم أن نهايتي تعني نهاية الشر، أيّ نهايتك الحتمية.

أجابها بصعوبة بالغة:

_لقد أدركت هذا للتو، لهذا جئت إليكِ طامعاً أن نوحد قوى الشر، ونعُد كالسابق تجمعنا المصالح.

وقفت مذهولاً مما حصل ويحصل، نظرت إلى الفتاتان ملامح وجوههم لا تقل دهشتهما عن ملامحي، رمت هيلانة ابانوب أرضاً وهي تقول:

_لا يمكنني الوثوق بك بعد الآن؟؟!!.

أردف باستجداء:

_بإمكانكِ تجربتي، لن أخونكِ بعد الآن أبداً.

أجابته بحنق شديد:

_أقتل فتاتك بيدك وبعدها يجب عليك قتل الشاب، عندها فقط سأعفو عنك، و نعد كالسابق.

_لكن.....

_اقتلهما...

زمجرت بحدة جعلت المشاعل تسقط من على الجدران وتنطفئ، خيّم الظلام للحظات، و بنفخة واحدة من هيلانة سمع حسيسها بفضل الصمت أشعلت المشاعل أرضاً، باعثة نوراً أضاء المكان جيداً، فجأة صوت صراخ توجهت عيناي نحوه، فوجدت ابانوب يمسك بماري ويضع سيفاً على عنقها، وقبل أن أتحرك من مكاني، صرخت به ماريتا وللمرة الأولى أسمع ماريتا تتكلم، اقتربت منه، بينما هيلانة عادت للجلوس على عرشها تراقب ما يحصل:

_لماذا فعلت الذي فعلته؟؟، و لماذا تفعل الذي تود فعله؟؟.

رد بصوته المعهود كفحيح الثعبان:

_أنا الأقوى، وأنتما أبنتيّ الخطيئة.

أردفت بحنق شديد:

_لكنك تعلم أننا فتاتيك، ولسنا أبنتيّ الخطيئة!.

زمجر بغضب هادر:

_لكنكم من أرضٍ فاسدة.

أضافت باستجداء:

_لا يهم الأرض إن كان الزرع صالح يا أبتي.

أجاب بحنق شديد:

_الأرض الفاسدة تفسد كل بذورٍ صالحة.

طالعته بازدراء وهي تجيب:

_لكنك لم تعرف درب الصلاح يوماً، كنت سيد الشر دوماً، ولازلت تود البقاء كذلك!.

رقت ملامحه، أردف بنبرة تشوبها المرارة:

_كنت أود الصلاح لكم دوماً، لم أشئ يوماً أن تكونا مثلي.

_لماذا؟. (سألته ماري بدهشة)

أردف بصوت واهن:

_لأنني لم أشأ أن أكون كذلك، والدي من رغب دوماً بهذا، وقد ترعرعت مع أمي، كانت نقيّة السريرة وقد ربتني على ذلك، (صمت قليلاً، ثم أردف بغضب جحيمي:) إلى أن ارتكبت هي الأخرى الخطيئة، ونثرت ما علمتني إياه في الرياح ليكن هباءً منثورا، بعدها علم والدي فجاء إلينا ككتلة جحيمٍ غاضبة، عذبها كثيراً أمام عينيّ ثم قتلها،(قال بنبرة صوت أعلى:) كانت تستحق ذلك، (صمت قليلاً، ثم أكمل:) ثم أخذني معه، وجعلني برفقته وعلمني أصول السحر ومدى جبروته حتى أضعت نفسي النقية بين جنباته، كنت افتقدها بشدة (صمت من جديد، نظر إلي ثم أكمل بصوت واهن(: إلى أن التقيت هيلين، كنت أرى النقاء في عينيها، أحببتها حباً جماً، (ثم نظري لماريتا وأردف بحنق:(لكنها الأخرى تلوثت بوحل الخطيئة، ولوثتكما معها وجعلتكما في دائرة الشك.

_لكنك علمت بنقائي ورغم ذلك قتلتني لأجل مصالحك التي كانت فوق الجميع. (تقول ماريتا والدموع تتقاذف من عينيها)

_لم أشأ إيذائكِ في البداية، لكنكِ أصررتِ على ارتكاب خطيئة السحر، ثم عندما بدأتِ بأداء الطلاسم تراءت لي والدتكِ فعادت ذاكرتي لما فعلته، فاخترقت عقلكِ النقي وبدأت أوسوس لكِ كأي شيطان، وبدأت أعلمكِ الطلاسم التي ستتيح لي جسداً قوياً وجبروتي مقابل جسدكِ وروحكِ النقية، لكنني لم أستطع إلا السيطرة على جسد عجوز كهل، بروحٍ فيها لمسة نقاء كانت المفتاح للسيطرة على دانيال لأعيد جبروتي، لكنني خسرتها مرة أخرى بتلاعبي بأحد أعواني، ليستقر بي المطاف بجسد العجوز جوشوا، وها قد آن الأوان لأسترجاع ما سلب مني من قوة ونفوذ.

_إذاً كنت لكَ مجرد أضحية. (تسأل ماريتا بأسى)

_وسنكون الآن كذلك. (تقول ماري بأسى وهي تجلس أرضاً كشخصٍ توه قد ذاق طعم الهزيمة)

ضحك ابانوب بصوتٍ مرعب تردد صداه في الكهف بل أظن قد تردد على مدى الصحراء الشاسعة فوصل لأبعد مدى

_الأمر كذلك. (يقول بصوته الذي يشبه فحيح الثعبان)

_لكننا أحببناك بصدق، أحببنا نقائك الذي لمسته عقولنا الطفولية، أتذكر عند ميلادي السابع عندما جئت إلى الميتم وقدمت الهدايا لجميع الأطفال، عندها حملتني بين ذراعيك وقبلتني كثيراً ثم أعطيتني هديتي وهمست لي بالوداع، عند رحيلك بكيت كثيراً. (تقول ماريتا، ثم تزيد من حدة نحيبها، أهمس لنفسي أذاً هو كان ذاك الرجل)

أبعد ابانوب يديه عن عنق ماري ورمى السيف من يده، قائلاً بنبرة صوتٍ لطيفة بعد أن رقت ملامحه:

_كيف علمتِ أنني أنا؟؟.

_قلبي قد وشى لي أنك أنت والدي.

أردف بصوت واهن:

_بعد فراقكم جميعاً في يومٍ واحد كنت افتقدكم بشدة (أكمل بنبرة أسى:)أحببتكم كثيراً (ثم صرخ بحنقٍ شديد:) لكن هيلين شوهت نقائكم وشوهت حبكم في قلبي إلى أن اختفى أثره.

تتدخل هيلانة وتقول بغضبٍ هادر:

_هيا فلتنهِ الأمر بسرعة، لكن قبل أن تفعلها لدي مفاجأة لهم جميعاً، تستحق شجاعتهم الحصول عليها في لحظاتهم الأخيرة.

أشارت بيدها لأحد الوحوش المحيطة بنا، زمجر جميعهم بحدة، ثم أصدروا أصواتاً هزت الأرض، وقفنا مشدوهين، بينما اصطف الوحوش، يفسحون الطريق لما هو آت.

.....<<>>.....

تمكن منا الوهن والعطش، غدت حال وجد مأساوية، تذكرت تلك العشبة ((نبتة الحياة)) أخرجتها وجذبت حجراً وبدأت بسحقها به فوق الصورة التي جمعتني بدانيال وماري، ثم بدأت أطعم وجد منها وأتناول منها أيضاً، بعد مضي وقت طويل، شعرت بتلابيب النشاط تتسرب في أنحاء جسدي، نظرت إلى وجد التي باغتتني قائلة:

_أشعر بنشاط لم يسبق لي أنني شعرت به (ثم نظرت إلي مشدوهة، جذبت نفساً طويلاً ثم أردفت ضاحكةً (:تبدو أصغر في السن أيها الطبيب، يبدو أن هذه العشبة تعيد الشباب لمن يتناولها (ثم أضافت بحرج:) غدوت أجمل.

ضحكت لما قالت، ثم باغتها بمرح:

_لكنها لم تغير بكِ شيئاً، يبدو أنها عجزت أن تمنحكِ جمالاً أكثر من جمالكِ.

طبع الشفق على وجنتيها حمرته، عانقتني بقوة، ثم همت تهمس لي باعترافها الأول الذي لم تكمله:

_أحـ بـ .

فجأة تحركت الصخرة من مكانها مصدرة أزيزاً يصم الأذان، ظهر من خلفها وحوشٌ قد رأيتهم مسبقاً، افزعوا وجد حد الجنون.

.....<<>>.....

ننظر جميعاً وكأننا عين واحدة نترقب المفاجأة الأخيرة، فجأة ظهر جورج وعيناه تعانق الأرض تتشبث بكتفه فتاة غاية في الجمال والروعة، صرخت بفرح لمرآه:

_جورج ألا زلت حياً يا صاح. (أقول والبسمة العريضة احتلت شفتيّ)

نظر جورج إلينا بصحبة الفتاة وهو يصرخ بمرح:

_أأنتم هنا يا أصحاب؟!!.

ثم تبعهم رجل يجره وحوش غريبة الشكل تشبه الديناصورات، صرخت الفتاة التي بصحبة جورج وهي تتوجه نحوه:

_أبتي ألازالت حياً؟!!!!.

عانقته بقوة، ضحكت هيلانة بشكل مرعب :

_يبدو أن المفاجأة أذهلتكم كما توقعت (ثم أردفت بصوت كالرعد الصاعق:) هيا فلتنهِ الأمر يا ابانوب.

يومئ ابانوب وقبل أن يتحرك من مكانه، تصرخ ماريتا بصوتٍ غاضب:

_لكنك علمتني كيف أقضي عليكم دون أن تكترث يا أبي.

ينظر ابانوب أليها وهو يبتسم وقد عادت ملامحه المخيفة إلى عهدها:

_أنا الأقوى، لا يمكن لأحد القضاء عليّ يا صغيرتي.

بدأت ماريتا بتلاوة الطلاسم التي علمها إياها ابانوب مسبقاً من جديد، تمسك يد ماري التي تسللت إلى عقلها هيلين لتتلو بصحبتها، و يندمجا في جسدٍ واحد، يصرخ ابانوب بصوتٍ مرعب ((كفى)) بينما جسده ينكمش شيئاً فشيئاً، يحاول ابانوب الوصول لفتاتيه، أفكر ما عليّ فعله الآن، أذكر ما قالته هيلانة نهايتها تعني نهاية ابانوب، ظهر ساروخ فجأة وبحركة خاطفة احتل جسدي، وبدأت أتلو بصحبتهم الطلاسم بلسانه، تصرخ هيلانة وهي تجري إلى أن سقطت أرضاً، وبحركة خاطفة غرزت الخنجر في قلبها، صرخت هيلانة صرخة قد جمعت الوحوش جميعهم حولنا، أصبح الصوت يعلو أكثر فأكثر، أخرجت الجمجمة من حقيبتي، وحبست بها روح هيلانة التي خرجت من جسدها على شكل طيف، ثم وضعتها في حقيبتي وأحكمت إغلاقها، بينما الأصوات مازالت تعلو، والضجيج والجلبة الهائلة لازالت مستمرة، ثم ركضت نحو ماري وماريتا اللتين تفرقتا تكورت عليهما أرضاً، تغلق ماري أذنيها بكفيها تحاول تخفيف حدة سماع أصواتهم المرعبة، تباغتنا ماريتا قائلة وهي تبتسم بعد أن عانقت ماري طويلاً وقبلت خدي:

_الوداع.

واختفت، تقدمت الوحوش نحونا وهي تزمجر بغضب هادر، صرخت ماري صوتاً تردد صداه في المكان، ثم سرعان ما تحولت الوحوش الضخمة لجرادٍ صغير يتطاير بدون وجهة فيصطدم بجدران الكهف فيسقط أرضاً دون حراك، أغمضت عيناي مر وقت لم أستطع حسبانه وكزني أحدهم في كتفي، جلست من

مقعدي فأجد سيرينا مبتسمة تقف فوق رؤوسنا وسط البقعة البيضاء وبجانبها الجدة هانّا، وقفت أسألها ما الذي حصل؟؟؟.

_لقد قتلت قلب الشر أيها الشجاع، لقد قضيت على هيلانة وأتباعها.

تربت الجدة هانّا على كتفي قائلةً بحنان:

_لم تخيب ظننا أيها الشجاع.

تنظر إليها ماري باستنكار بعد أن وقفت وهي تنفض الرمال العالقة ببنطالها، ثم تعلق باستهجان:

_و ماذا بشأني ألا أعد من الشجعان يا جدتي؟؟.

تقترب منها الجدة هانّا وقد زغردت شفتيها ببسمة ترقص فرحاً في عرس سعادتها، تلك السعادة التي كادت أن تموت شوقاً لها، تربت على كتفها، ثم تعانقها طويلاً وهي تردد:

_بلى أيتها الحسناء، بلى أيتها الحسناء....

تهرول عيناي بين الحجرات الزجاجية بسرعة، كما هرولت عينيّ ماري والجدة هانّا والجميع، فنجد أهل المكان يجتمعون حولنا وبينهم ماثيو، أنظر إلى سيرينا وأسألها:

_وماذا الآن؟؟؟.

_سيسود العدل الأبيض النقي أيها الشجاع، ستجدون مراكب تنتظركم على حدود الجزيرة، ما أن تخرجون ستختفي هذه الجزيرة للأبد، إياك أن تنسى دفن الجمجمة في المقبرة، أنتهى دوري الآن الوداع.

وبسرعة خاطفة اختفت سيرينا، وعادت ذاكرة أهل الساحل من جديد ومن بينهم ماثيو، لكن المدهش أنهم لا يذكرون شيئاً عن ما حصل على أرض الجزيرة، عادوا بذاكرة بيضاء لا تشوبها شائبة لعنة هذه الجزيرة، تعرفوا على بعضهم البعض، حدثت جلبة هائلة أفزعتنا، ثم وجدنا أنفسنا على شاطئ الجزيرة.

.....<<>>.....

_يبدو أنه الوداع أيها الطبيب جورج.

نظرت إليها قائلاً باستجداء:

_ألن تبقي معي؟؟

_أليس عليك العودة لديارك (أومئ، تضيف بأسى:) ويجب علي العودة أيضاً بصحبة أبتي، كل منا له دياره أيها الطبيب، لا يمكنه تركها لتجمعنا ديار واحدة.

_بإمكانكِ البقاء معه يا وجد أن شئتِ ذلك. (يقول السيد مايكل وهو يربت على كتف ابنته)

_يستحيل أن ابتعد عنك يا أبتي.

خطرت لي فكرة، فطرحتها على الفور:

_وأنت سيد مايكل عليك العودة بصحبتنا، لا صحبة لك في ديارك، ثم أنسيت أن لدينا مشروعنا الخاص؟.

يسأل السيد مايكل ببلاهة:

_مشروع، أي مشروع هذا؟؟.

_فيما يخص الأعشاب، أنسيت أنك من تعرفت عليها، وأول من قام بتجربتها، كما أنني جمعتها، هذا يعني أننا شركاء في ذلك.

ضحك السيد مايكل كثيراً، ثم وجه حديثه لوجد:

_أنه يروق لي كثيراً يا ابنتي، ثم أنه قد أقنعني بشيء واحد، لا صحبة في الديار تنتظرنا، لما نعود إذاً؟؟.

تسأل وجد مشدوهة:

_هل أنت جاد يا أبتي؟؟

يومئ كثيراً وهو يضحك، ثم يضيف قائلاً:

_لنكمل مغامرتنا بحياة جديدة، لا ضير في ذلك يا ابنتي سوى المزيد من الإثارة والمرح.

عانقت والدها بقوة، ثم قالت لي:

_سأرافقكَ إلى ديارك أذاً.

_أهلاً بكِ في ديار القلب يا وجدي.

.....<<>>.....

غادرنا الجزيرة بتلك القوارب التي وجدناها بانتظارنا على أطراف الساحل، وما أن غادرناها حتى غارت الجزيرة إلى قاع البحر محدثة جلبة هائلة كادت أن تقلب قواربنا رأساً على عقب، كان الفزع يملأ عيون أهل الساحل الذين تجمعوا على صوت الجلبة التي أصدرتها الجزيرة وتهللت وجوههم لرؤيانا، وصلنا الساحل الذي بلل أهله رماله الذهبية بدموع الشوق، كانت تتناقلنا الأيادي أنا وماري وجورج فوق رؤوسهم يهلهلون لشجاعتنا التي أنقذتهم.

بعد عرس الفرح المنتظر المبلل بدموع الشوق الحارة، عادت التكنولوجيا لأرض الجزيرة، فبدأت هواتفنا النقالة بالعمل من جديد

هدأ الجميع وذهب كل فردٍ بضالته ليروي له مأساة فقدانه تحت سقف العائلة.

أخذتنا الجدة هانّا إلى مقبرة الساحل، ثم أشارت على قبر لطفل صغير، شاهدته قد بينت أنه لأخاها الصغير لاكي، قمت بدفن الجمجمة بالقبر الفارغ ونثرت الرمال فوقه لتدفن روح هيلانة ولعنتها للأبد.

مر اليوم سريعاً، هضم الساعات الفائتة بشراهة كبيرة، لم يكن كسابقيه المنقوشين في الذاكرة، صلب للغاية، تعقد دقائقه حلفاً مع الموت كل ثانية. وصلت بصحبة ماري إلى شاطئ البحر، والمزيد من الكلمات تتزاحم في جوفنا لتحصل على ترتيبها الصحيح لبدأ الحديث، طال وقت الترتيب، فتدخلت الشمس وقد بدأت في مسيرة الرحيل، عند وداعها الأخير وقبل أن تسدل ستائر الظلمة الحالكة المطرزة بنور القمر ودانتيل النجوم، أهدتنا جواً من الرومانسية الفريدة، أشعة حمراء تضاهي شموع الحب الخافتة، هدوء البحر مع تناغم أمواجه الراقصة التي ترتمي عند أقدامنا مع نهاية وصلتها الراقية، تنتظر منا التصفيق لها بابتسامتنا، بالمختصر قد أهدتنا جواً شاعرياً جعل أشواقنا الملتهبة تطفو على ملامحنا، ولم يعد يسعنا التحكم بها، باغتها قائلاً:

_ وحده الحب قادر على هدم جدار الخوف في أرواحنا المنهارة، وقلوبنا التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، ليبعث بها الروح النديّة المليئة بالشذى والعطر، ليلقي تعويذته، و ينتشلنا من ظلمة اللعنة الملطخة بالدم والموت، ويحلق بنا إلى عالم الهدوء والسلام والألفة والحب (فنطقت شفاهنا في آنٍ واحد بتلك الكلمة المقدسة.....)

{{أحبكِ}}.

.....النهاية.....

إنك في أرض الشياطين

(لا تجزع إنهم هنا في كل مكان)

تأليف: منى شكرى العبود

تنسيق: إيمان محمود محمد

غلاف: دعاء سمير

رقم الإيداع: 2022/13407م

الترقيم الدولى: 978-977-6989-51-1

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة نشر دون موافقة قانونية مكتوبة من الكاتب يعرض صاحبه للمسائلة القانونية.

والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لاغير.

ابن معيط للطباعة

ت: ٠١٢٢٢١٢٣٥٨٣٣ ــ ٠١٠٦٢٧٦٥٧٣٦

بريدإلكتروني :ahmedragbmait@gmail.com

الطبعة الأولى ٢٠٢٢م